

مساكن أهل الهوى

رواية

محمد رضا عدوى

مساكن أهل الهوى
المؤلف : محمد رضا عدوى

تصميم الغلاف : أحمد بلال
الخطوط : عماد الدين بكري

الطبعة الأولى : يناير 2018
رقم الإيداع : 27885 / 2017
الترقيم الدولي : 2-205-769-977-978

جميع حقوق الطبع محفوظة
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة - 2 شارع شريف - الدور
الخامس - مكتب 57
م : 01010490247
ت : 02)23963002

إهداء:

إلى جمال عبد الحكيم

تنورة ضيقة قصيرة تكشف عن ساقين ملفوفتين لجسد فتاة بض لها شعر أسمر ليلي مقصوص ومهذب بعناية ينسدل على عينيها جعل الكحل من هديبها سواحل وشطآن، وضعت نظارة طبية زادتها تأنفًا وقالت في صوتها الرقيق: حضرتك ليك معاد مسبق مع الأستاذ فؤاد..

تمنيت أن أبوح لها بخاطري وتغازلني الجرأة فأخبرها بحاجتي لموعد حقيقي معها خارج تلك الغرفة بمكتبها الصغير ومقاعد الانتظار وساعة الحائط وسجادة بيضاوية أزرق لونها، استفتت من أفكارى على صوتها يردد السؤال بصيغة أخرى فقلت بتلعثم:

قليل: آه.. آه.. قوليله.. إياد رامز الصحفي...

أخرجت دفتر الأعمال اليومي، وحقًا وجدت معادًا في الثالثة خصني به بالأمس وبلغها به اليوم، رفعت سماعة التليفون الداخلى بلهجة يفرضها عملها كسكرتيرة لأحد أشهر المحامين في مصر وقالت: أستاذ فؤاد..

أخبرته بالموعد فجاءها الرد سريعًا من الطرف الآخر، فأذنت لى بالدخول، راودتنى فكرة المغازلة مرة أخرى لكنى أثرت السلام!

شعره الأبيض ومسحة الوقار على ناصيته، إضافة لسيجاره المستورد جيد التبغ، وبدلته الرمادية برابطة عنق عريضة داكنة اللون، وأمامه مكتب ضخمة عتيق استقرت عليه مجموعة من الأوراق وقطعة رخامية

..... مساكن أهل الهوى=

منحوت عليها بلون ذهبي «فؤاد ليبب - المحامي» لم يكتب عليها مدير
مؤسسة عزيز للحريات لا حاجة لتعريف العلم!
أسرعت بيدي مددتها مصافحاً وشجعتني لهجته الترحيبية على البدء
في حديثنا مباشرة..

- لحضرتك جزيل الشكر.. وأتمنى ماسبش أى تأخير في وقتك..
- لا يا ابني أنت شرفتي.. صحفى زيك شاطر ونشيط يستحق
التقدير دائماً..

قلت بثبات وسرور: أتمنى أن أكون عند ظنك الكبير بيا وأكون على
قدر موافقتك بإجراء سلسلة الحلقات معاً..
قد أكون بلغت من السعادة غايتها باطلاعى شخصياً على نسخة
من ملف القضية، تلك القضية التى ذاب لها ثلج الرأى العام فى بداية
تسعينيات القرن الماضى...

قام إلى الشباك ففتح ضلفتيه وقال: حر أغسطس لا يطاق يا أستاذ
إياد، خصوصاً لحد فى سننى بيقرب للسبعين..
أومأت برأسى مجيئاً بينما طلب عبر الهاتف الداخلى كوبين من عصير
الليمون فلم أمانع..

- الموضوع أكبر من قضية يا إياد.. قال بجذ ظهر فى ملامحه الغائرة..
استدرك حديثه، بينما أظهرت له حسن استماعى: الموضوع تاريخ يا
ابني، الناس فاكرة إن التاريخ رؤساء وملوك وقادة وسياسيون بس..
مرة أخرى يفتح درج مكتبه لكن تلك المرة يخرج كومة كبيرة من الورق

..... مساكن أهل الهوى=

المكديس فوق بعضه داخل ظرف أبيض كبير وضعه أمامي، مكتوب عليه بالرقعة نسخة من ملف القضية..

أفرغ ما تبقى من كأس عصيره جرعة واحدة ثم قال وهو يمسح بمنديله رأس تمثال صغير للسيد المسيح على المكتب: التاريخ هو الناس والشوارع والبيوت، هو فقرنا وغنانا العيشة الضنك والعيشة المرتاحة ده روح التاريخ، غير كده اعتبرها حكاوى تتقال علي قهاوى السيدة والحسين ووسط البلد بين المثقفين.. ورغم ذلك أنا حاليًا في مرحلة عمرية معرفش تسمح بالبوح بأسرار وقضايا ولا لا..

أخذت كلماته على محمل الجد وأكثر بما يناسب أهمية ذلك الملف وتلك القضية بالتحديد من قضايا التسعينيات الشائكة، ودار بخلدى سؤال لربما هو فيصل محاولاتى الصحفية وتطلعاتى الذاتية..

هل حقًا أبحث عن الحقيقة، أو فى حاجة لمجد شخصى أجرى خلفه؟! ومن يضمن لى الهدوء عند معرفة بواطن الأمور وحقيقتها، ذلك فى الغالب يخرج ولا يريح!

تناولت الظرف الأبيض ومسحت عنه بعض الغبار وبدأت قراءة عناوين صفحاته «عزيز.. على...نجاة»..

الليل..

ساتر أم مستور، يخفى ظلامه الخوف أم يبسط الخوف عتمته
لم تكن بحوزتي إجابة واضحة، قادتني قدماى فى سواده إلى المجهول..
كل ما أعرفه هو الهرب، هرب من متاعب أترك لها الماضى باحثاً عن
حاضر يكون ليله نوم دون تساؤلات..

أسمع الآهات فى أعماقى، فيكتمها ما تبقى من صبر..
هرب عزيز من محبسه ذى العشرة أعوام، أم طبع المحبس قضبانه بالقلب
البرىء!

أسرع الخطى وسط الدروب، أتوارى بالأشجار دون كلل..
لن يكتشف أحدهم أمرى حتى الصباح..
جميع المساجين نيام لا يحدثون صياحاً ولا يسمع عنهم حديث.
نعيش نواكر ونموت فى صمت يتخلل سكون الليل..
جُرحت قدمى العارية، يختبر ذلك الغصن بشوكة المدبب صلابتى، لم
أعره الاهتمام، بل بادلته ضغينة وكرهاً..

لا أعلم كم قطعت من المسير، لا قمر يرافقنى ولا نجم أراه هادياً..
فقط الظلام وصوت أنفائى لاهثة وألم فى الساق وسعال فى الصدر ورأس
حليق.. متى أفطن إلى الوقت لربما قضيت بمحبسى مائة عام وظننتها عشرة

..... مساكن أهل الهوى=

وربما هي سنة واحدة!!

داعبتني أضواء السيارات على الطريق العمومي في ثلث أخير من ليل
قضيت أوله في الركض..

تلمست قدمي الأسفلت، أحبت ملمسه يسراى المصابة، أسرعت متواريا
بالظلام بالقرب من لافته مضاءة بعبارتها «الكيلو 93».

راقبت شاحنة نقل كبيرة توقفت عند اللافتة، أطفأ سائقها أنوارها لتحال
إلى كتلة مصممة من الظلام، انفرجت أساريى حين سمعت صوت آلة
التنبه مرة والثانية ثم الثالثة أشرت إليها وهتفت بكلمات متفق عليها.

توقف أزيز موقدها، فتح الباب ذو الشارب الكث والقبعة القطنية، رد
بصوت أجش: هارب جديد..

ميزتني ملابس السجن ورقمها المكتوب بخط يبصره الأعم.. ظهر بريق
في سنته الفضية يعكس ضوء كابينة القيادة ليردف بنفس اللهجة الخشنة:
اركب، ما تخافش، أنا مش شغلتي أقبض على الهربانين..

ازدردت لعابي وقلت في حيرة وتساؤل: فين فؤاد؟!

- ساعتين وتكون بتتعشى معاه بعد حمام سخن يغسل ريحة السجن..
صعدت إلى جواره مستنداً إلى الباب الذى أحكمت غلقه.. تناولت
الكيس الأسود الموضوع جوارى، بدلت ثوب السجناء بآخر أطيب رائحة..
طلبت سيجارة فكانت محلية شكرته عليها وارتخيت بالمقعد مستمعاً لصوت
الراديو وسيدته الغانية حتى غفوت مردداً «أهل الحب صحيح مساكين»..
عقرب عند الثانية والآخر يشير إلى تمامها في ساعة مربعة ذات إطار فضي

..... مساكن أهل الهوى=

بجانها صورة للمسيح صغيراً في حضن أمه العذراء، استدرت بالغرفة
يميناً ويساراً أقلب عيني بحوائطها فتستقر بالمكتبة الزجاجية، تسكنها كتب
القانون والمحاماة وفي رفها الثاني كانت مسرحيات شكسبير بالقرب من
«نزوة العشاق» لجوته...

هممت بفتح ضلفتها حتى جاءني صوت متلهف: عزيز.. عزيز..
غصنا في عناق طويل يحمل صداقة عقود من الزمن نحتت تجاعيد وجه
فؤاد وصبغت خصال شعره بالأبيض..
أجلسني بجواره على الأريكة الطويلة، أحكم غلق الأبواب بعدما جاء
بعشاءٍ يختلف تمامًا عن طعام قاطني السجون..
لم يترك لي الفرصة في السؤال، طرد عني حيرتي بصوت هادئ: ما تقلقش
من المعلم عيد، ده راجل ضمير برلنت..
- واحد من التنظيم؟! -

- لا هو شايف إنه مدين لينا فييساعدنا..
تابعنا الحوار بعيداً عن ذاك السائق، دمعت عيناى وملاً صوتى اللهفة
حين ذكر على.. عشرة أعوام لا أصطحبه إلى كورنيش النيل، لا أوقظه يوم
العطلة فجرًا ممسكًا بسنارة وحقيبة صغيرة أعدت محتوياتها أمه، يرافقني
الصيد ونعود عند الغروب..
دبر فؤاد لقاء قريب مستر مع عبي بشقة صغيرة في حي المنشية، أعدها
لتصبح نخباً خاص..

الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية يستغرق فوق الثلاث ساعات،
مرت أكثر من ذلك بكثير، لا يسعني الصبر لانتظار سيارة أجرة تأخذني
إلى وجهتي، تسبقني قدمي إلى ميدان الشهداء لأتخذ أول يسارًا قابلني
بشارع إسماعيل مهنا ومنه إلى أحمد مرسى يمينًا ثم إلى مسجد العطارين..
لم أستغرق على غير عادتي في التأمل بشوارع الحى السكندري القديم،
انشغلت عيني بالبحث عن العنوان المسجل بالوريقة الصغيرة ويحفظه
عقلي عن ظهر قلب «19 شارع القائد جوهر - المنشية»..

انفرجت أساريرى عند رؤية الأستاذ فؤاد فى شرفة الطابق الثالث من
المبنى القديم فى نهاية الشارع، صعدت الدرج متجاوزا حد السرعة فكنت
بالباب متلهفا بدقات قلب سبقت يدى..

بعين دامعة كان اللقاء، عبرات العين تستقبل عناقًا تأخر كثيرًا لعمر
خلف القضبان قارب العقد، غصت بين أحضانه، أستم رائحته، أتلمس
جلده، أوقر مكانته، أبحث عن أبوة وأمان، أشد ذراعى خلف ظهره
مقبلاً وجنتيه، ماسحاً على جبهته، أهتف بكل صوت فى أعماقي أوثق
تلك اللحظة، شاكرًا ذاك الظرف، أقبل يده فتعثر سيل كلماتى لتتلق
عيني بسعادة اللقاء من جديد..

لم يقاطعنا الأستاذ فؤاد، حتى جلسنا وانتهى عناقنا فقال بود: الوالد

هيقعد هنا لفترة، لغاية ما نقدر نوفرله سكن آمن..
أومأت برأسى موافقا متفهما لخطورة الأمر، سألته عن نيته فيما بعد،
فجاوب وهو يهم بالانصراف: والدك هيقولك كل حاجة،
تركنا وغادر ليعد العشاء على الأغلب.. جلست بالمقعد المقابل
لجلسته، أحس بريق عينيه، أراه حرا لأول مرة منذ زمن، أكلمه دون
خوف من عين ضابط يراقبنا أو أذن لعسكري يسترق السمع، أملأ عيني
بملاحه فلن يقطع لقاءنا صوت صافرة مشؤم ينذر بانتهاء الزيارة، أبصر
الدفء في بريق عينه، وأعد سنوات عمرى على شعيرات ذقنه البيضاء،
وأنفه الكبير الذي يعتز وجهى بمثلى..

قطع تأملى ابتسامته الواسعة وصوته الهادئ: كيفك يا على...
انطلقت بسمه على وجهى إيذانا ببدء حديث اشتقت إليه كثيرا..
دائما بخير طالما أطالع صورك الفوتوغرافية وتغمرنى السعادة عند
ذكر تاريخك ويزيد قامتى إنك والدى فكيف تكون سعادتى وأنا أراك
وأتحدث إليك؟!

لم يخبره لسانى بكل ذلك وإنما اكتفى بالحمد والخير..
لم يترك لى فرصه لسؤاله والاطمئنان لحاله، كان متعطشا لأخبارى،
عملى وحياتى وربما أكثر من ذلك، عن كل شىء، خمس سنوات عن آخر
زيارة هو عمر أيضا، وددت لو ألومه وأخبره بحزنى..
قارنت مجلسه بمعطف جلدى وقميص زهرى أسفله بالمره الأخيره
التي رأيته فيها، حينها كنت طالبا فى سنتى الأولى بكلية الآداب، أحمل

..... مساكن أهل الهوى=

بجعبتي الكثير، أخبره بقبولي بقسم الإعلام، كنت مليئا بالحماسة دارت شجون نفسي للكتابة عنه وعن رفاقه طوال فترة دراستي، ولم تقل ثقتي بقلمى يوما واحدا، حتى انقطعت عنى أخباره وفقدت البوصلة التي تدلنى الطريق فلم أعد أعطى تلك الشجون اهتمامًا بقدر اعتكافى على متابعة سيرته من رفاقه القدامى، أطرده عن رأسى اتهام خالى بأنه أب غير مسئول، أودى بحياة أسرة هنيئة من أجل إرهابات تشبع عبثيته..

دام الحديث بيننا لفوق الساعتين حتى قاطعنا الأستاذ فؤاد بطعام العشاء، كالعادة دائمًا، تحب إسكندرية رائحة السمك وتجبر زوارها على ملء بطونهم، بل وتصبح ذا شهية واسعة وأنت بقرب والدك ويشاركنا المائدة صديق عزيز يسرد بعض الترتيبات التي أنجزها لخروج والدى من محبسه..

ربطت خيوط حديثه بساعة ليلية دق فيها باب شقتى لينفرج عن شخص متوسط القامة صاحب تجاعيد ظاهرة وشارب كث، نطق اسمى بثقة وهو يدخل مسرعًا، جلس بكرسى خشبى مجاور للباب الذى أحكم غلقه وقال ممسكًا يدي: أنا مرسل من والدك

حينها انفرجت أسارىرى وسرت بجسدى قشعريرة قوية..
قابل والدى بسجن دمنهور العمومى حين نقل إليه في بداية أغسطس

1987

لم تكن تهمته كبيرة مثل عزيز سالم الذى صوره النظام قاتلاً، هو معارض سياسى ومحام يقف ضد قوانين الانفتاح فكان المصير عام من

الاعتقال دون تحقيق أو حجة قانونية، رتب مع والدى شأن هربه فى الليلة قبل الأخيرة من تنفيذ قرار الإفراج عنه...

أتذكره حين أقسم بالمسيح أن والدى أشرف من قابله وأكثرهم جلدًا، ظل الحوار شاغل رأسى أصل بين كلام يقال الآن بحى المنشية وآخر تاريخه قبل شهر ونصف بشقتى فى السيدة زينب..

غادرت فى تمام الواحدة ظهرًا، نقلتنى قدمائى لشاطئ المنشية، لفتاة أحببتها كانت حورية ذلك البحر الهائج رسمت لها سلمًا من المجد ودعوتها نرتقيه، فكانت واقعيتها أشد ألمًا من منطق ذاك الزمان الغابر، فلا رسام يعيش فيه دون ريشته ولا كاتب دون قلمه وكذا الأمر بين العشاق لا يكفيه الكلام المعسول ولا تكتنفه الأمانى وأشعار الحالمين، هبت رياح سنوات فائتة عند رؤيتى قهوة مايوركا بشكلها القديم ومقاعد الخشبية والنقش اليونانى على جدرانها، منذ أربع سنوات أو يزيد فى إجازة السنة الأولى من الجامعة كان اللقاء على مقاعدها بنجوى، حورية شقراء زين خصرها حزام جلدى ممسك بتنورة قصيرة، وصيغ حسننها بوجه دائرى صافى اللون أبيضه، وتصل ضحكاتها صميم الفؤاد، فترميه بسهام العشق دون شفقة..

تعلقت بها فجعلت من قلبى نزيلًا للإسكندرية بصيفها وشتائها لا يهمه نوة شتوية ولا تخيفه شمس صيفية، لكن الأمر بعيد بل أبصره العقل أكثر بعدًا وأشد غربة..

جلست بمقعد على ناصية القهوة أسمع صوت البحر يرتطم بصخور

..... مساكن أهل الهوى=

صماء لا تحييه ولا تنذمر، دفعتنى رياحه لغلق معطفى بعدما أخرجت ورقة وقلماً وعلبة سجائرى المحلية، جاءنى النادل القصير بشاربه الكث، طلبت شايًا بمعلقة سكر واحدة وشرعت فى حديث القلم والورقة .. دار بعقلى بعض النقاط التى أوردها عبد الرحيم جاد الله فى مقاله الأخير عن صراع تيارات الإسلام السياسى والسلطة، لا أحد ينكر أن عبد الرحيم صحفى موهوب يجذب القراء بعناوينه المثيرة، لكن فى تلك المرة بلغ مدى كبير من الترويع، تحت عنوانٍ براق «الصراع الدينى العلمانى» أورد أفكارًا تتعصب لها جماعته وتتخذ منها شعارًا لأشد المراحل ضبابية، فكان الأجدر بقلمى أن ينتقد تلك الأفكار الرجعية بل يهاجم أيضًا من يروج لها وإن كان صديقًا قديمًا وزميل دراسة لأربعة أعوام..

باغتنى النادل بكوب الشاى وابتسامة مرحة، انصرف مسرعًا إلى الطاولة المجاورة يدون ما يطلبونه فى وريقتيه الصغيرة، تقع أفكارى فى خانة الريبة كل مرة أنظر فيها لطبيعة ذلك المجتمع من شباك عبد الرحيم جاد الله، كيف يتبدل حال مخرج ومسرحى شاب تنبأ له الجميع بمستقبل فنى وأدبى رائع لطفل ساذج يردد فى مقالاته أفكارًا قميئة تبشها جماعته فى سرائره، لم يكن ينقصه المال ولم يتعجل طريق الشهرة ليصبح لسان تلك الجماعة..

أنشر مقالًا أسبوعيًا تحت عنوان «لحظات الضباب»، لعله يتذكر تلك المسرحية التى فازت بالمركز الأول بمسرح الجامعة، فكنت مؤلفها وكان هو مخرجها وبطلها، رفضنا سوياً اعتلاء منصة التتويج ومصافحة

رئيس الجامعة ووزير الثقافة، اعتراضاً على اعتقال الدولة لعدد من شباب
الحركة الطلابية كان رأياً حراً لم يملئه علينا حزب أو جماعة..
.. وبورقتي البيضاء، تركت قلمي ليس دون وجهة أو هوية، أصنع
خطوطاً عرضية تقطعها أخرى رأسية، تأملت تلك الشبكة المربعة، لربما
هى الخيوط التى تربط مصائرنا وسط اغتراب ممنهج وجفاء اجتماعى
وقوانين من النبذ الإنسانى المتبادل بين الجميع..

صغير يبكى على صدرها فلا تكفيه نهودها لتجف مدامع عينه وفتاة
في زهرة عمرها بثوب فضفاض يغطي تكور مفاتها، تنظر بعين واسعة
إلى أمها وعربة الفول بقدرتها أمامهما، لينسدل ستار المشهد عن عائلة
تهيم بالأيام فلا تشتهي سوي يوم يمر دون ألم، لست الوحيدة التي تعاني
في ذلك العالم حتى وإن انحني ظهري ذو الواحد والعشرين عامًا أمام
تلك الطابعة الكبيرة، وسكنت أنفى رائحة الخبر السائل، فمشهد تلك
الأسرة كل صباح أمام باب المطبعة يخفف عني احتقان أحلامي وسراب
مشاعري..

تناولت فطاري على عجل، تحررت من المعطف الكتاني الثقيل، بدأت
مهامي اليومية بتنظيف الأرضية وبعدها حفظ نماذج الطباعة وتجهيزها،
يرافقني كوب الشاي بداية يومي، بلونه الكاتم ومزاقه العتيق الذي يناسب
«سيرة الحب» لأم كلثوم جوهره ذاك المذياع القديم..

يتوافد باقي عمال المطبعة تدريجيًا حتى العاشرة، بينما مديرها فلا يأتي
قبل الواحدة ظهرًا بثياب منمقة ولسان يחדش حياء من يصادفه إما سبًا
أو غزلًا جارحًا، لا تمنعه ملابس العائلات البسيطة والمزرية من افتراس
أجسادهن بعين تاجر خبير..

أفضل الالتزام بعملى دون التعرض له، فنفسى المجاهدة لا تحمل سلاطة

لسانه إن رفضت كرامتى تبجح ألفاظه وسوء سلوكه ولملمس يديه..
قد يقصر أو يطول ما تبقى من حياة والدى على فراش المرض، كما يقتل
أو يزيد معاشه الصغير ذو الجنيهاات القليلة فلا يكفى نفقة علاجه ولا
يسد جوع العائلة، فكيف لعاتقى الضعيف أن يحمل عبء عائلة من خمسة
أفراد، أم واهنة وابن صغير لا يزيد عمره على الخمسة، وفتاة أرى فيها الحياة
مزهوة بسممة من شفيتها تطف بها يومى السيئ دائماً، أختلس من رقتها
النظرات حين ترقص بغرفتنا الصغيرة تجد فى نفسها فنانة فريدة، تغنى
بصوت شجى وترقص بخصر لين، تخبرنى أن عينها كعين نعيمة عاكف،
وأنفها مدببة كهند رستم، لا تجيد التغزل فى جسدها إجادتها حين يتعلق
الأمر بالوجه الدائرى ذي الخمسة عشر ربيعاً، أزعجنى صوت المذياع
عندما رفعت سميرة من صوته، جاء صوتها مرتفعاً أيضاً مداعباً: بقينا
نسرَح ونفكر كثير الأيام دى..

ابتسمت فى استهزاء لما يدور بعقلها، فردتنى إليها وهى تردد:
«صافينى مرة... صافينى مرة».. هتفت مرة أخرى: أخبارك إيه؟..
بسمع عبد الحليم وبغنى صافينى مرة..
انطلقت ضاحكة وقالت فى صوت شابهِ الحزن: هنعمل إيه بس..
شكلها مفيش حاجة تفرح فى أيامنا..
- طب وحسن.. قلت فى مكر ومرح..
- حسن هو المشكلة..
استفاضت سميرة فى حديثها الحزين تحيل الدفء إلى برودة وتجعل

..... مساكن أهل الهوى=

من الأخضر يابسًا، فحسن لم يعد بطل ليالى السهر ورب حبيها ومشاعرها
أنهكته الضغوط فأنهك الضيق قلبه وساكنته..

لم يعد حديثهم حار يحرك ما بالشرابين، أصبحت يده باردة لا تحسن
احتواء أصابعها المتعبة بل لمساته أيضًا عجاف لا تروى شبق جسدها
وحنين روحها.. بالأمس البعيد كان حبيبها الذى خطف منها قبلة فى نهارٍ
عظيم فتمنعت ثم غاصت بشفتيها بين مبسمه، هل أتى الزواج بفصل
النهاية؟! أو ضيق ذات اليد هو صاحب قرار الحب ودرب السعادة؟!!

لكن الحب ليس بالقرار ولا السعادة أيضًا، الجميع يسعى إليهما
ويربطهما القلب سويًا، جميعنا نرغب فى الحب ونبغى السعادة كلنا نملك
ذاك القرار، فكيف لا نجد راحتنا؟!!

الأمر أعظم من قرار وحساب ورقى، هو حياة نتقبلها نخطو بها غير
عابئين بمتاعبها فليكن قرارنا هو الإصرار حينها فقط قد يأتى الحب
وتتبعه سعادته ولا شك لوعته.. على كلٍّ لست الفتاة المتزنة صاحبة الرؤية
الكاملة، ذات التنظيرات الصحيحة، أنا أنثى ضعيفة وإن رفضت البوح
وتجهم وجهى لصدام المجتمع، فإن روحى ألمها كلمات سميرة ذات اللحن
الحزين «حتى اللمسة ماحسيتهاش..»

هل يصبح لقاء الحب عملية بيولوجية بحثة فاقدة للمشاعر لهذه
الدرجة؟!..

بشارع عز الدين أنور كان لقائي بهند عثمان، فتاة بيضاء قصيرة القامة على عكس شقيقها الذى يوازينى طولاً وربما يزيد، تحمل عينه الضيقة لكنها ذات بسمه ودودة، كان صوتها رقيقاً كما توقعت عندما قالت متسائلة: «أستاذ على عزيز؟!»

ربما فى صفها الثالث الثانوى أو الثانى على الأرجح، هزرت رأسى مجيئاً لسؤالها..

- أه.. أنت هند أخت جمال..

- بالظبط يا أستاذ.. حضرتك ماعرفتش الى حصل أكيد..

قطعت بحديثها السريع وصلة التعارف التقليدية لأسألها عما حدث لجمال فتستفيض فى حديثها بينما تنقلنا قدمنا إلى قسم الخليفة فى الشارع الخلفى.. لم يكن حديثها مرتباً لكنى فهمته وجمعت خيوطه..

فى فجر الأحد اقتحم عسكرى ذو شارب كث تبعه آخرون وتزيلهم ظابط فى أواخر العشرينات، سأل على جمال الذى ارتدى معطفه وقابله بابتسامة مخبراً وإياه أن يطرق الباب بأدب فى المرات المقبلة لأن والدته لا تحب الضوضاء وعبث الصغار يزعجها..

قد أرى فى تلك الفتاة قوة جمال وهدوئه لكن أعماقها يضرها الخوف قلقاً على شقيقها.. أحكمت غلق بلوزتها الزرقاء عند وصولنا القسم

..... مساكن أهل الهوى=

وكأنها تتأهب لمعركة كبيرة، كان في انتظارنا بطريقة متوسطة يفتح عليها صفيين من الغرف المتوازية صديقنا رشدي، محام منمق الحديث هادئ الطباع، على عكس جمال الصاحب ذي الموقف الثوري دائماً في كل شىء.. أخبرني أن الأمر غير معقد ثم ناولني كوب الشاي الذي أخذ منه رشفة واحدة قال وهو ينظر إلى الغرفة المقابلة بلافتتها الصغيرة «معاون المباحث»: ممارسة السياسة في أماكن العمل الرسمية!

- تهمة ثابتة الأيام دى، قلت في ملل..

- أكيد بس بتفتح سكك كتير في التحقيقات أو بيتتهى الأمر باستمرار الحبس على ذمة القضية.. ويفرج عنه بمحل إقامته أو وظيفته في النهاية..
- بعد 15 يوم على الأقل..

قطعت هند حديثنا: مفيش طريقة يبقى قبل كده.. شهود مثلاً، إنه ما اشتغلش أى سياسة في المصنع..

جاوبتها بينما استمر رشدي في النظر إلى عينيها مباشرة دون حاجز: من امتى النظام بيحتاج شهود أو منطق لأى تصرف همجي بيمارسه..
أشعلت سيجارة وتابعت موجهاً حديثي لرشدي: هنعرف نشوفه امتي؟!

مط رشدي شفتيه وهز منكبيه قليلاً ثم أخرج من جيبه ورقة فتحها باهتمام، نظر إليها ملياً ثم قال: هتبدأ التحقيقات معاه بشكل رسمى بكرة..

تابع بلهجة عفوية وهو يدس الورقة في جيبه: محضر بعدين تحويل

للنيابة..

أطلقت الفتاة الصغيرة تنهيدة تفرغ بها اختناق صدرها وفيضانه
بينابيع الحيرة ورددت: طب نعرف ندخله أكل؟..

ابتسمت لسؤالها الطيب، تلك الأفكار البسيطة، بيتوتية المنطق، لا
يحتاج جمال للطعام الآن ولا يفكر به على الأغلب، لكن قد تراه أخته
جائعا بل تشعر بالبرودة أكثر منه وتنمو لديها دوافع القلق إذا غاب عنها
وجهه وخفض صوته في أذنها وقل وجوده في ربوع منزلهم.. ولكن ما كان
ميسورا أن تصل مساعينا لمقابلة جمال أو الاطمئنان عليه، فالتحقيقات
تبدأ غداً بشكل رسمي، حينها يستطيع رشدى مقابله والحديث معه..

أوصلت هند التى لم تكف عن حديثها طيلة الطريق وحتى البيت، عن
دراستها وحبها للشعر العربى، طالبة بالصف الأول لكلية الآداب قسم
اللغة العربية تحفظ لعنترة عن ظهر قلب ويعجبها امرؤ القيس فتبارى
لسانها بما يحفظه عقلها، ترفع رأسها الصغير وتردد..

يا أيها السائل عن مجدنا *** إنك مستغبي بنا جاهل

فذكرتنى بيت شعر، أخذته مورداً ومنهجاً حين كنت طالباً في
الجامعة أرى فيه الخمر سنة والحسناوات فرض، ارتسمت ضحكة خفيفة
على شفتى قبل أن تقاطعنى هند بصوتها الرقيق..

- إيه اللى بيضحك، أنت ما بتحش الشعر الجاهلى..

- بالعكس..

قالت وهى تنظر يمينها قبل أن نعب الطريق الخالى من السيارات

..... مساكن أهل الهوى=

وكذلك المارة: على كده بتحب مين من الشعراء؟!
انطلقت ضاحكًا ثم ضمنت يدي بالمعطف الجلدي وقلت: عمرو بن
كلثوم والأعشى الأكبر...
أخبرتها بيت الشعر الذى أهواه: «ألا هبى بصحنك فأصبحينا.. ولا
تُبقي خور الأندرينا»..

فسألت عن آخر للأعشى نظرت حد بصرى وألقيت مبتسمًا..
«وصهباء طافَ يهوديُّها وأبرزها وعليها خُثْمٌ
وقابلها الرِّيحُ في دَنِّها وصلَّى على دَنِّها وارْتَشَمَ»
ودبت ضحكتها عالية في أذنى، أخوها أيضًا يحب مثل هذه الأبيات،
ولا في ذلك غرابة فهو شريك سهرات الجامعة..
ودعتها عند باب منزلها وغادرت يمينًا إلى تقاطع شارع زقاق
العطارين بدرب الحصر لأنعطف متخذًا وجهتي بالأخير ومنه إلى السيدة
عائشة..

لا تخطئ قدمي تلك الشوارع ولا ذاك العنوان حيث شقة في اليسار من
سلم صغير لعمارة قديمة في حارة الكوالينى، أرتاد عليها منذ سنوات حين
علمت الهوى والسهر، لكن اليوم لن أقابل بها جمال ولن ينتظرني بالصالة
عبد الرحيم، حتى رشدى لم يعد سكانها يلائمون وضعه الاجتماعى
وخطوبته المنتظرة.. سبع وعشرون سلمة ثم استدارة خفيفة يسارًا ،
خطوتان أو ثلاث بطريقة ضيقة، رنة جرس، وصوت له طابع خاص:
أيوه.. يا مين..

تنظر صاحبة الصوت من الشراعه فتجد الابتسامه وسط وجهي
تلتهف اللقاء فأرد بصوت هادئ: يا مين يفتح شراعه تجيب هوا
وتسمعنى غنى..

تخرج ضحكاتها الماحنة وهى تفتح الباب فأدلف بخطوات ثابتة
وتغلق من خلفى الباب وشراعه، تلتقط أذننى صوت نغم خفيف بينما
تعبث رائحة الدخان بأنفى، وتتسلى عينى بعشبة المكان، بين كنبه قديمه
تلتف حولها كراسى ذات أغطية أسفنجية وبساط قصير يكشف عن
أرضية قدرة وفى منتصف الغرفة كانت السيدة الجليله!

تنظر إلى ذبونها المخلص بل تفسح له بجوارها على تحت عريض
يناسب أردافها المتفخه وجسدها السمين، لا يجوارها سوى السعداء
هكذا تردد دائماً وبصوتها الذى أنهكه دخان الشيشة وإن احتفظ بدلاله
ورنينه، أشبه بمطربة شعبية تغنى بمولد لخليفة مسافر أو بطل متصر:
عليوة يا سكرة.. ربنا ما يقطعلك خطوة ولا يغيبلك طلة منورة..

- إزيك يا ست عايده..

- حلوة وبناتى حلوين..

- ما هم لازم يبقوا حلوين وإلا الحال هيقف..

قهقهت وقالت وهى تمسك بكطفى بيدها اليسرى بينما انشغلت
الأخرى بمبسم الشيشة: عايده حالها ما بيقفش ياسى الأستاذ..

مددت قدمى وأنا أنظر للفتاة الشقراء فى فستانها القصير مكشوف
الصدر ذي البياض الناصع وهى تجلس على الكنبه تدخن سيجارة فى

رمقها الأخير..

علمت الست عايده بانجذابى لها فقررت أن تكون شريكى فى تلك الليلة، سألتنى عن جمال فطلبت أن تدعوه له، عليها تمتلك دلاً لا يمنع عنه الأذى لا يدركه الأولياء ولا يعلمه الدراويش..

تبعنى الفتاة بعدما فهمت غمزات معلمتها إلى الغرفة التى أحبها ويلى رفيقى فيها بلاءه الحسن..

وضعت يدى على كتف تلك الشابة ذات الثوب الملصق بجسمها تماماً فتظهر منحنياته وتعرجاته النفيسة، والمغلق بسحاب من الظهر، أنزلت جزارها فى نهم لأطلع على هذا الجسد الممشوق، لمحت أنها لا تضع حمالة صدر، فتديها داوماً على الارتجاج فى صورة جعلتنى ثملاً بانتصابها.. زاغ بصرى حين شرعت تلك الفتاة فى خلع بنطالى بالغرفة الصغيرة ذات الطلاء المقشر، والسجادة الزرقاء الملطخة، والمصاييح الصغيرة بإضاءتها الصفراء..

شعرت بهواء الغرفة يلطف نصفى السفلى، سمعت همهمة الفم وممصصة شفيتها ليتبعها صوتها النشاذ بغناء سيئ «ما بلاش اللون ده معانا... بلاش اللون ده معانا.. معانا» لتنهى مقطع أغنيته بضحكة عالية قد يسمعها أبى فى مخبأه السرى بمنشية الإسكندرية، أو تصل إلى عدوية فيرد بصوت يروق إلى أذنى «بطل حركاتك ديه».. لكن.. أى لون هذا الذى ترفضه ويدها فوق كتفى وعينها تحترق حدقتى بل ويدي أيضاً تتحسس ظهرها، فيصبح التحام الشفتين واقعاً لا مفر منه، يتبعه

نفيرٌ ما، وضغط على الخصر وشد لأكثر الأجزاء ليونة وأشدّها انحدارًا أسفل ظهرها، فينال الشبق من أجسادنا ويتمخض تقاربنا عن تعانق يجد طريقه إلى السرير الممهد لينصرف كل منا إلى لهوه ومتعته، تتعالى تأوهات المرأة فاقدة العفة وتزداد نشوتي - وأنا الماجن - حتى تخور قواى بعد برهة لم تكن سوى نزال حميمي..

أسند ظهرى بالحائط ممدًا ساقى العاريتين بينما ترتدى عادة «عرفت اسمها لتوى» ملابسها بنظام ما.. يفضح أكثر مما يستر.. أشعلتُ سيجارة فأخذتها بابتسامة لأشعل أخرى أدسها بفمى، أرمى بدخانى فى الهواء فيعانق دخان سيجارتها هو الآخر..

أسمعها وهى تصفف شعرها الأصفر متسائلة: انبسطت؟!

- الى يحى هنا لازم ينبسط..

- أصلى لسه جديدة فى المكان.. قالتها وهى تمسح على فخذيه..

- جديدة فى المكان بس مش جديدة فى الشغلانة.. كان صوتى ضاحكًا

وعينى تغفو عنها قليلًا..

- المر ما يخلصش، وكل الأحضان باردة وريجة الرجالة حفظتها..

تحولت الفتاة التى أنعتها أمام نفسى بالساقطة وأمامها بفتاة الهوى إلى

فليسوفة تلخص معاناتها فى سطر وتحكم على المجتمع بالجانى وجسدها

قتيل برىء دفعه الضيق إلى الهلاك..

فكيف لعقلى ألا يدرك تلك الحقائق وهو المتكبر، مدعى الفهم

والإحاطة بالأمر، ألم يقرأ سطور ماركس حين قال: إن العاهرات لسن

..... مساكن أهل الهوى=

بذلك السوء، أليست تلك الرأسالية؟ مجتمع يباع فيه الجسد، فكيف اللوم على قاطنيه؟!

التقطتني من أفكارى بصوتها مرة أخرى: وصى المعلمة عليا..
ثم أردفت بغمرة من عينها: قولها إنك اتبسطت..
- أنت مش محتاجة توصية..

ناولتني منشفة وصابونة صغيرة، أخذتهما إلى الحمام مع ثيابي الملفوفة
مثل كرة مهرتة.. أذاقني الماء البارد نشوة أخرى تنعش جسدى، فيصبح
صحيحًا من جديد لا موضع لأصابع فتاة أو حكة لجسدها تشوبه..
هل لو كانت محبوبيتى هى من بالفراش، وجب عليّ الاستحمام أيضًا؟!
فى الثانية عشرة والنصف كنت بزقاق العطارين لأجد بغيتى بحلوانى
الجوهرة؛ طبق من الحلويات الشعبية، وأخيرًا عدت إلى السيدة زينب
لأنهى بذلك ذاك اليوم الطويل فى حضن الحى القديم وشقتى بميدانه
ذات الغرف المطلة على مسجد السيدة..

كنت فى السادسة حين أقبلت عجوز مسرعة الخطى تهتف بقلب
صادق وصوت عالٍ تمسك بفتاة صغيرة معصومة العينين فى يدٍ والأخرى
ترفعها إلى السماء..

«مدد.. مدد يا أم العواجز مدد يا طاهرة..» خطفنى نداؤها وهرولتها
نحو المسجد، لم يفسر عقلى وقتها تلك الحالة من التمنى والدعم التى
تنتظره العجوز.. فأصبحت سنة يومى هى الوقوف بالشرفة ومتابعة
الحركة التى لا تنقطع إلى ضريح السيدة، ينادونها بأمر اليتامى أيضًا وأم

هاشم...

أشفق على مجاذيب وشحاذى هذا المكان، أراهم هائمين فى دنيا من
العدمية التى تسلب حقوقهم، لكنى أيضًا أرى فى انجذابهم رضا وسكينة
تريح قلوبهم وتلج صدرهم على الأقل..

ويظل الحديث المكتوم بصدرى أمام مسجد السيدة وفى مواجهة شقتى
يرتفع وتره كل يوم أصعد فيه سلام البناية وتعبر عيني بلافتة نحاسية
مكتوب عليها بالنسخ «عبد الهادى شحاتة» فأدر ظهري لها واضعًا
مفتاحى بثقب الباب أديره مرتين يمينًا وفى الثالثة أدلف إلى الصالة، أغلق
الباب دون النظر نحو لافتة الشقة المقابلة مرة أخرى..

على مدار ست سنوات كانت تلك اللافتة تراها عيني «علا عبد الهادى
شحاتة»، أفف كثيرًا متسائلًا هل كانت حبي الوحيد؟! فلماذا عشقت
السفر إلى حورية الإسكندرية إذًا؟! ولماذا لم أتمسك بها.. هل استحققت
جفائى وهجرى؟! أم هى التى هجرتنى وضاعت بلهوى ذرعًا؟! هل
كان هوًا كما نعتته؟!

عادة تنتهى تلك التساؤلات بنوم قلق على سرير فى عمق غرفة غير
مرتبة، تشبه مكتب موظف بالسجل المدنى أحاله عمره إلى المعاش!

حى المنشية والإسكندرية ومن أمامهما البحر هائج ومحب، لا يمل الحديث لشاطئه ولا يضيق بضوضاء المدينة وصخب سكانها نهاراً، وفي الليل يرهف السمع لمناجاة حواريهما، فتدركه أبصار العشاق وهو يغازل فانتته على ضفافها البعيدة، وتظل رائحته في أنفى بالغرفة ذات الشرفة الموصدة الأبواب، أفرد جسمى بسرير صغير كعنكبوت فقد أذرعه في معركته الأخيرة وبالت خيوطه ليعيش هارباً يخشى الضوء وتعبث الأفكار برأسه الكبير..

«مصفوفة حقائبي على رفوف الذاكرة» هل قصدنى أمل دنقل فى قصيدته أم حالفه التوفيق وجانبنى الحظ لأصبح مثلاً لمطلع قصيدة حزينة.. إحدى لوحات موته، فى سفر طويل، وأنا فى محطته الأخيرة بلاشك!

دفعتنى رغبة كبيرة فى اقتناء قلم وسجل فارغ أبداً فى أول صفحاته بكتابة الاسم وأمرق من خلاله بمحطاتى القديمة ما أتذكره وما أتناساه عن قصد أو لضعف فى الذاكرة، انتهت إلى براد الشاى حيث يغلى ماؤه، أعدت كوب الشاى وأحضرت علبة السجائر التى جلبها فؤاد، وعلى الطاولة الصغيرة كان القلم والسجل بجوار المذياع الذى أدرت بكرته حتى أوقفنى صوت أم كلثوم على محطة ما، لم أهتم لترددتها..

دونت تاريخ اليوم بالصفحة الأولى، كانت كجواب قديم أرسله إلى الماضي البعيد منذ ست وثلاثين سنة إلى مجموعة من العسكريين أطلقوا على أنفسهم الضباط الأحرار وأذيلها بإمضاء سريع يحمل اسمى بالرقعة «عزيز سالم»..

أتذكر حسين «أخى الأكبر»، أقبل مسرعاً نحو والدى الذى افترش بساطاً قديماً وأسند ظهره لكنبة صغيرة فى غرفة ذات طلاء فاتح اللون ومساحة متوسطة، وكنت جالساً أمامه أقرأ عليه ما حفظته من سورة مريم: «مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا».. قاطعنى والدى مصدقاً على الذكر الحكيم منتبهاً لأخى الذى أسرع إلى المذيع يدير مفتاحه مردداً «مصر رجعت لنا.. مصر الحرة ملكنا».. انطلق صوت رخيم من المذيع يشق انتباهنا «اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم..»، ظل البيان يعاد على مسامعنا وسط تهليل حسن وأصدقائه الذين دلفوا إلى المنزل حين سمعوا صوت المذيع وزغاريد أمى حين استبشرت بالسعادة المرسومة على وجه أخى وأصحابه، وكذلك والدى الذى تغنى كثيراً بالبيان بل حفظه عن ظهر قلب، ظلت جملة واحدة متعلقة بأذنى «حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها» أحسست بخطورتها لم أعلم وقتها لماذا ولا كيف.. إلى أن ارتبطت طوال عمرى وإلى الآن تلك الجملة بالآية القرآنية، فى صلة لم أفهمها وإن شُغل بها عقلى دوماً، وبات ذلك اليوم بداية لنشاط أخى وأصحابه بمنزلنا يجتمعون فى غرفته يتحدثون عن إصلاحات سياسية

..... مساكن أهل الهوى=

واجتماعية، أفهم ما تتداوله أليستهم أحياناً ويخبرنى أخى بما أجهله عند انصرافهم، لم أكن الصبى ذو الثلاثة عشر عاماً وحسب، فحديث أخى ورفاقه ومناقشات أبى مع أصدقائه من موظفى الدواوين وتجار البقالة وحتى الشيخ راضى عبد العليم إمام المسجد، زادت من حصيلتى السياسية آنذاك، كان الشارع يهتف لحركة الجيش التى سموها ثورة بل منهم من نعتها بالخللاص وامتلات المنازل بأخبار مجلس قيادة الثورة كما اكتست مساحات من جدرانها بصور للضباط الأحرار كتلك التى تصدرت صالة منزلنا، توسطهم محمد نجيب كان لواءً وعلى يمينه البكباشى جمال عبد الناصر بينما جلس على يساره الصباغ عبد الحكيم عامر والتف باقى الضباط حولهم ومن بينهم البكباشى محمد أنور السادات الذى ألقى بيان المجلس الأول، ظل ذلك المجلس فى مشاركة مجلس الوصايا الملكى يحكم البلاد إلى عام 1953، حيث أعلنت مصر جمهورية عربية وأسقط عنها صبغة الملكية، بدأ عصرٌ فى تاريخ تلك الأمة كنت شاهداً على الكثير منه، لم أكن أتوقع أن أكتب عنه فى نجباء سرى بعيداً عن ولدى وأهلى، لطالما تخيلت أننى قادر على البوح بنضالات الشعب وطموحاته التى عايشتها إلى ولدى وزوجتى التى حرمنى منها القدر..

«حبيبتى يا سفينة متشوقة وسجينة
نحبر فى كل عقدة عسكر فى كل مينا»

يمسك بعوده وخلف نظارته القائمة كانت عيناه التى لم تبصر لوناً ولم ترَ طيفاً بينما بين ضلوعه قلب، علم الحقيقة وفى حنجرتة صوت يدعو للثورة ليصبح إمامنا شيخاً ومؤذناً للثورة شريعته تمرد كُتبت فى أشعار صديقه نجم الذى يجلس بجانبه بشعره الأشعث وشاربه الكث فى جلبابه الرمادى على منصة مرتفعة وأمامها مكبر صوت اتصلت سماعته بجميع القاعة لتطرب الجمع الحاضر فتتوهج تلك القلوب الحاضرة للتمرد وتتيقظ عقولها للثورة، وقعت عيني على لافتة معلقة بصدر القاعة «أمسية فى الفن المقاوم» وأسفلها كُتب اسم أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام بخط مماثل، اعتدلت فى مقعدى واضعاً ركلة فوق الأخرى وداعبتنى خيوط الفكر من خلال هذا العنوان، فالفن هو أداة تحت فجر الروح على البزوغ فكيف نصبغه بصفة المقاومة أو الشجاعة أو الرفض أو حتى الخنوع، غصت فى تلك الأفكار فردّنى الشيخ إمام إلى أمسيته بموال البهية فتركت طواحين العقل وعشت مع مصر البهية على وتر الشيخ وكلمات الفاجومى..

اعتدت الحضور إلى تلك الحفلات مع جمال، الزائر الدائم لمسرح

..... مساكن أهل الهوى=

شبابيك، الومضة المضئية في وسط البلد، لكن اليوم جمال خلف قضبان الحجز ينتظر أمر الإفراج من سجان غشيم لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، يسجن فقط..

انتهت الأمسية في ساعتها الثانية حين نزل إمام ونجم وصعد مكانهما بهلوان متسكع على فنها لم يعجبني فقررت الانسحاب وقضية الفن تشغلني، هل الفن يقاوم بطبعه وفي معناه المجرد؟!

التقطنى رشدى بسيارته من على ناصية شارع البستان، سألته عن جمال وهو يأخذ دورانه يميناً إلى طلعت حرب قال وهو يطلق بوق سيارته مستعجلاً صاحب السيارة الزرقاء أمامنا: هيخرج بكرة بضمـان محل إقامته وبكفالة..

أردف فائحاً موضوعاً جديداً سائلاً عن صديقنا الرابع: مابتشوفش عبد الرحيم؟!

قفز إلى ذهني عنوانه المثير ومظهره ذو اللحية المنمقة المهدبة والشارب القصير، ناوبتنى الابتسامة لسببٍ أجهله وأسندت رأسى في مقعدى وقلت: لا.. بس متابع مقالاته..

- تفكر عاوزين منه إيه؟!

- تفكر أنت هو عاوز إيه؟

وصلت السيارة إلى كورنيش النيل بعد اجتيازنا لشارع عبد القادر حمزة، أحدثت مكابحها حشجة مألوفة مع ماتورها المتواضع حين أوقفها رشدى أمام عربة البطاطا الحلوة، داعب الفتاة التى تعرفه جيداً

وطلب منها طبقين؛ واحدًا بالسكر والآخر بالعسل كما أفضلها، أعطى للفتاة حسابها، ودعنا بابتسامة تحسن صنعها، فبادلها إياها وتابع قيادته بسرعة متوسطة..

على الجانب الأيمن للطريق ركن رشدى سيارته ثم ترجلنا عشرين مترًا أو يزيد لننحرف إلى مقهى «لاروجيكا»، أرسقراطى الهيئة والطبع! وعلى الطاولة الثالثة من الصف الأيسر للمقهى، شخص بدين ذو طلة ثرية فى رابطة عنقه وبدلته الرمادية يرتخى بكامل ظهره على مقعد المقهى الوثير وأمامه طفاية سجائر قرمزية اللون كتب عليها اسم المقهى وفى وسطها أعقاب سجائر مستوردة وأخرى محلية، فصديقنا البدين على الأغلب كان على موعد قبل قدومنا..

أسرع رشدى إلى الطاولة شاهراً يده، مصافحاً ذلك السيد الذى حاول عبثاً أن ينهض ليعانقه لكن رشدى انحنى عليه موفراً مجهوده، مددت يدى إليه بعد انتهاء رشدى من وصلة الترحيب وجلست فى مقابله بينما رشدى جاوره المجلس..

«منير شافع» صاحب توكيل سيارات «مازدا» هكذا عرفنى إياه رشدى الذى لم يخلص حديثه من تملق واضح لصاحب البدلة الرمادى بينما اكتفيت بهز رأسى والابتسام وارتشاف الشاى الذى أحضره النادل فى احترام شرع السيد منير فى الحديث عن استثماراته مشعلاً سيجارة تليها الأخرى، وعلى وجه رشدى كانت بهجة وإعجاب لا حد لهما، انفصلت عن مجلسهم بعقلى إلى الأمسية التى يقدر لها الانتهاء فى ذلك الوقت تقريباً

..... مساكن أهل الهوى=

حتى جذبنى رشدى إلى أطراف الحديث بصوت فيه من التهذيب الكثير:
أظن بقى يا منير بيه إن على يقدر يفيدنا..

- أنا فى الخدمة دايماً بس أفيد بياه؟!.. قلت فى دهشة متسائلاً..

عبث منير بشاربه الكث ثم قال فى ابتسامة كبيرة كشفت عن سنة
ذهبية فى مقدمة فكه الأسفل: واضح إنك مش معانا يا أستاذ علي..

تدخل رشدى موضعاً فى صوت رصين: منير بيه راجل خير ومحتاجنا
نقف معاه عشان هيرشح نفسه فى مجلس الشعب..

أضاءت فى رأسى بعض النقاط واتضحت بغية ذلك الثرى الذى
استأذن لتوه لانشغاله ببعض المهام التى لا تنتهى على حد وصفه، ترك
رشدى خلفه يطرح فكرته ويدور بها ذهاباً وإياباً..

أوصى النادل بحسن خدمتنا، مضيفاً أننا ضيوفه فلن ندفع الحساب
كما أشار.. اعتدل رشدى فى جلسته مخرجاً علبة سجائره، أعطانى واحدة
وأشعل أخرى ثم قال وهو ينظر إلى الطاولة المجاورة: أنا عارف إنك
سمعت الكلام كله.. إيه رأيك؟!

- الحقيقة إنى ما ركزتش فى معظم الكلام.. بس فهمت إنه نازل مجلس
شعب ومحتاج دعم يعنى!

- كله بتمنه.. الراجل ده كله منافع.

وقعت على الكلمات موضعها الأكثر وضوحاً فرشدى لم يتخل عن
شخصيته النفعية التى تصل إلى حد انتهازيتها فى أغلب الأوقات لكن هذه
المرة يحتاج المحامى الطموح إلى مجهوداتى، حملة إعلامية أكون المسئول

عنها والمال يسير وكثير «أوبن بوفيه» كما وصفه رشدى.. أهاجم فلاناً وأنشر مستندات تدين الآخر بل أشى بالحياة الشخصية لمنافسى منير بك إلى الصحفيين، وأغرى بعضهم بالمال والتسهيلات فنكون فريقاً يصعد بمرشحنا إلى قمة المجد ويضع المنافسين فى هوية الفضائح.. وتتحول ضمائنا إلى صحف صفراء مأجورة!

لكن هل تأكد فعلاً قرار حل المجلس وسيطبق حكم المحكمة الدستورية بحله فيعد ذلك الثرى العدة لمقعد فى المجلس الجديد؟! تابع رشدى فى تبريراته بينما ارتسمت على وجهى ابتسامة فاترة.. يشهد على حديثه شعره القصير، وعيناه الضيقتان فلا ترده عن مطامعه بل تفتح له سبلاً يخطو فيها لسانه المعسول وكلماته البراقة مغرياً، رجل خير وعطاء.. تسهيلات فى العمل والحياة بشكل عام.. لن نكذب فالرجل سيحقق ما يعد به وخلافه من تلك الجمل التى تجعلنى أضحك وأستمر فى الضحك حتى يظهر الغيظ بين حاجبيه، ويصل صوت ضحكتى إلى الفتاة الحلوة ذات البنطال الضيق والبلوزة الشفافة بالطاوله المجاورة..

لا تمر زيارتي إلى الإسكندرية دون مايوركا، المقهى العتيق على شاطئ فاتنة البحر، لكن هذه المرة كانت قبل لقاء أبي، فالأستاذ فؤاد يرى أنه من الحرص أن أقوم بمشوار أو اثنين قبل صعود شقة المنشية ودق بابها.. لا أريد ذكر اسم الفتاة التي شغلتنى على هذا المقهى قد أدعوها مايوركا عوضاً عن اسمها الأصلي الذي أتخاشاه وإن علمته جيداً، أجلس ممدداً ساقى إلى الرصيف وقد رأيت نفسى مشبعة بالنزوات، مهلهلة بين حب القلب وعشق الجسد، قد تؤثرنى إحداهن بضحكة وتسرق عقلى الأخرى بهزة من رديها في عباءة ضيقة وفي الغالب أفع صريعاً لواسعة العينين طويلة الشعر، وأجد نفسى تائهاً ولعاً إذا مُنيت بالشقراء، فمثلى لا يسكته إلا الحب الذى يحتل قلبه كاملاً فيعمى عينه عن مفاتن حواء وتصبح شهوته لفتاة واحدة..

هيهات.. هيهات يا ابن عزيز، أن يسهل عليك فراق تلك الأصناف بتنوعها وسحرها، ألا يعز علينا فراقهم وهم الأعزاء الأقربون؟! وإن ذهبت إحداهن تركت مكاناً لاثنين وثلاث فلا تنقص دزينة الهوى بل تزيد..

قد أجلس مع جمال عند رجوعى فأجده طليقاً نحصى كم فتاة عرفناها، توهنا حبها أو عرفنا مقصدها حين قصدها..

تضطرب نفسى باضطراب تلك الأمواج..
فلا يفيد السمر مع جمال فى تلك المواضع، لن تختلف نفسه عنى كثيرا،
لربما يكون الدواء عند عبد الرحيم جاد الله صديقى العرييد التائب، تائبًا
إلى صحاف الجرائد وأعمدة الرأى فى مجالات الدعوة والداعية..
لا أجد فى نفسى غصة حين أقسو عليه وهذا ما يحيرنى، هو صديقى
الذى أحبه وأحتفظ له بعشرة الأيام الكثيرة، لماذا لا ألتمس له عذرًا كما
يتوجب على الأصدقاء؟!

جاء فى رأسى صوت رشدى فجأة بسؤاله «هما عايزين منه إيه؟!»
صادف صوته صوت عامل القهوة يناجى الحظ مرددًا بصوت
جهورى: «يا حظ مين يشتريك» ليرد عليه بائعًا متجولًا دخل للتو من
باب المقهى الجانبى «أو يقولى فىن آلايك»، جلس على أول مقعد قابله
واضعًا حمولته على الطاولة نادى عليها بنغم الباعة ورنينهم، انشغل فى
حديثه مع عامل المقهى فأوصل المعرفة بينهم ممتدة، نظرت فى ساعتى
فكانت الواحدة والربع، طلبت قهوة يؤنسنى مذاقها حتى يحين وقت
المغادرة بعد ساعة أقضيها مصغيًا لصوت النرد وتهليل راميه، يُفتح لك
القدر إذا تشابه وجه النردين ويعلو صياحك دون مبالاة بما حولك حتى
تحتاج لحركة واحدة حينها يصبح سيئًا ذاك التشابه فتبدأ فى ملاطفة النرد
من جديد...

عند الموعد المحدد كنت بالبواب يفتح لى السيد فؤاد الذى تأكد من
شخصى قبلها، دلفت مسرعًا إلى الداخل سلمت عليه وعانقته، ظهر

..... مساكن أهل الهوى=

والدى بوجه مشرق عادت إليه نضارته، أقبلت عليه متلهفًا فتعانقنا..
كان اللقاء مختلفًا عن سابقه، مفرغًا من ارتباك البدايات، سألته على
مائدة الغداء نيته في الأيام المقبلة، كف عن مضغ قطعة الخبز بفمه قليلًا،
واتسعت حدقته كأنه أفاق لتوه من سبات عميق، جاوب عنه السيد فؤاد
بينما أكمل هو مضغ لقمته: هنعيد التحقيق في القضية!

اندهشت قليلًا أو كثيرًا لتلك الجملة التي دفعتني لترك ملعقتي
وإسناد ظهري إلى كرسى السفرة دون كلام، لا أعرف عن القضية ما
يؤهلنى للحكم، إن كان ذاك القرار حكيماً أم لا، تابع والدى حتى لا تزيد
دهشتي التي أدركها لاشك: أكيد مش هسلم نفسى ولا هدخل السجن
تانى وهفضل بكل الطرق أحاول إثبات براءتى..

- في حالة وجود قضية من الأساس!

سألت الأستاذ فؤاد عن معنى تلك الجملة التي قالها فأجابنى بعدما
أنزل كوب الماء من على فمه: والدك احتمال كبير يكون والاعتقال تعسفياً،
ساعتها هنرفع القضية ونطالب برد شرف وتعويضات، خصوصاً أن
قضية السبعينيات اتقفلت واتحفظت من فترة كبيرة..

هل يقف والدى مرة أخرى بساحة المحكمة طالباً من القاضى تعويضاً
عن عمره المسلوب خلف القضبان، ويطالب بالتحقيق مع من سجنوه،
بعدها يخرج بطلاً يشير الناس إليه فيجلس بالمقهى رافعاً رأسه كما كان
قبل سجنه، يتحدث عن الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية في دائرة
واسعة وعلى يمينه رأفت إسكندر وفى اليسار صديقه شكرى الطوخى،

انتابتنى قشعريرة لدى تذكر ذلك الاسم، الصحفي المشهور بمعارضته للنظام الذى انتهى به المطاف بمستشفى الأمراض العقلية والنفسية!!

انتهى إليّ صوت والدى منبهاً: علي.. سر حان في إيه؟!

- فاطر عم شكرى الطوخى يا بابا؟!

أطلق تنهيدة تدل على ألم دفين يحرق أحشائه، ونظر ملياً إلى المرأة المثبتة بحائط الغرفة، يرى تفاصيل وجهه وخيوط ملامحه التى شكلها زمناً كان فيه شكرى الطوخى يكمل ثلوث الصداقة، قال بصوت متقطع خفيض: فؤاد قالى على اللى حصل!

تابع فؤاد بعد أن سكت والدى محرّكاً رأسه فى أسى: الاكتئاب! تمثلت أمامى هيئته بجسمه السمين وضحكته التى تملأ وجهه وشعره الناعم الكاسى ونظارته ذات الإطار الفضى، لم تكن سترته تخلو من الحلوى يعطينى منها كلما زارنا باسمًا، المرة الأخيرة التى رأيته فيها قبل أن يتم اعتقاله بشهرين، كنت مدعوًا على العشاء فى بيته منذ خمسة أعوام على ما أظن، أخبرت والدى بذلك، حمل الأستاذ فؤاد بعض الأطباق إلى المطبخ، تبعته ببقيتها..

زفر والدى وعاد إلى حديثه مرة أخرى وقال بصوت مبحوح: رأفت اسكندر..

صديقهما الثالث الذى ضاق ذرعًا بحملات الاعتقال التى نالت منه ومن عائلته ليؤثر السلامة طالبًا الهجرة إلى بلدٍ بعيد بعد خروجه بأشهر من السجن، قبل أن يرحل ترك لى ظرفاً به جواب كتبه لأبى وآخر كتبه

..... مساكن أهل الهوى=

للسيد شكرى، ثم رحل فى السابع من نوفمبر 1985 إلى السويد.. أقبل علينا الأستاذ فؤاد ممسكاً بصينية الشاي: هتبات النهاردة معانا يا على.. قالها والابتسامة على وجهه، وارتسمت واحدة أخرى على وجه أبى الذى تهللت أساريره..

- ابقى هاتلى معاك مقالاتك الى كتبتها قبل كده يا على، أقرأها وأنا هنا.. لو تعرف تجبلى كل مقال كتبتة..

- هجبلك كل المقالات الى فى جريدة العهد من الأرشيف وكمبان القصص القصيرة والأعمال الأدبية الى نشرتها فى مجلة الأديب..

أحسست بالفخر يملأ صدره والسعادة تهز وجدانه، فابته اليوم رجل ذو كلمة وقلم..

«عريس يا بنتى أحسن لك من الشقى ده ..»

مسكينة تلك الأم البائسة تجد في الزواج حلاً وخلاصاً من مشاق الحياة، يتقدم العريس اليوم يأخذ الرد بالموافقة في الغد وهو جالس بورشته ممسكاً بمنشاره يقطع من الخشب أثاثاً وأبواباً، فينتهج منزله بالزغاريد والأفراح ومن قبله منزلنا، وتقف الأم الطيبة سعيدة متباهية وسط نساء الحارة اللاتي يتدافعن للمباركة وإبداء النصح، ويعلن الخطوبة الرسمية وبعدها بأسبوع أو اثنين يكون الزواج...

هكذا رسمت الأم بعينها البارزة ووجهها الشاحب ما تتمناه، وإن لم يفصح لسانها عما يحمله فقد جرى ذلك على ملامحها ونطقت به ابتسامتها التي قابلتها بأخرى باهتة تبعها ردى المثلوج بجملته قصيرة مقتضبة «مش هنهى على حياتى ومستقبل بجوازة!»

استجمعت كل قواها المنهكة لتواجه ردى الذى أزعج ملامحها وزاد وجهها شحوباً فوق شحوبه فكان صوتها ضعيفاً، وإن حاولت رفعه: يا بنتى أنت غاوية شقى وتعب ..

- الشقا ياما هو الى يحبسنى ويخلينى خدامة فى البيت بحجة إنى مراته ..
- يا بنتى يعنى خدتى إيه من الشغل غير البهدلة.
- أنا هكمل دراستى وبعد ما أخرج من الجامعة وأشتغل بشهادتى

ساعتها أفكر في إني أتجاوز..

سمعت سعال والدي الذي نهض لتوه مسرعًا لنقاشنا، وقف بالقرب من أمي يعدل ياقة قميصه ويحاول جاهدًا مغالبة سعاله دون جدوى، أجلسته أمي على الكنبه مشفقة عليه، رأيته لامع العينين وفي وجهه سعادة لم أفهمها، تمخط في منديله ثم أرفقه جانبًا وطفق في حديثه بصوت هادئ استعاد توازنه متغلبًا على حشجة الرئة وضيق التنفس: يا بنتي.. إحنا عمرنا ما نغصب عليك تتجوزي من حد، ..

اتسعت حدقة أمي واعترت وجهها الدهشة، كما دبّت السعادة في جسدي وتمثلت صورة والدي كاملة أمامي ملأتها الهيبة وأصغيت السمع إليه، كما أصغى صمت والدتي تمامًا، مد قدميه على الكنبه وقال محرّكًا يده كشاهد في محكمة يثق أن لسانه لن ينطق إلا بالحق: أنا ممكن أكون راجل مريض ومعاشي ما بيكفيش بس عمري ما هظلمك وأنا أيامي اللي باقية مش كتيرة، وحتى لو كتيرة فنفسى أشوفك أنت وإخوانك مبسوطين..

قاطعته مقبلة يده والدمع يذرف من عيني وأنا القوية التي لا تحب البكاء حتى وإن فاضت عيناها بالدموع تكتم أنفاسها وتحفف فيضانها، لكن اليوم وفي تلك اللحظات ارتعيت بحضنه وتركت العبرات تسقط واحدة خلف الأخرى، وأمى المسكينة تردد مغلوبة على أمرها: ربنا كبير وفرجه كريم..

جالت عيني بالغرفة القابعة في شقة بحارة في حي شعبي قد تتأخر الشمس عليه في شروقها وتهرب عند غروبها مسرعة ويبقى الليل معششًا

فى أغلبه، يصل إلى كل زقاق وركن، إلى طلاء مقشر قديم وأبسطة متهاكة
تملاً البيوت، بل يمتد إلى أحلام فتاة صغيرة بضفاير فى الغرفة المجاورة لا
شك أنها تسترق السمع إلى حديثى مع الأب والأم وفى ساعة متأخرة قبل
أن يغمض جفناها سيدفعها فضولها للفهم والاستقصاء..

فى الصباح وقفت خلف الشباك أشتم رائحة النهار وأصل بمسامعى
إلى صوت اليمام يلهث إلى رزقه وحركة الحارة ما بين مقبل ومدبر، ضجيج
باب من الصاج يفتح عن آخره وصبى القهوة يرش الماء بيد والأخرى
تمسك بالدلو منادياً عم جابر بمبخرته الصغيرة، يحببه بمناجاة الرزاق
«يا رزاق يا عليم.. يا فتاح يا كريم»، يدخل بمبخرته من الباب الرئيسى
للقهوة يحركها شمالاً ويميناً فى كل ركن ويخرج بعدما يعطيه «بشير» ما يقره
المعلم «عزونى» صاحب القهوة الذى يرتفع صوت قرقرة شيشته كل يوم
عن الآخر! وعلى مدبصرى دبّت الحركة فى ورشة نجارة متواضعة، يقف
ببابها شاب فارغ الطول فى قميص أزرق وبنطال فاتح اللون يتابع حركة
المارة من أمامه، يلتقى بنظرات مختلسة إلى شباكنا، أثار ذلك بداخلى شعوراً
لم أتعرف عليه من قبل ولم أجد له مسمى، ربما داعب غرورى الأنثوى فهو
متعلق بفتاة الشباك، أهذا سبب كافٍ؟!

الحياة أعمق من نظراته وأجدر من اختزالها فى أنوثتى المغرورة، لماذا لا
أنفذ ما طلبه والدى، أن أقابله اليوم عندما يأتى إلينا عشاء وأحدثه، أخبره
بما أنتوى، فأرده عن بغيته بشكل لبق ولا أترك فى نفسه غصة من ناحيتى
إن تفهم أمرى!

العاشرة صباحًا، ضجيج وحركة غير مستقرة، أبواب تطرق ويؤذن بالدخول وينصرف آخرون، وعلى مائدة الاجتماعات بمكتب مدير التحرير، جلس في مقدمتها وعلى يمينه ويساره شُغلت المقاعد برؤساء الأقسام والمحربين بل وبعض الصحفيين الصغار كنت واحدًا منهم، لم تجذب سوزى التفات الحضور بتسريحة شعرها الجديدة وثيابها الأنيقة كالعادة، فالوضع مشئت والأذهان مشغولة، وصوت التلفاز عالٍ ينقل بيانات وأخبارًا يسبقها «عاجل» أو «وصل للتو»، فناجيل القهوة يمينًا ويسارًا، محاطة بأعقاب السجائر، أمامي مجموعة من الأوراق البيضاء أحاول تدوين بعض الملاحظات عن الأخبار التي يلقيها مذيع قناة «سى إن إن» .. وفنجان قهوتي سيئ المذاق لكنى لا أقدر على مواجهة ساعى البوفيه فى تلك اللحظات فهو مشغول بشكل كافٍ تمامًا..

أربع أو خمس نسخ من جريدة الأهرام ملقاة على الطاولة، مانشيت كبير دون بالأحمر أسفل تاريخ اليوم 2 أغسطس 1990 اعتلاه اسم رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة الأستاذ إبراهيم نافع الصديق الشخصى لرئيس قسم السياسة الجالس فى أقصى اليمين، كلما وقعت عينى على المانشيت أشعر وكأنى أقرأه للمرة الأولى «كارثة عربية مفزعة» وفى نهايته علامة تعجب لا تحمل معها رفاهية التعجب ..

صباح اليوم شن الجيش العراقي هجوماً على الأراضي الكويتية بقيادة قوات الحرس الجمهوري العراقي وفرق المشاة البحرية في محاولة واضحة وعنيفة لغزو الكويت واحتلالها، لم أجد تحليلاً كاملاً في رأسى وسط ذلك الصخب الذى انتشر في أرجاء الغرفة ونظيره المنتشر في الوطن العربى كله.. بالطبع لم يكن الأمر وليدًا لتلك اللحظات وفقط، بل تراكم من نزاعات الحدود والنفط والديون القديمة التى تتصل منها العراق!

في لحظة من السكون التام لا تتكرر في اليوم سوى مرة وربما يمر الأسبوع فلا نجدها سوى مرتين، سكت كل شىء حتى صوت التلفاز بل وأقلام الصحفيين، وارتفعت كلمات الأنسة سوزى خيمة على أذان الجميع تحدث صديقتها المجاورة بصوت عالٍ، خفيض وسط الضوضاء التى انتهت فيبقى علوه واضحًا، استقرت كلماتها في أذنى فأنفصلت عن الجميع أفكر فيها أفكر في تلك الفلسفة الخاصة «هو إحنا مالنا بس، وإيه الجو الحر ده»، وكلمتين بالإنجليزية لم أهتم لهما، فالآنسة لا تجد في الغزو خطورة بل لا يخصها وهى الصحفية!

لم يشفع لها احمرار وجنتاها ما يبته فمها من هراء وسخافة دفعت الأستاذ إحسان يردد بصوت مقتضب: آه.. إحنا نهتم بموضة الشعر الأصفر..

كتمت ضحكى وعاد الجو إلى اضطرابه وضجيجيه بينما الأمر ظل في رأسى معلقًا، صديقى الذى يهتم لكل شىء مسجون الآن لا يجد ما يسعف شغفه سوى قضبان السجن، وتلك الفتاة صاحبة القلم ومقال الرأى في جريدة يفترض بها القدر الكبير فى الصحافة المصرية، تجهل دورها وتجهل

مصائر المنطقة بل لا تهتم!

تتغذى كل يوم على نظرات إعجاب السادة الموظفين من أرباب العقود الخمسة أو الأربعة بأعينهم المتعطشة للملابس ضيقة وأذانهم المتلهفة لأصوات ناعمة تجيد التحايل فيعقد مقارنته في الحال واضعاً زوجته في كفة وأحمر شفاه سوزى في كفة تكسب دائماً إذا ما صاحبتهما نقرات من كعب ارتفاعه فوق الخمسة سنتيمترات..

جذبني من أفكارى صوت مدير التحرير مقسماً مهام جديدة على جميع الموجودين وكأنه أطلق نفير العمل مغلقاً باب التشاور والنقاش..
كما توقعت كُلفت بإعداد تقرير عن النزاع العراقي الكويتي، أرتب المعلومات التاريخية والإحصاءات ثم أوردتها ببحث منظم!
انفض «كريم ثروت» من مجلسه ساندا بيده على المائدة هاتفاً بصوت عالٍ: أنا عاوز أكون مع الوفد الصحفى الى هيغلى الغزو..

أصابت كلماته دهشة الحضور، فبين عيون اتسعت حدقتها وشفاه سفلى تدلت، وكلمات غابت عن المعانى ولكنها تعجبية لا شك، حتى سوزى الجميلة انخرطت في ذلك المشهد معيرة اهتمامها لكريم الذى أردف: أحضر جواز سفرى امتى؟!

قاطعه مدير التحرير بلهجة فيها اندهاش كثير: إحنا ماعندناش نية نسفر وفد فى الوقت ده وكمان ده هيجتاح إجراءات كثير..

- يبقى أسافر بشكل شخصى يا أستاذ نسيم وحضرتك أكيد تطلع تصريح لاتنين أسهل من وفد كامل..

..... مساكن أهل الهوى=

قاطعہ الأستاذ إحسان متسائلاً: مين التانى يا كريم؟

- فيكتور ملاك..

تدخلت متسائلاً: المصور؟!

- بالظبط، أنا عارف إنه مش هيضيع المغامرة دى..

- أنا شايف تسأله الأول وتتأكد..

- أكيد هسأ..

قطع حوارنا السيد نسيم منفعلًا: دى مش فسحة!

غرق الجميع فى صمت فرضه انفعال السيد الذى واصل حديثه: كمان

لازم نشوف الميزانية هتسمح بالنفقات ولا لا..

- الحد الأدنى من المصاريف.. قالها كريم متمسكًا بفكرته.

صعد صوت الأستاذ إحسان مرة أخرى إلى النقاش: خلاص.. خلاص،

بكرة هنقولك رأى الجورنال، هنجتمع مع المدير المالى أنا والأستاذ نسيم

وهنشوف إجراءات التصاريح..

جلس كريم مدحور المراد، كقط نرغمه على الدخول فى قفص حديدى

ينتظر الفرج، كان يمنى نفسه بموافقة فورية على مغامرته الجديدة، ذلك

النوع من الإنسان يرفعون شعار «يفوز باللذات كل مغامر» ولا يحيدون عنه

سبيلًا..

خرجت إلى غرفة الصحفيين مشغول البال، ينتظرنى عمل طويل أسلمه

فى الغد أو بعد الغد على أقصى التقدير، أسرعرت إلى مكتبى ملقيًا حقيبتى

أقصى يساره خالغًا معطفى الثقيل، أحضر إليّ الساعى فنجال القهوة الثالث

..... مساكن أهل الهوى=

منذ الصباح وحتى الظهيرة، نسيت الإفطار فطلبتة مسرعاً فمعدتي الخاوية أصدرت أصواتها.. أدرت مفتاح المذياع على محطة الشرق ..

لم يمض أكثر من عشر دقائق حتى قاسمني كريم وجبة الإفطار، يملأ وجنتيه التذمر الذى لا يمنعه بشكل أو بآخر من ارتشاف فنجان قهوتي.. مبتسماً سألته عن سر طلبه السفر إلى الكويت..

أخذ جرعة ماء واضعاً يده اليمنى على المكتب الصغير وجالت عيناه فى محجرها ومسح على وجهه وهو يجيب بسؤال طرحه بصوت واثق: أنت شايف إننا صحفيين ولا موظفين؟

أجبتة بابتسامة أشد من سابقتها: صحفيين برتبة موظفين..

تغيرت ملامح وجهه الهادئة وانطلقت نفسه الراضية فحفظت عيناه وزاد احمرارهما، وقال: أنا محتاج مغامرة صحفية حقيقية..

جميعنا نصاب بالملل ليس كريم فقط الذى أحبطه الاغتراب فدفعه لطلب شىء جديد فوق التكرار، يريد اتصالاً أكثر بمنتجه وإن كان يحمل من المخاطرة كثيرها فذاك أيضاً ما يرضى طموحه..

مرت ساعات العمل والجميع يتناوب الحديث، تارة عن كريم وإصراره على السفر، والآخر يتحدث عن الغزو منهم المبرر، ومنهم من يراه عاصفاً بالأعراف بل تعدياً واضحاً يلزمه ردع، أرى أن نسأل الأستاذة سوزى فى ذلك لربما أفادتنا أو امتلكت حلاً فى تسريحة شعرها نخبرنا أن الحياة ما هى إلا إطلالة ساحرة باهظة فى نهار العمل وأخرى فى الليل يزينها فستان سهرة مكشوف الظهر مثلاً فى باحة فندق فاخر أو فيلا بالمعادى!

بخطوات مختالة ومغناجة عبرت قارعة الطريق أمام ورشته الصغيرة، وما لبثت أن ابتعدت عنها أمتارًا قليلة وجدته يتحسس الخطى خلفي، مما أثار في نفسي غرورًا يشبه ذاك الذي صاحبنى خلف الشباك مرافقًا لنظراته الموجهة صوبى ..

أسرعت في خطواتى من الحارة إلى الشارع الرئيسى يمينًا حتى مظلة الانتظار، حشرت جسدى بين الواقفين متوارية عن ناظره، أراقبه ماذا سيفعل، هل سيطل في بحثه عنى وتتبعه لى ..

جاء خفوتًا فى معنوياتى لا أعلم ماهيته وانبرى وميضى المشتعل فرحًا وغرورًا بخطى ذلك الشاب خلفى وزاغت عينائى عنه وتيقنت يأسه من تتبعى وحضر الأتوبيس ذو الألوان الزرقاء والبيضاء المتداخلة وأسرع الجميع فى التكديس أمام بابه فى تتابع لتكديس آخر داخله، شيخ يدفع فتاة، وفتاة تسبق شابًا وسيدة تحشر جسدها صوب الباب، بينما أنا.. مشتتة الذهن، أبحت عنه وكأننى من بدأت بتتبعه ومن عشقته، أ يصل غرور الفتاة إلى هذا الحد؟!!

لمحت بطرف عيني من يقف على الباب المقابل للسائق فى قميص أزرق وشعر أسود كلون الشارب الكث فى ثلث وجهه السفلى، إنه هو! لم أجهد نفسى فى معرفة كيف وصل إلى هنا وركب خلفى الحافلة، لماذا

..... مساكن أهل الهوى=

يكلف نفسه ذلك العناء على كلٍّ، ألم يجدد معادًا مع والدى فى مساء اليوم لمقابلته؟! هل ينتظر ردى مباشرة قبل المحجىء إلى بيتنا؟!!

صوته جذبنى كما توقعت عند نزولى بميدان سليمان باشا: «آنسة نجاة».. قالها مرة أخرى مترددًا وعرض فى أدب عندما التفت إليه فى وقار: ممكن نقعد فى مكان عام لمدة عشر دقائق فى أمر مهم محتاج ردك فيه..

أعلم أنه لن يضيع على نفسه فرصة مشهد من فيلم سينمائى يكون بطله بل بالكاد استخدم نفس الألفاظ التى استخدمها بطل الفيلم الأصيل، فقد يكون رأى فى نفسه عمر الشريف يطلب الوصل مع محبوبته على كورنيش النيل، فلا ضير إذن أن أجد فى نفسى فاتن حمامة فى تنورة قصيرة وعين صافية بريئة..

طلب كوبًا من عصير البرتقال وطلبت فنجال شأى وغادر النادل، وتلعثمت كلمات الشاب، أخبرته أن الوقت ضيق وموعد عملى الرسمى لا يحتمل أكثر من نصف ساعة، فاندفع فى صوت متسرع: أنا عاوز أعرف ردك على طلبى..

وصمت، ودام الصمت كثيرًا، حتى وإن وضع النادل ما طلبناه وذهب، قلت له: إن والدى نقل إلى الخبر فكان رده سريعًا متلهفًا لإجابتى على ما طرحه أبى، ثم استدرك ما عنيته بصمتى فشرع بحديث غير مرتب، يتحدث عن دخله الذى يحاول أن يحسنه، وأنى سأكون معززة فى بيته بل تحدث عن شهادته أيضًا، فهو يعلم الفرق بين مراحلنا التعليمية، كل شىء يقوله يتبعه بـ«لكن» ويأتى بعدها طموحه، فالورشة هى بذرة لمصنع، والدبلوم هو

خطوة للمعهد، والشقة الصغيرة في الحارة بغرفتيها لن تدوم على حالها..
لم أجد ما يعيب أحلامه وهو الواثق الطموح الذى لن ترضيه غير
صراحتى، فأنا حقاً لا أفكر فى الزواج وأمامى من الأحلام مثله تماماً، مما يلزم
عملاً وجهداً يعيقه الزواج لا شك بصورة مباشرة وغير مباشرة..
قاطعنى بلهجة مستعطفة: هستناكى..

- مش مضمون يا هاشم أنى أكون..

- قصدك مشاعرك؟! -

لم أملك النظر فى عينيه، عندما قاطعنى بذلك السؤال وضع يده على جزء
كبير من الحقيقة، فمشاعرى لا تميل إليه ولكنى أحترمه، أحترمه كما ينبغى
لى أن أفعل أمام شاب مكافح ذي أصل، ولكنى لا أجده حبيباً، فكيف بعد
سنوات أجده حبيباً أهرع إليه..

واصل الكلام مرة أخرى بتعلثم قليلاً: آسف يا آنسة نجاة..

أحسست بحزن صوته وضيق صدره الذى غالبه صوت الحارة الشهم
وهو يردف: أنا محترم رأيك وقرارك والنهارة هقابل والدك، وأعتذر منه
وأتمنى أن تكونى بلغتيه فيكون سهل رفع الحرج بينى وبينه..

دفعتنى تلك الكلمات إلى التبسم، وغمرتنى سعادة دافئة وسط إحساسى

بالخجل منه:

استأذنت بالانصراف، ولا أعلم لنفسى مستقراً، كنت سعيدة وهو
يطلب منى الارتباط والزواج على الرغم من قرار رفضى وكأننى فى حاجة
لأثبت أننى مرغوبة!

..... مساكن أهل الهوى=

وعند باب المطبعة قابلت سميرة ومعها اختفت كل تلك الأفكار وراء ستار بعيد ولو لفترة، تلقى بتحتها ويبدأ حديثنا اليومي في نهار عمل جديد، ينتهى دوامه في الخامسة مساءً، هذه المرة لم أنتظر الحافلة التى أتكوم على أحد مقاعدها مجعدة متعبة حتى أقرب شارع إلى منزلى، كأننى اليوم لم يصل إلى جسدى تعب أو إرهاق، أرغب فى السير بشوارع القاهرة، أنظر ولو قليلاً إلى محلاتها البراقة ولافتاتها المتنوعة بين ماركات الأحذية والعطور، تخطف أبصارى فاترينة للملابس باهظة، فأجد نفسى مرتدية تلك البلوزة المزركشة ويظهر من فتحتها بروز نهودى تعكسه مرآة مصقولة فى وسط غرفتى، أسرع عندما أشعر بتلك حركتى فأعبر إلى طريق آخر، أمشى فوق رصيفه وجوارى حركات عشوائية سريعة وبطيئة لسيارات فارهة تسرق الأذهان وكأنها تعرف طريق الجنان بأشجارها المورقة وأنهارها العذبة!!

أى جنة.. هل جنة الفراء الثمين وأحمر الشفاه وآخر صيحات الموضة وقصات الشعر، إن كانت هذه الجنة التى تسرع إليها تلك الفتيات الحسان فى السيارات، فهالى لا أسرع نحوها وأنا المتلهفة إلى حياة الرغد؟!

وذاك الشاب الذى يمسك بيد حبيبته فيحكم احتواء جسدها بين أصابعه، هل يجد فى ذلك جنته، هل يبحث عن الفردوس فى شفيتها حين يقبلها خلسة أو فى العلى؟! من يدرى لعل الوحيدة فى ذلك الطريق من تعصف بها لذات الهوى ولا تجدها.. أمسكت بقدمى فى لحظتها الأخيرة وهى تهبط الرصيف فى غير وعى، تبعها صوت مكابح قوى أطلقه سائق السيارة الحمراء التى ابتعدت مسرعة فى طريقها وصوت قائدتها متعب

..منزعج ..

وما العيب في أحلام فتاة شرقية مثل، تتوق إلى سعادة في حضن ولذة،
في قبلة بل وترنو إلى سحر لقاء فوق جسر عالٍ أسفله يجري النيل وفوقه
يقف حبيب ممسكاً بوردة حمراء تفصح عيناه عن حب وحرية، يأخذ يدي بين
راحتيه ويغدو بعيداً، يقفز عبر المروج وأنا خلفه، يخبرني أن الشمس تشرق
بين جفوني مرتين في سماء بنفسجية اللون وأخرى زرقاء صافية، بعيدة عن
سماء القاهرة في ظهيرتها أو ليلها، في ظهيرة يملأها الشقى والكد تنغلق فيها
قلوب الناس على حكاويها وتترك سواعدها للعمل، وفي ليلها يكون السهر
في حوارى تضيق أكثر مما تتسع، فلا نعلم هويتها ولا نفطن لحال قاطنيها،
يجمعهم الصبر ولا شيء سواه، وربما صوت من راديو أو تلفاز يحدثهم عن
الماضى!

بقليل من الحذر عبرت الطريق إلى الكورنيش وأخذت جانباً إلى السياج
الحديدي أنظر إلى النيل، أسأله عن تلك المدينة، عن حوارها الذي لا ينتهى،
أنصبه قاضياً وحاكماً على مدينة صاحبة فوضوية تملأها قذارة النهار تركل
سكانها وترمى أبناءها، فيبادرونها بذكريات جميلة تجعلهم مخلصين إليها
مرفقين بحالها وربما مأسورين أيضاً، طالين دفئها وحنانها ومثالياتها الرءوم..

يا طاهرة بنت المعز، وكنف المحتاج وقبله المشتاق، هيامى بك عظيم،
لهو أعظم من تلك السجاجيد الباهظة والمصابيح الغالية، هو أشد من
حارسك المنمق المتأنق طويل العباءة قليل الدعاء، بشعره المخضب ولحيته
الكثيفة وصندوق النذور جواره، وبخور العشق في مقامك، وصورة
لقلبي رسم فيها ملامحك، ناداك بالطاهرة، حين كان مسكنه بشرفة تطل
على بهو مسجدك، فكنت له سيدة، ما استجراً يوماً ونطق اسمك دون
تبجيل، شهد لك بالطهارة وأنت زينب، سيدة من بيت أشراف، أضاءت
حى في وسط القاهرة..

ضرب الدف وصوت المجاذيب فى أذنى منذ الصغر، وجلستى فى
البهو رامياً رأسى إلى عمود دائرى ىرنو فى شموخ إلى ذلك السبيل بنوافذه
ذات القضببان الحديدية، وأفريز المسجد يطل على ميدانه، ويطوف الخلق
بكفن الخشوع وعين الشعور الذى يهز نفسى بأروقة المسجد..

زادت حركة الوافدين إلى المقام، بين عجوز وصغير، شاب وامرأة
يتسارع كل منهم إلى صندوق النذور، يدلو كل منهم بما تجود به ذات
يده فى معين الرضا والمدد، بينما عىنى كانت رفيقة لتلك النافورة الصغيرة
بالردهة الخارجية، فالسيدة لا تحتاج إلى نذورهم ولا ترغب فى النجف
الكثير والشموع التى تملأ المقام، من قال إنها لا تحسن النوم فى الظلام؟!

من أضواء لها شمعة لم يتقرب إلى روحها كما يظن، هو فقط زاد مظاهر الكلفة وأغدق في تقاليد الثراء، اتركوا المسجد لمن بغى الصلاة والمقام لمن جاء إلى صندوق النذور، واتركوا روح السيدة تنظر إلى قلوب أحببها وجاءت إليها..

لا أجد عيباً في التشفع بها إلى السماء، لكن لماذا تلك الدائرة المفرغة؟! إذا أردت السماء فارفع يدك فليس بينك وبينها حجاب، وإذا أردت روح السيدة فعليك بالردهة الخارجية فوق حصيرها البالي، إلى لذة عليا لا يدركها سوى خشوع قلبك..

جاءت إلى كتفى يد أعرف ملمسها وصوت أعلم كونه، وغطى قدمي جلباب رائحته معطرة بمسك طاهر، ولمست يدي مسبحة في يد شيخ كبير بلحية بيضاء، حاولت تقبيل يده لكنه سحبها مسرعاً ماسحاً على رأسى، جاورني المجلس فهذبت من جلستى وضعت ساقى أسفل جسدى، بينما جلس الشيخ القرفصاء، سألتني في وقار وصوت هادئ رخيم: مش هتدخل الحضرة؟

- يا شيخ أنا حضرتي هنا، وروحي هنا بعيداً عن الصندوق والبخور.

- العشاق حضرتهم في الطل، الحب في القلوب مش في الدف..

- أنا عاشق من وأنا ابن ستة على يدك، ومجذوب القلب..

حبس القلب في دنيا العقل ذنب..

قام الشيخ يحرق خلفه عباءته وبصوت جهورى وكأنه صدى طائر في

أعالى السماء ردد: «داؤوك فيك وما تشعر وداؤوك منك وما تبصر..»

..... مساكن أهل الهوى=

يغدو الشيخ عدنان ذهابا وإيابا بالمسجد والمنطقة برمتها كطيف حلو
حالم بوداعة وجهه البشوش، يملك في فمه لساناً إلى القلوب موصولاً،
يظهر كلما اشتد الضيق يضع بلسمه على جروحنا الغائرة ويكمل طريقه
إلى وجهة هو موليتها..

كنت في السادسة من عمري حين تعرفت عليه، طفل خائف لكنه
مشتاق يرقد أمام بهو المسجد وينظر في صحنه متأملاً، نادى عليه رجلٌ
وقربه من مجلسه وحكى له عن السيدة الطاهرة فأصبح عاشقا، معتاد
الدعاء والسؤال.. غفت عيني على صوته وذابت بنفسى حديثها القديم
وتراءت أمامي صورة أبي ومن خلفه ذات البسمة والعين الكحيلة، أمي
فهل أنا منها بعيد وإلى روحها في رحيل إلى هذا الحد؟!
هممت بالذهاب إلى أن أوقفني صوت ينادى متلهفاً: علي.. كنت
عارف إنك هنا..

جمال خرج من محبسه وجاء إلى حيث يجدني، عانقته كثيراً وخرجنا
سويًا إلى منزله كما أراد.. لكنني وإن طاب لي الخروج مع صديقي وترك
الوافدين والمريدين في مشهدهم السائل، فإنني أطلب الأنس منك وأنت
من خصالك الأنس يا سيدتي الطاهرة، فلحديثنا بشرفتي بقية أدنو منها
إليك واقتربي أنت إليّ فإن من أخلاقك القرب..

تأبطت ذراعه وطفق الكلام على الألسنة يسترق منه السمع، ليل في
بداياته وقمر يشق طريقه في كبد السماء مصارعًا أعمدة الإنارة ومصابيح
الخوانيت، أغلق سحاب معطفه حتى الرقبة مانعًا تلك النسمة الباردة من

..... مساكن أهل الهوى=

مداعبة صدره، وجذب انتباهي إليه بسؤال أثاره حسه الفكاهي: مش هنروح نسلم على الست عايده وتقولى كفارة بقى؟!

- نانى سألتنى عليك؟!

- قولت إيه؟!

وخذته فى كتفه باسمًا مستفزًا دعابته التى يطلقها دائمًا إذا ارتبط الأمر بهذا المنزل، ليتك أبلغتها أن البعثات إلى أبو زعبل لا ينالها إلا أوائل الدفعات وأصحاب الامتيازات الاجتماعية وذوات السلوك القويم «وش القفص» على حد وصفه..

تابع بوجه ذى ابتسامة مريحة على جانبيها نبت شعر ذقنه: ولا أقولك.. أنا هبقى أفهمها أنا كنت فى.. وبعدين فى حاجات تانية عاوز أفهمها لها.. ماكنش فى فرصة أشرحها لحد فى البعثة..

لم أتمالك صوتى الذى ارتفع بالضحك مرافقًا لانعطافنا بشارع العجلات.. أخذته إلى محمل الجدد قليلًا مغالبًا ضحكى وبصوت خالطه سعال القهقهة: إيه حصل المرة دى؟!

- قابلت عامر حلمى..

اتسعت حدقتى وتدللت شفتى السفلى إلى حد أعقدت فيه الدهشة لسانى واكتفيت بهز رأسى مستفهمًا، ليردف جمال مسرعًا: مقبوض عليه برضه..

- قضية إيه؟!

- إلحاد.. قالها والابتسامة فوق شفثيه عريضة ساخرة..

- ابن الشيخ حلمى غيط، متهم بالإلحاد..
وضع يده فوق كتفى عند توقفنا بمطلع زقاق العطارين قائلاً: أنت
مش متابع مقالات الشيخ ولا إيه؟!
لا شك أننى قارئ مواظب لمجلة الهداية التى يكتب فيها الشيخ، بل
ومن أشد المتابعين له، إلى هذا الحد أصبح التنوير تهمة؟!
وإلى متى يظل القانون واضعاً نصوص الوصايا فوق الحريات، هل
يحتاج الرب لمن يعينه فى اصطيد الملحد أو العاصى؟!
سألته وهو يسبقنى بدرجة أو اثنتين على سلم الست عايذة: وإيه
علاقة عامر؟!

- تأديب للشيخ!
سرحت قليلاً فى ذلك الرد، وردنى إلى نفسى صوت باب الشقة يُفتح
ومعه سيدة فاضلة ترحب بزبائن الدائمين!!
لا يناسبنى دور يوسف ولا يلائمنى الترفع عن مجون الهوى، لكنى
فى تلك الليلة وإن راودتنى شقاء الليلة الماضية عن نفسى أجد روحى
معصومة، تكتفى بالتأمل والجلوس بصالة الشقة ممدداً متفحصاً للأثاث
الرث، بينما يخوض جمال مغامراته فى رواق آخر مع فتاة لا تقل فتنة عن
نجوم الليل وأهداب النهار، اقتربت الست عايذة من مجلسى ممسكة
بسيجارة بين سبابتها، ووسطها مزين بخاتم ذهبى ضخم يحمل نقش
«الربع جنية» على الأرجح، أما بنصرها فكان يحليه فص أزرق يعمى عنها
الحسد ويبارك لها فى رزقها!

- أنت عارف مين يا أستاذ اللى كان هنا إمبارح.. قالتها وهى تكمل
إجابة سؤالها دون الانتظار لمحاولات تخمينى «رشدى بيه»..
انفجرت ضاحكًا واصطدم رأسى بالكنبة المجاورة فى حركة بهلوانية
أسقطت على أثرها قارورة الشيشة، وسط نظرات غاضبة شزراء،
وكلمات إباحية اعتاد عليها فيّها ذو العطر والسواك..
أى بيه أو باشا ذلك الرشدى، الذى ربتيه على يديك وعلمتية البلوغ
والانصباب، بل وهو ثالث ثلاثة أدانوا لك بسنوات المراهقة..
قطعت ضحككتى وحوارى الداخلى جملة ألقت بها إلى سمعى،
«وصحابه بقى كلهم بشوات يا خويا، كان معاه واحد اسمه منير باشا،
راجل ملو هدومه وماشى يرش يمين وشمال»..
واحسرتاه.. عندما تحلج عباءة المحامى الحر وترتدى أخرى تمتلئ
جيوبها بأموال الكسب السريع، وتصر على وضع قدميك بسفينة الصعود
غير مبالٍ بما تعلمناه، اليوم صديقى رشدى هو ظل لرجل الأعمال
الميسور، هل يحمل له حقيبته إذا ما هبط من سيارته؟!
أو يغلق الباب خلفه فى هدوء ويتبعه صامتًا؟!
بل جاء به إلى منزل الهوى القديم، ربما طلب الثرى مكانا قديما تقليديا،
تديره قوادة امتهنت الحرفة من قديم القدم، فأصبحت لها عين فاحصة
فرازة لخصور فتياتها وأجسامهن، مما يرضى السيد وقواده الصغير..
«لماذا أصابتنى الغيرة؟!»..
ليست غيرة بالتأكيد لكنه غضب، شعور بالامتهان ربما، لكن أى

امتهان نشعر به من أجل بيت سيئ السمعة..
خرجت إلى الشرفة المغلقة كصندوق من الخشب له شراع أو اثنين لا
يفتح إلا في أيام العطلة ساعة على الأكثر!
جلست بأرضيتها مشعلًا سيجارة طالبًا كوبًا من القهوة قليلة السكر،
وتجسدت أمامي صورة أشد بغضًا لرشدي الذي لم أكرهه أبدًا - بل لم
أكره أحدًا - صورة رأيته لاهثًا في حراك اجتماعي يدفعه إلى تقبل أموال
المضاربات ويدله على جمع أموال العمولات السيئة، أراد أن يورطني في
أموال صديقه الثرى من قبل، لست الشخص الشريف النقي بالطبع،
لكنني أخشى أن يوضع فوق رأسي قرنان، قرنان؛ إذا ساندته في
الانتخابات مدلسًا مزيفًا وعي العامة، وقرنان إذا ما اصطحبته إلى هنا،
وإن صب ذلك في مصلحة الست عايده!

لماذا لا يحاسب القانون على عدد القرون التي تقفز فوق رؤوسنا، بينما
يمنع ويحجب الأفكار ويضع غشاوته على العقل، فيعاقب الشيخ بابنه!
فما لنا غير السكر ملاذ، ملاذ من قرنين ومن حيرة واقع غاب عنه
المنطق، لكن سُكرى ليس بالكأس ولا تلعب الخمر بعقلي على الأغلب،
ربما سكر بعيون بعيدة وخمر من شفاه هجرتنا وسط عتمة الظروف، فلا
شفع عنا حبهم ولا رحمت بنا قلوبهم، وفي وسط المديح ضاع الذكر،
والصوت أصبح خفيضه وما دامت غير ذكرى بعيدة طواها الليل وغفا..

لا شك أن خبراً مثل غزو الكويت اهتز له مذيع الراديو وبالتأكيد مقدمو برنامج التلفاز، بل وارتعدت فرائص المخلصين والوطنيين وبذل السناكيح لأجله مجهودا كبيرا لتعظيم قرار الحكومة أيّا ما كان، لكنى دون اكتراث يذكر وبلفة بسيطة للبكرة البارزة على جسم الراديو البلاستيكي أسود اللون، نقلت إلى إذاعة تبث صوتا عذبا لمطربة شابة تقول فى رقة «كان زمان لو بس أقوله.. كفايا بعده.. كان يخدنى فى حضن دافى وبسمه حلوة من شفايفه»..

رتبت أوراقى بما يليق بهمتى وشبقى للكتابة، بدأت بعنوان رأيته مرسوماً فوق وجه القهوة بفنجالى، أخبرتنى به حبات البن التى داومت عليها منذ بلوغى الخامسة عشرة - مقلداً والدى -.

وقتها أقبل أخى حسين مسرعاً خالع طربوشه وضع إياه فى رف الدولاب القديم، وقال لوالدى بصوت فيه من البهجة أكثر منها حماسة وقوة: «ولى عصر الطرابيش»..

نعم لقد انتهى عصر الطرابيش وبدأ آخر فى زى رسمى كامل من باريه عسكرى وبيادة وقايش مشدود على الخصر، من ارتدى هذا الزى يأمن ويصول ويحول..

فى عامى السابع عشر وكالعادة يجتمع كل رجال الشارع وشبابه ببقالة

..... مساكن أهل الهوى=

عم محمد عواد العاجي، حيث يخرج مذياعه الكبير على حافة طاولة عريضه تطل على رقعة واسعة يتجمع بها الأهالي، ويجلس والدى بجوار الشيخ راضى إمام المسجد والأستاذ ربيع فرحات مفتش التوجيهية حينذاك، أذكر نبرات صوت عبد الناصر المنبثة من المذياع قوية واثقة فتشرب لها أعناق الجماهير الملتفة حوله بميدان المشية بلا شك كحال هؤلاء حول المذياع فى حارتنا..

أعلن جمال عبد الناصر تأميم القناة وانتفض الجميع يصفق ويتغنى بل ويرقص حتى الشيخ راضى، إمام المسجد الجليل!

فرح الأب والإمام والتاجر والموظف الحكومى وابتهج أهل الشارع، بل وبالتأكيد رفع عبد الناصر رأسه ووصل بها فوق سحب العنجهية، فطالت رءوسنا جميعا نيران القصف الثلاثى بعدها بشهور لنجد دولا كبرى أعدت العدة لتقصف بورسعيد الصغيرة، وظلت كلمة «ديليسبس» مدعاة للفخر! فكيف لعاقل متزن أن يورط بلده فى عدوان ثلاثى فقد على أثره جزءا من سيناء، لتأميم ممر ملاحى هو فى الأصل سيكون ملكا لنا بعد عشر سنوات فور انتهاء الامتياز وعودته قانونيا الملكية مصر دون دفع تعويضات أو بذل دماء؟!!

هل يحتاج رد الفعل الانفعالى لكل هذا الضجيج، فيدفع بأخى وهو طالب الجامعة النابغ دارس الاقتصاد بالتخلى عن دراسته وحلمه والإسراع فى حمل السلاح والانضمام للمقاومة المدنية فى بورسعيد شأنه شأن المئات من شباب المحروسة!

فصل آخر من حياة بلد أصر الجميع على كتابة شهادة ميلاده فقط في 23 يوليو 1952 وشيطة تاريخه قبل ذلك اليوم مجاملة لنظام يصنع كاريزما البطل الورقى في أشد فترات المراهقة التى عايشتها مراهقاً أنا الآخر بشارب أخضر يخط فوق شفتى وذقن ينبت بها شعر قليل، أتباهى به أمام الأمرد والصغير، ربما تشابهت ولو قليلاً مع ذلك البلد فى هذه المرحلة فحبوب الشباب التى انتشرت بوجهى وجعلت منه فناء لإفرازات دهنية آلمتني، ومراكز القوى التى انتشرت هى الأخرى بجسد النظام وجعلته محاطاً بسلك شائك يجرح كل من يعترض أو يقترب سبب الألم للبلد وأهلها أيضاً، فكانت عزلتى فى نفسى وانكماشى لساعات طوال مفكراً فى ما يطراً على جسدى من تغيرات وما يتوارد على ذهنى من أفكار وخواطر، قابلتها عزلة أخرى واغتراب ضرب بأهل البلد فأسكت عقولهم وشجع عواطفهم على تأييد كل ما هو حنجورى..

وفى الجامعة وجدت صفة.. صفة العين والوجه، طويلة الشعر نضرة البسمة، عذبة الصوت، تجلس بمقهى كلية الآداب وحوها فتيات أحطنها كالملكة، تسمعهن ولا ينفرج نغرها إلا مبتسماً، وتعلقت بها أكثر بعد اللقاء الثانى بسينا مترو لكنى لم أتحدث معها ولو لثانية إلا فى اللقاء الثالث أمام محل «نيجارو» عند تقاطع شارع فؤاد بشارع عماد الدين. لم تكن كلها لقاءات بمحض الصدفة بالطبع، وكانت أول هدية «بولة» آيس كريم شيكولاته، احمرت وجنتاها وغامرها الكسوف لكنى باغتها بروحى المثابرة «أنا عزيز.. طالب فى كلية الهندسة.. وصديق لسعد نجيب»، أثلجها ذكر سعد قليلاً كما

..... مساكن أهل الهوى=

أثلج الآيس كريم حلقي، مثل سعد نجيب في حياتي حلقات وصل عدة
كان أهمها صفية شعراوى ..

وضعت قلمي وأنصت السمع إلى حركة انزلاق لسان كالون الباب
الخارجى عند إدارة أحدهم للمفتاح من الخارج، أصابنى بعض القلق ولكنه
سرعان ما زال بتيقنى أن لا أحد يملك مفتاح الشقة سوى فؤاد ..

لكن الصوت فاجأنى وجعلنى انتفض مسرعا قافزا من على الكرسي
وبخطوتين كنت أمام الشاب الذى ينادى محكما غلق باب الشقة خلفه،
انهلت عليه بالتقبيل وأخذته إلى غرفتى وأعددت مقعدا له بجوارى وسألته:
أخبارك إيه يا على .. وحشتنى جدًا ..

ربت بيديه على ركبتى وقال بصوت عطوف: أنا كويس جدًا ..
زادت سعادتى عندما أخبرنى أنه سيمكث معى يومين ودل على ذلك
حقيقته الصغيرة، قمت مسرعا وأعددت له فنجال القهوة، فسعادتى قد
تبلغ متنهاها وأنا أعد كوب القهوة لولدى وأحمله بحرص شديد، ابتسم
فى رضا وبشعر ذكرنى بصفية فى بسمتها الرقيقة الهادئة، لكنه وفى ومضة ثار
وبصوت عالٍ ردد: النهاردة هنزل أجيب عشا سمك معتبر .. لم أركز فى ما
يقوله من وصف لأصناف الأسماك ومذاقها المختلف، سرحت مع لهجته
وصوته وحركاته، حمل منى روحًا مثابرة ومن أمه ضحكة صافية وعين
كحيلة واسعة، قلت فى نفسى متباهيًا: «كبر الولد .. !!».

فى السادسة تقريبًا غادر على إلى وجهته مراهنًا على مذاق الطعام وجودة
المطعم الذى يقصده، أكملت كتابة وسرد الأحداث ريثما أتوقف عند نقطة

يسهل الرجوع إليها، في سنوات المراهقة والشباب لا بد أن يظهر ذلك الفنار الذى يضئ العباب أمام سفينة النفس، ظهرت صفية فى حياتى كشعاع رأيت من خلاله مصر البهية، كتلك التى دلنى عليها سعد نجيب..

رأيت أول مرة بمكتبة الجامعة يجتمع بخمسة أفراد فى مثل سنه من بينهم فتاة شقراء، كان كالخطيب، أخذنى صوته الحازم فى عرض أفكاره، تكلم عن الفكر والثورة، كان أول رأي أقابله يصف ما حدث فى 23 يوليو بالانقلاب العسكرى، أحياناً كنت أسمع أصدقاء أخى حسن فى مناقشات مبهمة يعترضون على وصفها ثورة فيطلقون عليها «الحركة المباركة» أو «حركة الضباط الأحرار»، ظننت فى بداية الأمر أن سعد من محبى الملك وربما من أسرة تتصل بالملك فعليا من حاشيته أو ما إلى ذلك، لكن ملابسه وطريقة كلامه لم تكن لتدل على أى مظاهر أرسنقراطية..

ومرة أخرى رأيت واقفا بباب المسرح ومعه فتاة غاية فى الجمال، ظل يحدثها منهمكاً وسمعته يردد ليبرالية واشتراكية وشيوعية، نادانى بصوته الجمهورى فانتقلت من استراق السمع متوجساً إلى الاشتراك فى حديثه، ربما شاغر الفم يظهر على وجهى بعض من بلاهة يصاحبها إعجاب لتلك المصطلحات الكبيرة التى ينطق بها، لكنى تعلمت من درس موسى والخضر فلا أقاطع ذى علم أو حكيم حتى يفرغ من حديثه..

ذهبت الفتاة فى طريقها وظل يشيعها بنظرات راضية بعدما صافحتنا ومكثت راحتها بين راحته لثوانٍ ظننتها طويلة، سألتها فى اهتمام: يعنى إيه ليبرالية..

..... مساكن أهل الهوى=

وضع يده على كتفى وصحبني إلى داخل صالة المسرح وقال: «الليبرالية أنك تكون إنساناً مسؤولاً عن تصرفاتك، ومتحمل نتائجها دون قيود فكرية أو اقتصادية على الناس ومشاريعهم».

ظل يسهب في تعريفه حتى وصل لجملتين لخص بهما معنى المصطلح النابع لفظاً من كلمة حرية بالإنجليزية «liberty»..

«هو اتجاه سياسى وفكرى يسمح بالتعددية، ترتدى ما تريد وتخلع عنك ما لا تريد، تأكل وتشرب ما تشاء بل تستثمر فيما يروق إليك وتحقق مكاسبك دون قيود»..

سألته عن الاشتراكية والشيوعية فجوابنى بحماس أقل، لكنه أصر فى نهاية حديثه أن تكوين الفكر والرأى لا ينبع إلا من القراءة والتجربة وأن كل فرد حر فى أفكاره واعتناقه ما يريد، وفتح حقيبته وأخرج منها مجلة اسمها المنارة، كانت تصدر قديماً جداً فى الثلاثينيات، كتب فيها كبار الساسة والمفكرين المصريين والعرب، أخبرنى وقتها أن هذا العدد من أهم الأعداد التى صدرت لتلك المجلة وبه موضوع مهم وهو الرأى العام اصطلاحه ومعناه، نصحنى بالبدء فى قراءة هذا الموضوع ثم التشعب كما أريد فى أى فكر يناسب عقلى..

عكفت على قراءة المجلة طوال الليلة، مقرباً من الراديو وصوت الطرب أحيانا وبالشرقة أحيانا أخرى حتى تصادفت مع حسين أخى الذى عاد من أسبوع أو أكثر من بورسعيد بعد عودة قوات الدفاع المدنى واستلام الجيش العائد من سيناء زمام الأمور مع الأهالى فى بورسعيد..

أمسك بالمجلة وقال بصوت غلب عليه التفخيم «مجلة المنارة»: قريت إيه يا عزيز وإيه اللي فهمته؟!

امتلاً صدرى بالفخر وبلهجة واثقة عالية: الرأى العام يا حسين.. الرأى العام هو الفكر الشائع والنمط العقلى السائد، الذى يحدد نوع الأفكار والميول والاتجاهات، بل يكشف تفصيلات الناس الاجتماعية والسياسية..

لمحت نظرات الإعجاب فى عينه والرضا الذى رسم بسمه ودودة فوق شفتيه فمسح على رأسى وقال: عال.. عال..

أخبرت فى اليوم التالى سعد نجيب بما فهمته، كان متعجباً لسرعة فهمى واستيعابى لمحتوى المجلة، وقال جملة ظلت فى أذنى حتى اليوم بصداها.. «واضح إنك مش هتمسك الطلبة ورا الدبابة يا عزيز»..

بعد طرق خفيف ودفعة للباب الخارجى ظهر شبح على فى صالة الاستقبال محملاً بأكياس الطعام برائحته الجيدة، وفى نظره عطف أحببته كثيراً لا أحد لقنه إياه، فقط فى عينيه بريق كأمه!

أغلقت دفتري وجمعتنا مائدة العشاء.. كما جمعتنا أقداح الشاى المتتالية بعد ذلك وطاف بنا حديث جذب من الذاكرة وميضاً ومن حياة على وميضاً آخر، سألته وهو يرشف كوب الشاى عن عمله..

قال وقد اعتدل فى جلسته: بشتغل على غزو العراق للكويت بعمل تحقيق صحفى عن الأزمة..

ابتسمت موارياً عنه سخرتى من ذلك القدر الذى أوقع الفأس بالرأس وأصبح الرجوع عن تقسيم المنطقه شبه مستحيل، أشرت بحركة يدي

..... مساكن أهل الهوى=

مستحسن ما يقوله..

قاطعنى فى وسط الحوار بعدما أنهكه نقاشنا على الأغلب: هتعمل إيه فى قضيتك؟!

حركت رأسى يميناً ويساراً وبصوت متردد قلت: الأستاذ فؤاد هو اللى متابع وهو اللى هيمشى فى الإجراءات القانونية..
- تفكر بعد اتهام بالقتل، هيكون فى إظهار للحق ورد اعتبار فى القضية؟!..

- تفكر أنت فى قضية يا على من البداية؟!.. سألته ساخراً..
قبل عودته إلى القاهرة ترك لى فصولاً من روايته «المحروسة» التى تصدر شهرياً بمجلة الأديب وعدد لا بأس به من مقالاته.. وترك لى نقاشاً دار بيننا سأذكره حتى موعد لقائه القادم، انفعاله فى الحديث عن الازدواجية، الكسب السريع، التضخم، الأفكار والمعتقدات الوهابية، شكل المجتمع ومسخره، بل تحدث أيضاً عن الأمة والقومية.. ذكرنى صوته الحيانى بالكمان القديم الذى أهدتنى إياه «صفية» فى عيد ميلادى الخامس والعشرين، يعجبنى فيه سعة ثقافته ورأيه الرصين، وأشم به رائحة من عريضة وصعلكة شوارع الحى القديم فى وسط القاهرة..

انتهى فصل جديد من رواية أمى عن العريس والزواج بشكل عام، وبدأ فصل آخر فى قصتى، قصة الفتاة التى تجاوزت بأحلامها هاشم المسكين أو الشاب المجدع كما تلقبه أمى..

فلما جن الليل بشباكى المفتوح على مصراعيه وباغتني ضوء القمر وصوت سكون الحارة ينصت لحركة المارة فأراقبهم بعقل شارد، ويتراقص فى الأفق دخان كثيف يخرج من شيشة المعلم عبيدة الغرباوى وصديقه القصاب ذي الشارب الضخم، وفى الراديو الكبير خلفها على مكتب واسع تغطيه عملات المشروبات والطلبات، خرج صوت ذائع الصيت يناجى أهل الحارة «بحيرى يا واد بحيرى وآه من البحرأوية...وعايق بالسديرى.... واللاسة والطاكية»..

فيردد أحدهم ذاهبًا مع السيدة أغنيتها.. ويقف عم عاطف صاحب البقالة مناديا على الحاج محسن مخترقا بصوته الأجرش قرقرة الشيشية وكلمات بدرية السيد: هقف يا حاج ونكمل عشرة الطاولة على قهوة المعلم عبيدة.. وتجرى سويعات الليل فى الحارة بين نرد الطاولة وقرقرة الشيشة وصوت المذيع، وفى الشرفات من خلف ضلفاتها الموصدة تغنى كل فتاة على ليلاها لحبيب أو حلم يراوضها أو تنكب على طاولة أو مكتب تجد بالحفظ والتلقين أو تتفحص قوانين الجبر والهندسة..

..... مساكن أهل الهوى=

سرت بجسدى اهتزازة سريعة عند تذكري لساعات المذاكرة والامتحانات، من أسبوع مضى أو يزيد أجلت دخولى امتحانات الصف الثالث للمرة الثانية، انتظر تخرجى بلا شك فى كلية الآداب حينها أستطيع ممارسة مهنة الصحافة، كصحفية كفء، وأهيل التراب على المطبعة وذكرياتهما كعاملة متفانية..

أستطيع توفير نفقات السنة القادمة واجتياز امتحان آخر العام، وعدنى الأستاذ محمد مهنى بوظيفة تليق بمهارتى فور تخرجى بل سيوفر تدريباً مناسباً فى جريدته هكذا أخبرنى فى ندوته الأخيرة التى اختتم بها برنامجها التدريبي والتأهيلي للصحفيين الصغار..

ولكن ماذا دهانى؟!

لماذا أشعر بسعادة حين يمر طيف الندوة أمامى وعلى الأخص الحضور وبأكثر صراحة وتحديداً ذلك الشاب ذو القميص الأزرق والشعر الكث والعين الواسعة؟!

كيف له أن يشغل بالى إلى هذا الحد؟!

من أذن له بطرق بابى؟!، لكنه لم يطرقه، لا يهم هو الآن يشغل بالى وتلك جريمته!

على.. نعم ذاك هو اسمه، سمعت الأستاذ وهو يناديه!

طردت عن نفسى الفكرة حين سمعت صوتاً يشبه الضوضاء لكنه مرتب بين تروس تدور وإبرة تصعد وتهبط بانتظام، تعض على قطعة القماش فتربطها بأخرى، يرتفع صوت ماكينة الخياطة من الغرفة المجاورة وخلفها

أمى بنظارتها الكبيرتين وربما معها جارة أو صديقة قديمة تأخذ بؤنسها.. دخلت تلك الماكينة الصغيرة كواحدة من أفراد عائلتنا البسيطة في شهر أغسطس الماضى، أول مكافأة حصلت عليها من المطبعة، وتحيد أمى الحياكة والتطريز أيضاً لتصبح بماكينتها الصغيرة مصدر دخل للأسرة، فتحمل عن الأب العاجز حملاً ينغص عليه راحته ويوقظه من أحلامه، عجباً لتلك الحارة!

عجبا لحارة فيها زوج رائع حمل أسرته مرارا وتكرارا ولدى تعبته وجد زوجة أشد منه روعة سندات جانبه قبل السقوط، وقصاب غليظ القلب لا يصادق فى الحارة سوى معلم يقاربه فى الغنى، وفقراء يذهبون بالحلم ويعودون بالهم معلقين من رقابهم فى خيوط «أنور مبارك» المرابى الماكر، يأتي عند الضيق فيعطى من ماله المسموم وينهش بعدها فى تلك الجلود المدبوجة الباهتة..

فى غمضة عين كانت أختى تشاركنى المجلس وتستند برأسها على صدرى، تتدلى منها ضفيرتان طويلتان ثقيلتان، تناجيت معها بنفس هادئة أداعب أحلام الفتيات البكارى التى تملأ صدرها..

حتى أسكتنا صوت الشيخ عثمان الفيومى يرفع آذان المغرب فيلحّن: الله أكبر، ويطربنا بحى على الفلاح، شعرت بحاجتى إلى الحسين والسيدة أنزل لهما وأضع فى صندوق النذور ما يريح القلب..

ارتديت ما يريحنى وسط إجلال تلك الأماكن كثيفة الروح والهدى، ومررت بوالدى الذى ودعنى راضياً وشيعنى بنظرات متأملة..

..... مساكن أهل الهوى=

كان الحسين مرتعاً لأحلامي وطموحاتي أخبرت ضريحه كثيراً بما أفكر وما يشغلني بل وشكوت له ضعفى حيناً وأظهرت له قوتي حيناً أخرى، أما اليوم فروحي إلى أخته الطاهرة تنجذب وإلى ضريحها تذهب..

انطلقت إلى مسجد السيدة بنفس هادئة وعين زائغة تبصر المشتاق والفقير، وتراقب أفواج الشحاذين جالسين فى أركانهم وفى تسلسل يشبه كتيبة من المرابطين ينتظرون المدد من المارة بشارع زين العابدين محملين بالنفيس والرخيص فلا يبخلون بصدقة أو حسنة.. بينما المجاذيب فهم يهيمون بميدان السيدة وجنباة فى حديث سري لا يعلمه سوى خالقهم ولا يستقر إلا بصدورهم..

صادرت الأفكار من عقلى وأوردته خشوعاً شعر به القلب وفاضت به العين وصليت لأيامى القادمة ودعوت بعمرى الذى فات ووضعت برادات أحلامي على موقد الكريم ومدده..

وعند الرضا جلست مسندة الرأس إلى الحائط الخارجى للمقام، فمر أمامى وبحركة سريعة طيف أعلمه بلا شك!

أقمنا حفلاً صغيراً بمكتبنا في الجريدة ودعنا فيه كريم وفيكتور في رحلتهم الشاقة إلى صحراء الكويت، بعض من قطع الكيك ومشروب الكوكاكولا وضحكات ترتفع وأمنيات بالتوفيق وصورة جماعية ضمت في أقصى يمينها الأنسة سوزى وجاورها منتصر سحاب وكنت على أقصى يسارها مستنداً على كتف كريم وتوسط الصورة بلاشك الأستاذ إحسان والأستاذ خيرى طربوش رئيس قسم السياسة..

تبادل الجميع العناق وامتزجت روائح العطور مختلفة الماركات الباهظة بمحلية الصنع وغادر كريم وفيكتور في تمام الثانية ظهراً تقريباً، فستقلع الطائرة في الخامسة مساءً من مطار القاهرة إلى مطار «الملك خالد» الدولي بالسعودية بدلاً من مطار «المقوع» بالكويت لتوقف حركة الملاحه به بسبب الغزو العراقي، ينتظرهما مرافق سعودى بسيارة لاند روفر صحراوية مجهزة تنقلهما إلى دولة الكويت لتبدأ مغامرتهم المهنية..

في بداية اليوم وقبل ذلك الحفل الصغير، سلمت التقرير المطلوب للأستاذ حسن الذى وافق بدوره على النشر وفى انتظار الموافقة الرسمية من رئيس القسم، لم أكن أعلم أن منتصر سحاب يملك من الحيلة والذكاء أن يعطل نشر التقرير بل ويأتى على مكتبى ممسكاً بوضع ورقات تحمل تقريرى يضعها أمامى فى فتور ويردد بصوته المنخفض ذي النغمة الباردة: راجع

..... مساكن أهل الهوى=

يا أستاذ معلوماتك، وما طلبناش منك رأى، المطلوب معلومات وإحاطة
بظروف الحرب بس لو سمحت!

أدار ظهره فى حركة استفزازية وغادر مختالاً فخوراً بصنيعه، بينما ابتسمت
لمنصور عيسى صديقى الذى أطلق ضحكته من خلف مكتبه..

أشرت له بسبابتى رافعاً منكبى فى استهانة، ولملمت أوراقى واستعددت
للمغادرة، عبرت الممر الصغير الفاصل بين مكاتب الصحفيين وصالة
الاستقبال المرتبة وتقع بأركانها شجيرات صغيرة للزينة وعلى حوائطها
شعار الجريدة واسمها وساعة بيضاوية كبيرة ذات عقارب ضخمة تمر برموز
لاتينية فى حركة محسوبة ومعلومة، وفى صدرها مكتب صغير زجاجى تجلس
خلفه فتاة شقراء بالغة الحسن لا تهرب من نظرات عينى المداعبة لجمالها
فى ذهابى وإيابى وعلى يمين ذلك المكتب ويساره اصطفت بعض المقاعد
الجلدية السمراء واكتمل ترتيبها لتأخذ شكلاً مستطيلاً ينتهى بأريكة جلس
عليها أستاذى القدير محمد مهنى، فما إن رأيته حتى توجهت إليه وبادلته
السلام بحرارة وجلسنا سوياً على الأريكة أسمع وأحكيه ولا يمنع ذلك
بعض النظرات إلى الشقراء التى تحمر وجتها من حين لآخر..

- رأيك إيه يا أستاذ مهنى فى تصريح بوش؟!.. سألته وكأننى أجرى
حوار صحفياً مع موظف رفيع المستوى..

أدار عينه يميناً ويساراً، ومط شفتيه كعادته وقال بفم بليغ: «أمة رد
الفاعل، لا تجيد سوى لعبة القط والفار» فعادوته متسائلاً عن مكنون جملته،
أردف فى هدوء: تصريح بوش وتصريح ملك السعودية يؤكد لك إننا ولا

حاجة، والجامعة العربية دى مش أكثر من شارع فى القاهرة..
وصف الرئيس بوش التحرك العسكرى الذى تنتويه الولايات المتحدة
بعملية درع الصحراء وأبدى مخاوفه من اجتياح العراق للأراضى السعودية،
زامن ذلك التصريح آخر من الملك فهد بأن السعودية والكويت أمنًا عسكريًا
وإستراتيجيًا واحدًا بل وقال مقولته الشهيرة: «ما عاد فيه كويت ولا فيه
سعودية، فيه بلد واحد» بل أيضًا أطلق مبارك كلماته مناهضًا للغزو متوعدًا
بالحرب وإرسال قوات عسكرية لحماية الخليج وطرد العدوان، رأى الأستاذ
مهني أن غوغائية الدول العربية ومن خلفها الجامعة العربية أيضًا بسفرائها
ودبلوماسيها فتحت الباب أمام تدخل دولى ستقوده أمريكا وبريطانيا
للدخول للأراضى العربية بل يربط دائمًا بين تصريحات الملك فهد ومثيلتها
من الرئيس بوش، نُصر دائمًا أن نصبح أمة القط والفأر يتحكم فينا سفراء
الدول الأجنبية فتتحرك كقطع شطرنج بين أصابع رؤساء تلك الدول..
استأذنت منه وغادرت دون الانتباه إلى الشقراء التى تمسك بساعة
التليفون فى رقة لو أدركها من يمسك بالطرف الآخر لأرسل قبلة عبر
الأسلاك فتنتطبع على شفيتها فى الحال..

أسير خمسمائة متر تقريبًا أو يزيديسارًا ، فأخذ انعطافة المحورجى، أترك
المطعم الأول وأعبر بحلوانى إيسا وعدة أبنية مرتفعة حديثة البناء وتستقر
قدمى بمطعم ريجان، أتناول غدائى وحيدًا كما اعتدت فى ذلك المطعم
القديم، وأرحل بعد دفع الحساب إلى شارع قصر العينى ومنه إلى كورنيش
النيل حيث نادى «فلورال»..

..... مساكن أهل الهوى=

أعبر من بوابته الخشبية مبرزاً بطاقة عضويتي وعلى يمين ويسار الممر
الواسع شجيرات قصيرة وأزهار ملونة تنتهى فى ضيافتك والترحيب بك إلى
مسبح متوسط العرض يميناً وكافيتريا فى اليسار اعتاد كبار السن الجلوس
بها وبعض سيدات المجتمع الراقى كما يدعون!

أخذت طريقى إلى المبنى المقابل فى منتصف النادى تقريباً، مبنى أبيض
الطلاء مكون من ثلاثة طوابق وشرفات واسعة تطل على المسبح والكافيتريا
وملعب الكورة والتنس خلفه، صعدت إلى الطابق الثانى مكانى المفضل
وسط قطع الشطرنج ومقارعة الفيل بالحصان والبيدق بالبيدق!

انتظرت لنصف ساعة تقريباً وبعدها خرجت إلى الشرفة وجاءنى النادل
بفنجان القهوة، قطعت بصرى سيارة شيفروليه موديل 91 زرقاء تمر بالممر
الأسفلتى المخصص للسيارات هبطت منها فتاة أعلمها جيداً وصحبها
أخوها ممشوق القوام وعلى عينيه كانت نظارة طبية، يشمر قميصه فوق
المرفقين قليلاً تبعتهم بنظرى حتى دخلا مبنى الشطرنج كما نطلق عليه..

جمعتنا طاولة فى ركن الغرفة تقترب قليلاً من ضوء الشرفة وهواؤها
ثبت عليها رقعة الشطرنج وجلس أمامى المهندس سليم نظمى يحرك
القطع البيضاء وأنا بدورى السوداء وتراقبنا الدكتورة ماجدة أو ماجى كما
ندعوها..

وعند غروب الشمس ومع بداية السهرة تجمعنا طاولة أخرى بكافيتريا
النادى تتسع لثلاثتنا مع دكتورة نيفين سامى وعمرو رسول شاعر العامية
الذى لا يحسن سوى الهجاء وعلى نقيضه التملق..

أحاول دائماً أن أبدو متكاملًا أنيقًا ذا ثقافة وفكر حاضر بل أجلس واضعاً قدماً فوق الأخرى وأنا في ذلك المكان ومع هؤلاء الأناس، أجد نفسي كاذباً مغترباً عن طباعى، وتقف في حلقي غصة لا تزول إلا بانتهاء تجمعنا، فلا يعجبني تنمق نيفين أو استعلاء سليم وإدعاء عمرو الصلقة، صلقة تظهر في صورة المسخ وتحمل كل معانى التشوه تتحدث بلسان البورجوازيين لكنها ترتدى ثوب العامة وتدعى الانغماس وسط الجماهير وهى حبيسة أندية الرويتارى وقاعات الشطرنج الفخمة..

لكن.. مناصى الوحيد واستمتاعى الكبير عند تلك الماكرة الصغيرة ماجى، حين ينفرج ثغرها عن كلمة أو اثنتين تعوضانى عن ذلك كله، فأرى الجمال فى صوتها، وفى رقة كلماتها وعذب حديثها، وأما العينان فلا أملك شجاعة الغوص فيهما، فأنا أحتاج عقلى فى تلك الفترة على الأقل، يخاطبني أحمر شفتيها فأقدم له مهجة القلب قرباناً، ويباغتنى الكحل فوق عينيها فأصلى وأدعى..

صوت عمرو أجش لا يميز الهيام والتهيه ينطلق كالأبواق النحاسية القديمة ويوجه كلامه للجميع لكنه لا يتوارى عن النظر فى عين نيفين، مما يثير الحقن فى وجه سليم. جذبنى بصوته حين قال: - أنا قرئت الجزء الثانى الى نزل فى مجلة الأديب من روايتك..

- المحروسة.. سألته مغالبا بعض التباهى خشية أن يظهر جلياً وتبصره ماجى..

رد صوت جميل بل هو كل شىء جميل أسمعه وتمثل له صورة ملائكية

..... مساكن أهل الهوى=

تترفع عن الظهور أمام عيني: أنا قرئت الجزء الأول بس.. شدني أنى استناها..

- يسعدني رأيك في الجزء الثانى الى نزل يا ماجى زى ما فرحنى رأيك في الجزء الأول.. لم أقصد تجاهل عمرو ورأيه مطلقاً فاستدركت مسرعاً: وإيه رأيك يا شاعرنا؟!

- بدأت تظهر عندى ملامح الشخصيات أوضح..
أجبتة بابتسامة وشدت على يده وقلت فى شىء من الرصانة: ماتتسر عش على معرفة القصة..

نظرت إلى ماجى التى وجدتها تصغى، وعلى وجهها ملامح الفهم ولو قليلاً، وددت حينها لو أخبرها عن القصة التى ينسجها خيال قلبى ويشيدها فى غياهب الحب ضائعاً متوسلاً، عن فتى فتنته فتاه كحيلة العينين فجعلت من نهاره تفكيراً ومن ليله سهداً وأرقاً، تنزعه من حى السيدة إلى شارع حسن باشا صبرى فى حى الزمالك..

أؤمن دائماً بأن الصدفة قوة لا يستهان بها، فبصدفة اشتركت فى ذلك النادى كصحفى فى الجريدة التى تحظى بنسبة كبيرة من الإعلانات عن النادى وأنشطته، وبصدفة أخرى شاركت فى مسابقة الشطرنج التى نظمها العام الماضى والتى جذبت إلينا سليم نظمى وأخته المصون..

فأتعرف على أبناء حى الزمالك بل وأخالطهم مكونا صداقات، لكن القلب تجراً وخطا مسرعاً نحو ماجى حسين نظمى، ومن يجهل حسين نظمى، فعليه مطالعة الصفحة الأولى من جريدة المال أو متابعة سوق

البورصة وفي الحالتين سيجد عملاقا يتحكم في تجارة السيارات وربما لو كنت من متابعي السياسة ستجده في مقدمة رجال الحزب الحاكم.. كل هذا لم يمنعني وأنا الراض لأبناء السلطة وذويهم، بل وبينى وبين الاستثمار الحديث خراب أن أعشق تلك الفتاة.. بل لم يمنعني من امتطاء نعل والطواف بأحياء الزمالك البلاستيكية، أرى محالا مصنعة ووجوها أكلها الزيف فأحن إلى حى السيدة والخليفة وعابدين والأزهر.. وأجد عقلى عاقدا للمقارنة واضعا صورة فى جنوب القاهرة وغربها، صورة لعلا شحاتة وأخرى لماجى نظمى!

فأتركه مع تلك المقارنة وأنساب مع لسانى نغنى لعمنانجم والشيخ إمام «يعيش أهل بلدى وغيرهم مفيش.. يعيش التنابله فى حى الزمالك..»

جمعية الفن والفكر كانت الشيء الذى جمعنى بسعد نجيب وأصدقائه حتى بعد تخرجه، عشت معهم فى نقاشات عديدة، فى البداية لم أفهمها، نشأ عقى فى ربوع تعددهم الذى رفضه المجتمع أو على الأصح رفضه النظام معلنا عن ذلك بقبضه على سعد نجيب وعصمت فوزى، كنت حينها فى الصف الثانى أدرس بقسم الميكانيكا، ورافقنى فى الدراسة عيسى الخليلى منذ أول سنة فى كلية الهندسة وحتى تخرجنا، شاب فلسطينى غادر بعد تخرجه إلى سوريا وانضم إلى منظمة التحرير وآخر أخباره كانت سفره إلى فرنسا والتحاقه بالوفد الشعبى للاعتراف بالسيادة الفلسطينية على أرضها، يوم قبض على سعد وعصمت رأيتهم قلقا مضطربا، أخبرنى ساعتها أنهم سيقبضون علينا لاشك لكن ذلك لم يحدث، غادرت مع عيسى يومها القسم مبكرا وقابلنا أخى الذى لم يندش بل أطلق على ما حدث «الهوجة»، سعد كان وفديا من عائلة معظم أفرادها ينتمون إلى حزب الوفد ويمثلون قيادات قاعدية فى أماكن عديدة، أما عصمت فوزى فعضو بحدتو، وقتها كان يتردد الاسم قليلا على مسامعى فى نقاشات هامشية كانت تصل أيضا إلى ما يسمى بالاتحاد الاشتراكى..

انخرطت بعد تلك الواقعة فى أوراق السياسة المصرية بشكل كبير

وداومت على متابعة الأخبار والاتصال بكوادر الحركات الطلابية، وفتح أخى الطريق أمامي على مصراعيه فكنت أغوص في مكتبته وأطلع على مقالات قديمة وكتب ونشرات صغيرة كانت تصدر عن أحزاب ومنظمات، وأهداني صديق قديم لأخى يدعى كامل علام - طويل القامة صاحب لحية غير مهذبة تشبه عمال المطاحن - كراس صغير للنين اسمه إلى الرفاق..

ربطتني صداقات عديدة بأعضاء حدثو - الحركة الديمقراطية للتححر الوطنى - لكنى لم أكون فكراً شيوعياً خالصاً، كل ما أدركته آنذاك أن الفاشية العسكرية لا تعترف إلا بصوتها ولن يخيب لها مسعى فى السيطرة على مفاصل الدولة وفرض نفوذها طالما حلت الأحزاب وأنهت الحياة البرلمانية وغاب التنظيم الذى يحمل راية الجماهير عن مقارعتها.. وفى يوم 15 يونيو 1960 ضرب الوسط السياسى خبر مؤلم باغتيال شهدى عطية وقبل ذلك تعذيبه مع سبعة وأربعين سياسياً آخر بالسحل وبالصعق فى معتقل أبو زعبل بعد نقله من سجن الحضرة فى الإسكندرية، قبل ذلك بسنة تمت محاكمته أمام محكمة عسكرية بتهمة اعتناقه الفكر الشيوعى والدعوة إلى تخريب البلاد!

لم نجد طريقة لتخليد اسمه والرد على غشامة النظام إلا بإعادة نشر مقال قديم كتبه فى جريدة الجماهير..

تولى الطبع عيسى وبعض الأصدقاء فى الجمعية، وكذلك أعضاء حدثو، لا أتذكر بالتحديد المطبعة التى خاطرت بذلك العمل، لكن

..... مساكن أهل الهوى=

ما أحسن تذكره هو صفية التى أقنعت مجموعة من أصدقائها الفتيات بحمل المنشورات إلى داخل الجامعة والعبور بها فى حقائبهن الخاصة، وامتلات الجامعة فى كل كلية ومعمل وفى يد كل طالب بورقة مطبوع على وجهيها؛ الأول صورة لشهدى عطية وبجوارها بخط أكبر «الشعب يريد حزبا من نوع جديد»، ووجهها الثانى حمل بيانا طلابيا يرفض الواقعة..

كان دفع الضريبة سريعا بالفصل لمدة 15 يوما من الكلية بعد تحويلنا إلى مجلس تأديب، لكننا قابلناه مستهترين دون خوف، وعلمنا أن ذلك مؤثر على فتح ملف سياسى لكل واحد منا.. وزاد الوصل بينى وبين صفية..

أغلقت دفتر مذكراتى وهبت لى فكرة سيطرت على عقلى وتحمست لها همتى، أرتدى ملابسى وأنزل أطوف بشوارع الإسكندرية.. أشارت إلى التاسعة والنصف، كانت الشوارع مزدحمة ولكنها فى حالتين متعاكستين من الحركة، رجال يسرعون الخطى إلى منازلهم عائدين من يوم عمل شاق وشباب آخرون افترشوا الكورنيش أو جلسوا يتسامرون بالمقاهى..

والجو لا يسوده ظلام الليل ولا ينيره القمر المتضائل فى كبد السماء تاركا إضاءة ذلك المساء البارد لأعمدة إنارة ومصابيح سيارات ولافتات محال ومقاهٍ وصوت الموج المرتطم بصخر الكورنيش يثير فى النفس الهلع حيناً والشغف حيناً آخر..

المرّة الأولى منذ قدومى إلى هنا متخفياً أنزل إلى شوارع المدينة، لم يخطر لى على بال الجلوس بكورنيش بحرى والاستمتاع ولو قليلاً بسينما الطبيعة التى حجبتهأ عنى قضبان السجن، أرى الفتيات الحسان النواهد، فأ تذكر أسلافهن فى الماضى بمناديلهن الملونة، يتخذن منها سجوفاً فتانة خلاصة لشعورهن السوداء والشقراء الكثيفة..

فى صيفى الثانى مع صفية أظننى جئت بها إلى هنا على شاطئى ميامى كما أذكر، لم تكن المرة الأولى التى جئت معها إلى مصيف الإسكندرية، ففى السنة الثالثة من دراستى، اشتركت معها فى رحلة نظمتهأ شركة «جولدن بيرد للسياحة» برفقة اتحاد طلاب الجامعة إلى شاطئى سيدى بشر..

يومها ارتديت قميصاً من الداكرون يميل لونه إلى الوردى، وبنطلون شارلستون أزرق، كنت مختلاً بنفسى ذلك اليوم أشد خيلاء عرفتهأ، أنا وصفية فى مصيف ولمدة ثلاث ليالٍ، أستطيع أن أتحدث إليها أمام البحر ونسهر سوياً على رمال شاطئه، ولكنها قليلة الحديث، مقتصدة فى تعبيراتها تجيد السمع عن البوح، تتألق فى فستانها الجبير أو الستان ذى الأكمام القصيرة أو الطويلة، بفتحة الظهر أو الجنب، تلفت نظرى دائماً بأى شكل وفى أى وقت..

أخبرتهأ أن توسد السحاب غاية، والحديث عن الوطن غذاء لأجسادنا وحب الحرية يجعلنى صادقاً فى حبها، وشخصها لا يجب أن يرتبط بما أحققه، يرتبط فقط بما تنجزه وتحبه، حدثتهأ عن البحر والهواء

..... مساكن أهل الهوى=

المنعش، عن عيون الفتيات وأنوف الشبان، عن السيدة زينب والحسين، بل حدثتها عن حبي لأم كلثوم وتأففى من صوت عبد الوهاب، راقبت ابتسامتها وضحكاتها ودهشتها عندما أخبرتها بنيتى شرب كوب أو اثنين من البيرة المثلجة معها فى تلك الرحلة..

كنت معها وقحا ومؤدبا، مجنونا وعاقلا، كنت معها بطبيعتى، تناقشنا فى عبد الناصر ونجيب والملك فى إسرائيل وفلسطين بل أخبرتنى عن الحجاب الذى تشبكه بدبوس فى حمالة صدرها بوعظ من أمها، فأخبرتها بدورى أن أمى لا تبخل عليّ بالبخور والرقية وتسيل على جسدى حيناً ماء مقروءاً عليه، استهترنا معاً من تلك الأفعال لكننا حفظنا احترام من يفعلها..

فى عيد ميلادى الحادى والعشرين أهدتنى رواية «الرباط المقدس» لتوفيق الحكيم وتركت بداخلها جواباً، على ورقة ملونة وكتبته بحبر أزرق، أذكر ما قالته نصّاً فمنه سطرنا أول مواد فى دستور حياتنا.. «عزى..

كم أنا امرأة محظوظة وحرّة لأحظى برجل مثلك يعيدنى إلى ذاتى وثقتى بها.. فنجلس سوياً مترافقين، نقسم معا رغيف الخبز وأكواب القهوة وصفحات الكتب.. نقسم العمر بفرحه ووجعه.. أعدك ألا نفرق، نحيا بشغف واندفاع ونحب الحياة ونحمل هم القضية سوياً وندفع البلاء عمن لا طاقة لهم به ولا حول.. وأكون وطنك الصغير يا حبيبى إذا ما خذلنا الوطن الكبير»

وقعت بعد تلك الكلمات «أحبك جداً.. صفية شعراوى 16 مايو 1960»..

آخر يوم في تلك الرحلة وبالقرب من شاطئ سيدي بشر في ساعة قاربت فيها الشمس على الغروب، واكتست السماء بحمرة الشبق البعيد، وبدأ السرك الليلي استعداداته للخروج، جلست عجوز في عباءة مزركشة في نهاية الشاطئ تتفوه بكلمات مبهمه كأنها تخاطب من لا هوية لهم ولا طلة نراهم بها، تضرب بعصاها رسمة مثلثة أمامها وتحرك من وضع حجر صغير يميناً ويساراً، تبتسم حيناً وتقبض حاجبها حيناً آخر، اقتربت صفية منها مستكشفة أمرها، يسبقها فضولها لمعرفة ماهية تلك العجوز، جلست بجوارها حذرة بعض الشيء بينما وقفت أراقبها عن قرب..

وبصوت متهدج أشعر بصداه في أذني بعد تلك السنوات الكثيرة حاضراً: هاتى كفك وارمى قدرك في طريقي، أدلك يا بنتى؟! انفجرت ضاحكاً غير مبالي بنظرات السيدة القاسية الغاضبة، فقالت بلهجة صارمة لا تنم إلا عن عجوز شمطاء: صه، خلى مستورك مكتوم، وما تفتحش بيان قدرك..

تبدلت ملامح وجه صفية لتظهر أكثر جدية ومدت يدها للعجوز، التي رددت كلمات لا حصر لها، يحسن المنجحات صياغتها وقولها فيقنعن الجميع بأنها حقيقية ولا ريب فيها، «الطريق صعب ويبدك تجعله ممهداً»، «نارك جنة وجنتك نار»، «كل باب مقفول فيه سر يززل العمر ويكسر

القيام»...

جمل وتراكيب لا حاجة لها في سلسلة المنطق، الذى لا يقبل بالحديث
الفضفاض المرسل لكن صفية المسكينة انبهرت بتلك الشمطاء بل
وأعجبت بلهجتها وطريقة حديثها فسألتها متعجبا متهكما: هل وجب
علينا استشارة الودع؟!

توردت وجنتاها كعادتها حين تغضب أو تحجل أو تتواتر برأسها
الأفكار وانصرفنا وسط نظرات ثاقبة شيعتنا بها العجوز مع بعض كلمات
ركيكة ضعيفة الحجة كالكلمات التى ترددها دوماً، لكنها وبصورة أكثر
شمولا ربما تصبح عنواناً لحياتى كلها حتى الآن!

إنه هو بلا شك، أرى منكبيه العريضين ورقبته العالية ترفع رأسه الضخم ذا الشعر الكثيف يقف متواريا عن الأنظار بقرب مقام الطاهرة، ربما يناجى نفسه ويتحدث إليها فى صمت، أو يحب دفء المكان فيتردد عليه من زمن بعيد، وقد يكون من مجاذيب السيدة ومريديها، فهؤلاء لا يفرق بينهم علم ولا جاه..

فالشاب الصحفي الذى جلس منذ أسبوع أو أكثر ملتصق الكتف بالأستاذ مهنى يتحدث عن الصحافة الاستقصائية وكيفية جمع المعلومات، يمثل أمامى خاشعاً دون رسميات، يطيل فى حديثه الصامت اللسان فصيح القلب..

جلست فى ركن آخر من المقام أراقبه ولا أحرم نفسى من التمتع بنور المقام وسكيبته..

رأيتـه يغادر قبل أذان العشاء بدقائق متجاهلاً صندوق النذور الذى عبر به مسرعاً..

دخلت إلى مصلى السيدات بنية الصلاة، لكنى لم أتقن من خشوعى فخرجت مسرعة، وكأننى أشبع عيني بنظرة أخيرة.. لكنها!!
لكنها لم تكن من نصيبه، كانت من نصيب هاشم الذى عبر إلى بهو المسجد مع ارتفاع صوت المؤذن مكبراً..

..... مساكن أهل الهوى=

أفأقنى من حلمى الصغير ونشوتى التى لم أعرف لها تفسيرًا، ردنى إلى
نجاة القوية التى لا تسمح لأحد أن يشغل حيزًا من بالها ولا يملأ صدرها
سوى أحلامها وطموحاتها ولا يسعدها سوى كل نجاح تحقّقه.. لكن
الحب نجاح أيضًا!!

لا لا.. ليس كذلك وليس الآن وليست تلك الطريقة التى أفضلها..
طردت عن نفسى هذه الأفكار التى خشيت تملكها من عقلى وتركعت
للعشاء ودعوت من رفع السماء وبسط الأرض..

هجمعت عطفة الباب الأخضر تحت ستار الليل، متوارية وسط الأنام
ألف يمينًا إلى شارع السكاكينى فأمشيه حتى نهايته وأخذ الشارع الضيق
يمينًا أيضًا، أعبّر البيت الأول والثانى بالحارة وأصعد درج الثالث حتى
الدور الثانى، أطرق الباب وفتحت صديقتى..

والدهشة تعترى وجهها مختلطة بالترحيب وشيء من القلق مخفوف
بسعادة: نجاة... إزيك؟.. ما قولتلىش إنك هتيجى النهاردة.. فى حاجة؟
- كنت عند أم العواجز جنبك هنا فقلت أعدى عليك..

- مدد يا طاهرة مدد.. أعملك شاي ولا نحضر العشا الأول؟!
أخبرتها أننى لا رغبة لى فى الطعام، كوب من الشاي يفى بالغرض..
- أخبرك إيه مع حسن يا سميرة؟!

- يوم حلو ويوم مر وآهى الدنيا ماشية..
- مر!!.. دا حسن يا سميرة!!

ناولتنى كوب الشاي وبعض الحلوى منزلية الصنع، ورفعت عينها فى

أسى: حسن.. حسن ده الحب، أول ما عيني فتحت على رجالة كان بطلى،
بس أنت مش عارفة حاجة!

أسندت ظهرها إلى الشباك الموصد وتابعت بعد رشفة شاي وكسرة
من تلك الحلوى: حسن مضغوط والشغل قليل والمصاريف كثير، بقى
يتكسف يقولى بحبك وهو جيبه فاضى، بس إنتوا لسه بتحبوا بعض..
- أنا ما ينفعش ما أحبش حسن.. ده حلم كل منام وعنوان كل حلوى،
ودوا كل مرض..

- نفسى أنا وهو فى بيت صغير ولا حتى كوخ بعيد، لحد يسألنا عن
إيجار ولا مية ونور، نشغل ونجيب اللى يكفى أكلنا بس ونقعد نغنى
طول الليل على ربابة ونأى.. ولما نصحنا ألاقى عينه فرحة ورضا..
- فاكدة يا سميرة لما جيتى مبسوطة فى يوم وقولتلى إن الحظن ده كله
حنية..

ابتسمت سميرة وانفرج ثغرها عن أسنان ناصعة فى خطين متوازيين،
ومالت برأسها للخلف لتظهر ندبة سوداء صغيرة فى رقبته، وارتفع
صوت أتى من حنجرتها يسلك طريقه إلى نحيب غير محمود..
بدلنا الموضوع بآخر فرضه علينا التلفاز ذو البث المشوش نسيبًا..
بعد ساعة تقريبًا وصل حسن الذى بادلنى التحية وصدق فى ترحيبه،
نزلت سميرة وحسن معى لتوصيلى حتى باب المنزل فالوقت قد تأخر
قليلاً..

وعلى فراش النوم جالت برأسى خواطر وأفكار عدة، لم تمنعها ظلمة

..... مساكن أهل الهوى=

الغرفة من التقدم أكثر وأكثر، تتسرب من فتحات الشباك ومن أسفل باب الغرفة ومنها من له القدرة على تجاوز الحوائط والفتك بالجوامد، فحسن الشاب المجتهد يغترب عن عمله فلا يشعر بأهميته وتثقل نفسه الديون وبالتبعية الهموم، فما بال الحب يقف مشاهدًا لا يبدى عليه الاهتمام بل لا يحرك ساكنًا يخفف عن ذلك المسكين ألمه..

الحب ذلك الحاضن لآلامنا والمداوى لهمومنا، القوة السحرية التي تفتح أبوابًا من السعادة يحسبها الجميع مغلقة، ولم يذق حلاوتها سوى العشاق والمغامرين.. فالحب الذى لا يقف سندا وعونا فى حياة المحبين كيف له أن ينال التقدير والاحترام، كيف لنا من البداية أن ندعوه حبًّا؟! دعونا نستعيض عنه بكلمات أخرى قد تؤدى المعنى اللفظى لكنها لن تصل لجوهر المشاعر، فلنطلق على تلك العلاقات «عشرة».. ونغلق بذلك فصول المغامرة أمام الشاطر حسن وأميرته سميرة، يجب أن يصبغ الحب بينهما ذلك الجو المشحون بسكينة ولطف..
كتلك التى أرنو إليها كل ليلة على فراشى قبل ستار النوم العميق..

محطة القطار.. أهيم وسط المسافرين علي هيامهم وأتوه بين أغراضهم
وحوائجهم تربطني حقيبة زرقاء يُسمع صوت عجلاتها الصغيرة في أذني
بأخرى أكبر حجماً لبائع جائل وضع بها بضاعته أنزلها على الأرض مريحاً
كتفه العريض، وعلي بغتة يأتي مسافراً يسأل عن قطار القاهرة، أفسح له
مقعداً جوارى وأدعوه للانتظار فوجهتنا الآن واحدة..

تلمع القضبان الحديدية عاكسة ضوء كشافات كبيرة مُسلطة لإنارة
رصيف القطار الذي يتأخر عادة عن مواعده وساعته دافعاً الركاب إلي ملل
أو زججرة وربما بعض العصبية ومنهم من يتسلح باللامبالاة..
وبينهم أنا أيضاً بأحلامي وهمومي، أحلام أن أصبح كاتباً وصحفيّاً له
رأيه الحر، وبداخلي أرضى غروراً شخصيّاً، لا ضير من البحث عنه، لأجد
تقديرًا ملائماً لذاتي وسط التكتلات المختلفة في الهرم المجتمعى..

ومع قدوم قطار على رصيف قريب تمتلئ سماء تلك المحطة بأحلام ومهام
وإنهاك وتعب ولقاء ووداع.. بين مقبل يُقبل صديقه بلهفة وآخر ينظر في عين
حببية انتظرتة بشغف فيزداد بريق حقيقته، وآخر يستعد لعمل شاق يجلب
عليه بعض النقود فيتسع صدره لمشقته..

ووين مدبر أحكم الإمساك بحقيته ليسابق بين الصفوف حاجزاً مقعداً
يكون حسن الرفيق طول الرحلة والطريق...

..... مساكن أهل الهوى=

وسرعان ما تخفت تلك الحركة وينصرف الجميع ويعود للمحطة الهدوء المسائي ويعود المسافر المنتظر جوارى إلى كتابه «تاريخ الفرس والروم».. والكشك الخشبي الصغير ببضاعته من العصائر والمأكولات والشاي والقهوة يخرج من بين أركانه لحن جميل لأغنية «أمل حياتي» تزيد من جماله الفتاة الشابة التي تخدم زبائنهما من خلف شباك الكشك ببلوزة مزركشة وربطة رأس بنفسجية يتدل من مقدمتها خرز أحمر وأصفر وهي تغنى وتدنن مع الست فتخفى بشاشة ضحكها ضيقها وتعبها وتغلب نضارة وجهها سهدا وسهره وربما أرق الليل الطويل..

وعاملات النظافة في حركات منتظمة ممسكات بالمكانس والجواريف، لكنهن لا ينطقن ولا يسمع لهن همهمة وكأن الشقى حكم عليهن بالصمت مع الأشغال الشاقة الموحشة..

لا أعرف كم تبقي علي وصول قطارى فساعة يدي فقدتها على القهوة أو بدورة المياه على الأرجح.. كانت عقاربها متوقفة على كل، ربما تحتاج إلى إصلاح أو قررت الإستراحة من الدوران الذي لا يفيدها، فلا فرق بين السادسة مساءً والسادسة صباحا سوي ائنتى عشرة ساعة لم يتغير فيها العالم كثيرا فإزال موحشا جافا باردا..

ارتفع صوت صافرة القطار مرة أخرى، لكن تلك المرة كانت الإشارة على رصيف انتظاري، أقبل القطار متهاديا يزأر من بعيد بعجلاته الحديدية وحرارة مكابحه المنتظمة..

جعل القدر من شيخ كبير نائم جارا للرحلة من الإسمايلية وحتى القاهرة

إذا أراد ذلك!

كان يومي بالإسماعلية مميزاً فالحلقة الأولى من النقاش كانت مثمرة، ناقش الجمع فيها أهمية الأدب كأداة لمواجهة السلطة والقمع، وباقي المناقشة كانت عن أدباء عظام رحلوا عن دنيانا تاركين بصمة لم يمحها الزمن، وآخرون تقربوا من بلاط السلطان فكان التاريخ حاكماً عليهم لا لهم، في نهاية الندوة توجهننا بالشكر لمجلة الأديب علي حسن ضيافتها وتنظيمها لذلك الحدث الرائع، سألتني فتاة عن نهاية قصتي «المحروسة»، قالت في مكر القارئ الجيد وبخفة وابتسامة أظهرت فراغاً صغيراً بين سنتين في منتصف فكها العلوى، جعلت من ابتسامتها أكثر سحراً ومرحاً «والحلقة الأخيرة في المحروسة ستكون زى ما توقعتها ولا مختلفة يا أستاذ على»..

أعجبني أسلوبها الواثق المبالغ لتفكير شخص مثلي يرتب أفكاره أكثر مما يفصح عنها، فكان الرد بالتبعية ابتسامة رقيقة وهزة من كتفي وكلمات تنم عن سعادتى لاهتمامها بما كتبتة..

جددت شكري وامتنانى وتوجهت إلى الأستاذ مسعود القاضى رئيس تحرير المجلة، هنأته علي اليوم الرائع وتمنيت أن يتكرر وجلسنا ما يقارب نصف الساعة ومعنا صحفية صغيرة تحت التدريب بصحبة كاتب مرموق من ضيوف الندوة، ثم استأذنت لألحق بالقطار عائداً إلى القاهرة..

للوهلة الأولى عند نزول قدميك بمحطة رمسيس ترى الجمع الغفير والحركة المضطربة والأصوات المختلفة وأرصفت متوازية وفي الأعلى سقيفة عالية تهبط منها سلاسل تمسك بكشافات الإنارة..

..... مساكن أهل الهوى=

قد تزعجك الفوضى أمام بوابة الخروج لكن ستجد مثلتها في الخارج أيضاً في عربات الأجرة وأتوبيسات النقل العام، تلك سنة فرضتها الحكومات المتعاقبة بأنظمتها المختلفة..

أيها أكثر ربحاً لدى تلك الحكومة أو الحكومة التي تليها أو التي تليها أو الحكومة التي تأتي بعد عقد وعقدين، تطوير خدمة النقل العام أم فتح باب الاستيراد لكل أنواع السيارات وتشجيع النزعة الاستهلاكية لدى الجماهير؟! فتصبح عمارة سكنية تقطنها عشر أسر مثلاً، تملك أربعة منهم على الأقل وسيلة تنقل خاصة بهم، والآخرين يلجأون مضطرين إلى خدمة النقل العام السيئة، والجميع تخنقهم بلا شك حركة المرور العسيرة في نهاية المطاف..

الأهم أن تحصل الحكومة ووزراؤها عمولات السمسة أو ما يسمونه جمارك الاستيراد وتزداد جيوب رجال الأعمال انتفاخاً وتحل الكماليات والسلع الاستهلاكية محل السلع الأساسية وتتحول الرفاهية إلى ضرورة والسنة فرض!

قرأت قديماً في رواية لا أتذكر اسمها الآن وبالتبعية اسم كاتبها العبقري - الذي أخطئ في حقه بداء الذاكرة ذاك - «أن الفلاحين عاشقون لأرضهم والإسكافيين يعرفون أقدام كل سكان قريتهم ويحفظون أبعادها وأحجامها وكذلك عمال الغابات والبستانيون والصناع والكتاب، كل أولئك يحبون ما يفعلونه بل ويتغنون بعملهم الذي يصل إلى حد الإبداع والفن، تلك حال قرية لم يضر بها الاغتراب!

لم تصل إليها أذرع الاستثمار في الإنسان واستغلال أحلامه وطموحاته، لم

يتحول فيها العامل لترس في الآلة الكبيرة ولم يتحول فيها المواطن إلى مسمار في نعش كبير يريدون إجحافاً تسميته بالوطن..

الوطن لا يعرف الجفاء.. لا يعرف العقم الفكرى والتجريف الأخلاقى .
الوطن هو بيتنا الكبير وسكننا الذى نبحت عنه فى عين عجوز وضحكة فتاة وانطلاق الشباب ووقار الشبية فى أحلام المراهقة، فى سينما مترو، ووصيف جليم وسواقى الفيوم ومعابد الأقصر، الوطن ليس سيارات فارهة وحراسات متنقلة خلف المسؤولين وخطابات رؤساء مجوفة وكلبات تفقد معانيها..

الوطن هو فتاة تسهر معها الليل وتحدثها عن عملك طيلة النهار، هو ريشة فنان ومقال صحفى ورواية أديب ومشروط طبيب وخوذة مهندس وإبداع صانع وجهد عامل وعين مجند ساهرة، ليس الوطن ببذلة فخمة تخفى كروش نمت من أموالنا، ليست نظارات باهظة تخفى عيوناً كاذبة لوزراء ومحافظين، ليست هراوات مرتزقة استأجرهم النظام فخلع عنهم عباءة الشعب فأسرعوا نحو زى أبناء النظام المطرز بالنياشين والنجوم ففتحوا السجون وجهزوا المعتقلات بل ودشنوا القضايا والعقوبات!

غرقت فى أفكارى حتى فاتتنى محطة السيدة زينب، فعدت أدراجى مشياً من السيدة عائشة ماراً بعطفة الحلوانى ومن حارة لأخرى إلى زقاق ضيق ثم شارع كبير وفى النهاية درب البهلوان ومنه إلى السيدة..

من السيدة عائشة إلى السيدة زينب ما أكثر الصالحين والصالحات بمدنيتنا، بل وما أكثر من يتباركن بهن دون عمل!

لكن.. هل للصالحات والأولياء مكان فى عالمنا اليوم؟!

أول انتخابات للنقابة يكون لي حق التصويت فيها، الانتخابات السابقة اكتفيت بالوقوف بسلم النقابة بصحبة كريم ثروت وعبد الرحيم جاد الحق، كنا طلابًا في السنة الأخيرة وقتها فاز عبيد الزيات رجل الدولة الأول في عالم الصحافة وقائمه كاملة العدد مثلت مجلس النقابة ..

اليوم قد يكون الوضع مغايرًا، فتلك البقعة بشارع عبد الخالق ثروت بتاريخها الذي يعود إلى أوائل الأربعينيات نصبت نفسها قلعة للحريات وصرحًا للكلمة والقلم، اليوم أصعد سلمها وأخطى بابها الكبير مفعماً بالفخر فلدى هوية تمثلنى هنا وعضوية تسمح لى بإدلاء الرأى ..

تنوعت الحركة علي ميمنة قاعة الاستقبال الكبيرة وميسرتها بينما وضعت صناديق الاقتراع برفقة اللجنة المشرفة بالغرفة الداخلية ..

لمحت عبد الرحيم جاد الحق يقف مواردًا ظهره وعلى وجهه بسمة تداعب لحيته الخفيفة المهذبة وبجواره ثلاثة أو أربعة يشابهونه إلى حد كبير المظهر والابتسامة أيضًا، يستند أطولهم إلى خوان رخامى، يحسنون السمع عندما يتحدث أحدهم وينفجرون ضحكا ضاربين الكفوف محركين الرأس، تقدمت إلى عبد الرحيم في خطوات بطيئة جاهدا في رسم ابتسامة تفتح لى حديثا مع ثلاثتهم أو مع صديقى فقط على الأقل ..
- عبد الرحيم .. أخبارك إيه؟! ..

قلت بحرارة مصافحا إياه فرد بعناق أعلم أنه صادق إلى حد كبير..
جرى التعارف بين أربعتنا بشكل سريع وانتقلت مع عبد الرحيم بضع
خطوات بعيداً عنهم..

- هتنتخب مين يا على..

- قايمة فهمى شعيب.. أجبت ضاحكاً..

لم تغير إجابتي التهكمية من ابتسامته التي ظلت علي اتساعها، ولكنه
قال بصوت يحمل من الجدية الكثير: ده يشرفني.. بس مش حقيقي..
هتنتخب قايمة جبر.. مش كدة؟!!

- أكيد يا عبد الرحيم.. أنا مع الأكثر تقدمية دايماً..

قاطعني بحدة لم تخل من ندية أيضاً: كفاية شعارات في الآخر هنقعد
نتكلم ونتجادل وهتتقدم علي طبق من فضة لـ...

أشار بيده اليميني التي تزينت بالساعة - كحال أصدقائه الملتحين -
اتجاه عبد العظيم جودة الذي توسط عددًا لا بأس به من رؤساء الأقسام
في الجرائد والمجلات المختلفة بل ورؤساء تحرير أيضاً جلسوا جميعاً في
مربع واحد من الكراسي الجلدية ونظرات الارتياح تربع وجوههم..

- هون علي نفسك في حاجات أهم من الكرسي يا عبد الرحيم..

- الكراسي والمناصب زائلة.. المهم إن كل خطوة بناخذها تنصر الدين
وتوحد صف المسلمين يا على... سكت قليلاً ثم أردف بصوت حماسي:
نصر الدين قادم لا محالة يا على..
- نصر الدين ولا الجماعة؟!!

- الجماعة أداة.. ناس اتطوعت لخدمة الدين بتقول كلام الكتاب المبين وبتمشي علي تعاليمه..

- خليني أشوفك يا عبد الرحيم قبل ما تمشى.. واحشاني قعدتك..
استأذنته بعد اتفارقنا علي ذلك وانتظرت بصحبة بعض الشباب قدوم
أستاذنا محمد مهني، لم يختلف كلامنا كثيرًا فالانتخابات القاعدية يجب
العمل عليها لتقديم أكثر المرشحين تبنياً للأفكار والنوازع التقدمية في
مواجهة رجل النظام ورجل الجماعة دومًا..

نعلم بشكل كبير أن الانتخابات محسومة لقائمة صوت مصر ونتيقن
من وصول عبد العظيم جودة - وكيل النقابة السابق، رئيس لجنة القيد -
إلى منصب النقيب العام بعد انتخابات التصعيد بلا شك..

أعجبت بحماسة صديقتي الصحفية بمجلة العنوان «نهلة ضياء» وهي
تحدث وتجادل أساتذة كبارًا لهم باع في الصحافة لكن تحذهم انحيازاتهم
في أعيننا حين تصب لمصلحة النظام..

تستحق النقابة فتاة حرة مثل تلك تكمل ما بدأته نبوية موسى وروز
اليوسف ورجال نثق في ثقافتهم وأمانتهم دفعوا بشجاعة من أعمارهم
في سبيل الكلمة الحرة ليصبحوا وصلًا للأساتذة حافظ محمود والمازني
والعقاد، فتعود النقابة منارة للفكر والثقافة ومنبعًا للحريات ليست مجرد
نادٍ اجتماعي معني بالرحلات وشاليهات المصيف!

للقدام من بعيد دون علم مسبق بشيء سيدرك ببساطة التحيزات
والتكتلات المختلفة بالنقابة، فبشكل آلى تحولت النقابة لثلاث كتل

انغلقت علي نفسها تدور نقاشات بين أفرادها وإيعازات وتعليمات بل وتربيطات لخدمة مصلحة الكتلة ومن خلفها.. انغمست في تلك المقارعات ونشاطات ذلك اليوم حتي تنبعت فجأة وكأن عصا غليظة هوت علي رأسي تذكرني بموعدي بنادي فلورال مع ماجي لكن لا جدوى، جاءت متأخرة تلك اليقظة!

فالساعة تقترب من السادسة وموعدنا في الرابعة! مع اقتراب خفوت الحركة وانصراف العديد من الحضور تأبطت ذراع عبد الرحيم لنصبح من المنصرفين قبل السابعة! طرقت أقدامنا مدخل شارع شامبليون، وخذته في كتفه قائلاً بصوت عالٍ قليلاً: ماتيجي نقعد في الركن..

- ياه يا علي من زمان أوى ماروحتش هناك،
- من أول ما الدقن الحلوة دي ثبتت وعلامة الصلاة ظهرت وبقت الصحبة من الإخوة.. قاطعته مؤكداً..

تابعت بلهجة أعلى من سابقتها.. فآكر سميحة يا عبد الرحيم ولا أقولك رحيم زي زمان، أدرت وجهي ناحيته ولحنت له جملة التصقت به علي مدار سنوات مضت وولت راثحتها الجميلة..
لاحظت بعض علامات الضيق التي ارتسمت قليلاً علي وجهه فلم أستفرض في حديثي عن هذا الاتجاه..

أصوات قرقرة الشيشة يتبعها صوت عامل القهوة يوصل طلباً علي هذه الطاولة أو تلك وينادي بصوت جهوري لآخر خلف البار «انتين

مظبوط وواحد خمسينة تقيل».

امتنع عبد الرحيم عن تدخين الشيثة فلم يطلب إلا فنجان قهوة
مظبوطا، راقبت عينيه اللتين جالتا بالمكان ذهابا وإيابا تبحثان فيه عن
ذكريات الجامعة وأيام الانطلاق والأحلام..

باغته بطريقة خفيفة علي الطاولة وقلت: بتشوف جمال؟!
- آخر مرة كانت من خمسة شهور.. شوفته بالصدفة في العتبة عند
كشوى المدينة، كان طالع من هناك ومعه بنوتة صغيرة كدة.. عرفت إنها
أخته..

- هند؟! قلت متسائلا..

- آه.. أنت تعرفها؟!!

- بحكم أنها أخت صاحبي... كمان لما جمال كان مقبوض عليه رحت
معاها القسم وكان معانا رشدى..

وضع النادل فنجان القهوة أمام عبد الرحيم وكوب الماء وسألني عن
حال حجر الشيثة، جردنا بنظرة متسائلة وقال: «هو صحيح يا أساتذة
إحنا هنحارب في الخليج؟!»..

جاوبه عبد الرحيم وهو يرفع كوب القهوة إلى فمه بسؤال آخر: ولو..
أنت رأيك إيه..

- ده رزق عالي با باشا.. أنا سمعت إننا هنشاركهم في البترول بعد ما
الحرب تخلص لو حاربنا معاهم.. أنا لو ينفع هروح والله..

يا أستاذ سمعت كمان إن العساكر نفسهم اللي بيحاربوا هناك

بيطلع لهم قرشين كويسين..

أوقف عبد الرحيم الفنجان في منتصف المسافة بين فمه والطاولة ممعناً النظر في كلام النادل البدين ذي الندبة الكبيرة يمين أنفه والجرح الغائر في جبهته، وإن استدار مسرعاً إلى طاولة أخرى يلبي نداءها، تحرّكه نداءات ذاك أو تصفيقات أولئك، أطلقت دخان الشيشة في الهواء مداعبا نسيم الليل وأذان العشاء من مسجد قريب ارتفع صوت مؤذنه ككروان ينطلق فجراً باسطاً جناحيه، يردد عبد الرحيم خلف المؤذن بدوره وبصوت عالٍ، سألته بعدها عن رأيه في حرب الخليج، كان رده شجاعاً كما عهدته فاللحية والإخوة وغيرهم لن يغيروا عبد الرحيم الكامن خلف ذلك الستار بلا شك، يري عبد الرحيم إنها فتنة مسئول عنها الحكام العرب كلهم بلا استثناء..

- في مصريين هيجاربوا هناك يا على، معظم قوات المشاة هتكون مصريين دي مصيبة !

قالها عبد الرحيم منفعلًا ضارباً بيده على الطاولة ليسقط كوب الماء الفارغ لحسن الحظ، أجبته بإيماءة مؤكّداً أنها مصيبة حقاً..

- كريم ثروت وفيكتور ملاك سافرا يغطيان الأحداث، تعرفهم؟!

- عارف كريم طبعاً، ومش فيكتور ده المصور؟!..

- آه.. قاطعني بحركة فجائية نظر فيها بساعته وهب واقفاً لتذكره

موعداً مهماً قال بصوت خافض ودود: ليك وحشة يا على خلينا نتقابل دايماً وسلملي علي جمال ورشدي..

..... مساكن أهل الهوى=

- يوصل .. المرة الجاية نتجمع كلنا..

ألقي تحيته وغادر وبقيت مع شيشتى المصون!

أراقص دخانها وتعانق أنفاسي، أخبرها بوحدتي وتُفرد الوحشة
بضعفى، أث لها حزنى ولوعة قلبي فالفتاة التي أحبها تربطنى بأوتار
كتانية بالية تنقطع رويدا رويدا ويظل قلبي حبسا بين ضلوعه يبحث
عن آخر عطوف به يكون له مأوى وسكنا فلا يرهقه التصنع ولا التشبث
ولا يصل به الأمل حد الموت إن تبادر للأذهان معنى للفراق.. فما أكثر
القلوب الزلفى التى لا نشعر بها ولا تشعر بآلامنا!!..

بعد وحشة نضب لها معين صبرى وضافت بها جدران غرفتى وآلت
لأشباح ضخمة ارتديت ثيابى ونويت الخروج إلى وجهة لا أعلمها، ربما
إلى قطار ينقلنى معه عبر المروج والأفدنة الزراعية والبيوت القديمة والمدن
الحديثة، يأخذنى بعيداً عبر عرباته المتراصة، أصطحب كتاباً وربما دفتر
مذكراتى أيضاً..

دخلت محطة القطارات فى الحادية عشرة صباحاً دون أن يسألنى أحدهم
عن هوية أو بطاقة تعريف، أثارتنى ربة وتوجس عندما رأيت شرطياً
يقف بباب الطرقة التى تفصل بهو المحطة عن الرصيف وآخر يجلس
خلف مكتب خشبى جواره، لكن أحدا منهم لم يلتفت إلى أى شخص
من المسافرين، جلست على مقعد على يمين العربى الأخيرة من قطار مطلق
بالأصفر والأزرق علمت أنه ينتهى بمحطة طنطا ويمر بإيتاى البارود -
المحطة التى يقصدها أحد المسافرين جوارى - فتحت الشباك قليلاً وبدأت
فى تصفح جريدة الأخبار التى اشتريتها من رجل كبير يفترش مساحة
صغيرة على يسار باب المحطة الخارجى..

انطلق القطار متهادياً بطيئاً حتى وصل إلى سرعته الكبيرة وانشغل
المسافرون بدنياهم كل حسب ليلاه، لا أحد يفتش عن الآخر ولا أحد
يسأل عن هوية البقية، لا أمتلك هوية ولا يدرى أحد عنى شيئاً ربما مت

في السجلات من سنوات وربما مكتوب في دفاتر المفقودين وفي الغالب لم يهتم أحد إطلاقاً بكتابة اسمي أو البحث عن سبب لاختفائي طيلة الفترة السابقة سوى شخص واحد هو خصم عنيد بلا شك قد يكون آله هروبي ويبحث عني الآن وربما يكون من الوفيات هو أيضاً وإن كان ذلك حقاً فلا بد أنه رحل تاركاً أذنا به في مكان ما يتقلدون المناصب أو يجمعون الثروة، طالعت الصفحة الأولى من جريدة الأخبار تتحدث، ثلث عناوينها تقريباً عن حرب الكويت والعراق ومطالبات سياسية وعربية بتلبية الرئيس للنداء والمشاركة بقوات برية وقيام مصر بدورها الإقليمي، وعنوان آخر في آخر الصفحة يخبر عما تحمله الصفحة العاشرة في الجريدة عن لقاء مع المدرب محمود الجوهري للحديث عن مشوار مصر في كأس العالم وأغرب اللقطات التي لا تنسى!..

وفي أسفل الصفحة على اليمين أفيش لفيلم البيضة والحجر لأحمد زكي وأماكن عرضه ببعض السينمات، عدت إلى المقال ذي العنوان المنمق مرة أخرى «الدور الإقليمي لمصر.. أيها الرئيس!» لم يلفت نظري اسم الصحفي الموقع أدناه، هو صحفي ماهر حسن الكلمة لكنه ضعيف التجربة كما أظن فسقطه أخذتني إلى حرب اليمن والدور الإقليمي لمصر هنالك أيضاً!

لكن لسوء الحظ وسخرية التاريخ أن ما حدث للجيش المصري في صحاري اليمن شيء مرعب ومنفر من أي تجربة مشابهة إذا كنا نعقل أو نسمع، فالقائد ذو النظارات السمراء واليد المرفوعة يلوح بها يميناً ويساراً راسماً ابتسامة الواثق والحالم لم يرقه انفصال سوريا عن الجمهورية العربية

المتحدة وفقدانه لوحًا خشبيًا في عرش الزعامة، فسولت له نفسه سييلا آخر يثبت به زعامته ودوره الخرافي في المنطقة العربية كلها فيورط جيشه في حرب ضروس وسط صحراء جافة معدمة مع عدو أشبه بجراد ينتشر فجأة ويختفى في ملح البصر، فيضع جيشه أمام الطبيعة وقساوة الصخور والتضاريس الجبلية في اليمن ويفرض عليه مواجهة إمدادات المملكة البريطانية وأموال بنى سعود والقبائل البدوية التي لا تحفظ كلمتها ولا يهتمها سوى مصلحتها فلا تناصر جيش الإمام بدر الملكي ولا تقف مع ثوار عبد الله السلال ونظامه الجمهورى، وقتها كانت تصريحات المشير عبد الحكيم عامر تملأ إذاعة صوت العرب تتحدث عن الهدف الإستراتيجى من إقامة جمهورية على بلاد اليمن، وازداد عدد الجنود المصريين والوحدات القتالية حتى جاوز الخمسين ألف مقاتل من خيرة الجيش المصرى من قوات الصاعقة المصرية بقيادة العقيد كمال حسن على، المدهش فى الأمر أننا لا نملك المعلومات الكافية ولا الخرائط التى تسمح لنا بالتحرك هناك فأجهدنا سلاحنا الجوى أيضًا وكل ذلك لإرضاء غرور شخص واحد متفرد هو ونظامه بالكلمة، ويطل علينا اليوم خليفة ذلك المتغطرس بنظارات سوداء أيضًا ويدين ممدودين أمامه فيشارك في حرب تزهق فيها أرواح المصريين لكن التحالفات فى هذه المرة مختلفة قليلا، ففى ستينيات عبد الناصر كان النظام السعودى مغضوبا عليه، أما الآن فهو حليف مع الجيش الأمريكى والبريطانى!

تظل المصلحة هى الحاكمة ويظل انعدام المبدأ هو المبدأ السائد لدى

..... مساكن أهل الهوى=

كافة الأطراف، ناداني الكمسرى من خلف نظارته طالبا التذكرة، قطعت واحدة حتى نهاية الخط وأغلقت الصحيفة ومعها شباك التاريخ وذكرياته متأملا شجيرات الفراولة القصيرة على يمين شريط القطار الحديدي تهبط عليها بعض الطيور غير مبالية بكومة القش التي أعدها الفلاح كخيال يخيفها أو يمنعها الاقتراب، لو يعلم ذاك الفلاح أن القلوب التي تهوى لا تخشى ولا ترتعد فرائصها من خيال أو تهديد، القلوب التي تحب هي القلوب التي تنور، تلك التي تطير في الأفق وتخلق وسط الدروب تبحث عن حبها وتبذل النفس بنفيسها وباهظها، تلك القلوب المغامرة أيها الفلاح تبحث عن ثمرة الفراولة حتى لو وقفت أنت بنفسك مكان خيال المائة ذاك..

سلنى أنا عن ذلك، فقلبنى الذى قد يظهر لك الآن ميتا منهكا، كان قديما مسافرا طوافا يذهب بعيدا ويحب بجسارة تدفعه مراجل الحنين إلى الطيران فيقتنص صفيته التي اصطادته هي الأخرى من قبل وطوعته لحبهما فارسا وحكيما بل وجلادا يهوى بسوطه على المجتمع إذا ما اعترضهما، فلم يخف أخاها ذا الجبروت والسلطة ولم يهب سرب الضباع الذى أراد الظفر بها وكأنها جائزة صماء، عندما أيقنتُ حب صفية وقفت أمام ماهر ولم أبال بما يضعه فوق كتفه من نجوم ونياشين ولم أهتم بسراج هو الآخر زعيم الضباع، صديقه المقرب الذى انتظر خطبتها لكنه لم يطلها، لا أنكر أن ما دفعته كان كثيرا لكن ذلك كله هين أمام نظرات صفية حين أظهر بها فارسا استطاع نيل مراده ودفع ما يعوق حبهما بعيدا..

جالت بعقلي الخواطر والأفكار ودارت دائرتها المفرغة من حين
لاشتياق لألم وانتصار كما دارت عجلات القطار حتى توقفت بمحطتها
الآخيرة بطنطا..

كانت الثانية والنصف تقريباً، طلبت كوب شاى وبعض القرص
المطعمة بالسهم من كشك صغير على رصيف المحطة ومعها علبة
سجائر، أعطاني البائع كليوباترا!

يا للنصيب.. إن صندوق ذكرياتي مزدحماً للغاية والحاضر يخرج منه
مواقف حفرت به وربما المستقبل يعبث به هو الآخر، فعلبة السجائر
كليوباترا تعود بي إلى حدث مهم أرى أنه من الأفضل تدوينه بمذكراتي،
لكن الآن على الأقل أجد أن أرجح شيء هو السؤال بشباك التذاكر عن
القطار العائد للإسكندرية وبعدها تلبية نداء السيد البدوي...

دخلت عبر بابا ذي قبة وقمة بيضاوية إلى دهليز قصير منه إلى صحن
مستطيل للمسجد العريق عبرت بعد ذلك إلى المسجد نفسه حيث الرواق
المفروش بسجاد أخضر اللون وعلى الحواف خطوط حمراء وصفراء
ونقوشات إسلامية أندلسية على ما أظن وبأركان المسجد كانت الأعمدة
العالية المكسوة بالرخام والألوان الزاهية التي كست المحراب المجوف
أيضاً ومن خلفه الإيوان حيث تقام الصلوات، جلست في ركن بعيد في
المسجد ومددت قدمي والتقطت أذني صوت شيخ ذي عمة خضراء يظهر
عليه التصوف ويمسك بمسبحة خشبية طويلة لكنها رفيعة الحبات يجلس
أمامه فوق الستة أشخاص بأعمار وهيئات مختلفة يحسنون السمع حتى

..... مساكن أهل الهوى=

وإن زاغت عينه بعيدا عنهم كأنه ينظر لشيء بعيد في الأفق، اقتربت منهم وجلست بالصف الأخير، تجاذبت أطراف صوته إلى مسمعى، يتحدث في توده واحترام مخفوف بالإجلال لما يقوله دون غرور فيقول «وقد يسمى غوثا باعتبار التجاء الملهوف إليه»...

بعدها نظر إلى أعيننا وقبل أن يردف أحسست بصفاء عينيه وعلو مكانته حقا وصفاء نفسه فأحسنت السمع مرة أخرى، حتى وإن لم أفهم كل ما يقوله، وقلت في نفسى ربما يأتى دور السؤال يا موسى!
تابع الشيخ قوله: «كان السيد البدوى قطب الغوث في زمانه أجبائي، محبي الأولياء ومريديهم، والطالبن لرضوانهم»..

لا يهمنى إن كان كلام الشيخ صحيحا أو مفهوما عندى أو عند العوام المصغين إليه، لا أعلم حقا إن كان هناك أقطاب في الدين وهناك من رضى عنهم الله وكانت لهم منزلة عليا وتملكوا الأسباب أم لا.. كل ما يعنينى بالكاد أن ذلك المكان يمتلئ بالروحانيات والسكينة وبه يجد القلب راحته أيضًا، مثله كثيرًا في القاهرة مسجد السيدة عائشة والسيدة زينب والإمام الحسين وأيضًا في الإسكندرية المرسى أبو العباس وأسد الصعيد الشيخ القناوى..

لا يزيد قدر تلك الأماكن بالأضرحة الكائنة وراء جدرانها أو الجثامين الطاهرة تحت الثرى بل نجدها قبلة للمشتاقين ومحرابا للعاشقين، عاشقي الرضا والسباحة والمشتاقين للسكينة والسلو، ترتفع مكانة المكان وتزداد طهارته بدعاء الخاشعين وإخلاص النساك والعباد ودعوات الركع

والسجود، إنما يدعون لخير ويأملون لطمأنينة، يتضرعون للرحمة ويطالبون بالمغفرة، ينزعلون بتلك المحاريب عن جفاء العوالم وصراع الأكوان، فيتعمقون فى أنفسهم يبحثون عن الدرويش والشيخ، عن الولى والإمام، لكنهم صادقون مخلصون لا يطلبون الولاية ولا يطمعون فى الإمامة، فبأرواحهم الطاهرة وسرائرهم النقية وصوت المنشد وهممة المبتهل وبكاء المتضرع وابتسامة الأمل وعين الحائر ونداء المؤذن وتكبيرات لكل صلاة وتهليلات عند الإجابة ونذور تبذل وشموع توقد وبخور يفوح وعطر يدوم وقدم البناء وعبق المكان وأصالة الأحجار وشموخ التاريخ، تجد السلام والأمان دون حراس وحكام!

انحلت الدائرة المرسومة حول الشيخ تقريبا وانصرف مريدوها بين مقبل يد الشيخ وبالك على كتفه وآخر يدعو له بغزارة العلم، لم يتبق سوانا، أنظر إليه فى إجلال يخالطه شك وريبة أصبح غريزيا بداخلى اتجاه كل شىء، نادانى بصوت عطوف: أقبل ولا تدبر، إنك لآتٍ، تسأل وربما أجيب إن أراد الساقى ذو المولى..

- أنا عزيز يا شيخ..

- أنت عبد ابن عبد وأنا عبد ابن عبد..

- كلنا عبيد يا شيخ..

- ما مرادك وما سؤالك؟!

- قصر الفهم..

- أرباب الفؤاد يدركون المكنون والمستور..

..... مساكن أهل الهوى=

ضاقَت نفسى قليلاً بإجاباته التى لا تشفى غليلاً ولا تطفى ناراً ولا
تطعم ولا تغنى..

أتبع كلماته بأخرى بصوت وقور: الأولياء، ما أعظمهم عند الخالق
ذى العزة يا عزيز، ما أرفع مكانتهم فى الدنيا والآخرة، تراهم سابحين فى
ملكوت الله، ينعمون بالرضوان..

- طب وإحنا يا شيخ؟!.. خرجت من صدرى تنهيدة قوية تحمل
متاعب السنين الماضية وتابعت: إحنا الناس يا شيخ الى ضيعوا العمر فى
المواصلات، وضيعوا الأمل فى الطوابير، طوابير العيش والتأمين الصحى
والجمعية الاستهلاكية، إحنا يا شيخ.. إحنا الى ضاعت مننا الضحكة لما
اتبهدلت كرامتنا وسط الزحمة ونسينا الحرف والكلمة لما اتطعنا فى تعاليمنا
ومبادئنا، إحنا الى فى كل ركعة وكل سجدة على كتابنا هموم ولادنا وبناتنا،
إحنا الى المسكن بقى دوانا والمرضى بقى رفيقنا والعزلة بقت ونيسنا..

قاطعنى الشيخ وهو يربت على كتفى: إن الدنيا دار عمل وشقاء والصبر
يا بنى من شيم أهل الجنة، ألم ترى يونس وأيوب؟!..

- الصبر.. الصبر.. الصبر يا شيخ بقى إجبار.. بقى ضعف وذل.. ربنا
الى دايرين نقول إننا بنعبده قال إن فى حق وفى عدل وفى مطالبة بيهم وإن
ده الجهاد.. يا شيخ ربنا قال إن أعظم الجهاد قول الحق فى وجه سلطان
ظالم جائر على حقوقنا ودول ما عدتش فى أكثر منهم.. يا شيخ الصبر بقى
مسكن من المسكنات الى بناخدها زيه زى مسكن علاوة شهر مايو.. يا
شيخ أنا اتسجنت عشر سنين من عمرى ظلم معرفش عملت إيه؟!..

يا شيخ مفيش دين ولا شرع يقولى اصبر وأنا فى إيدى أثور..
- سيدنا يوسف قضى من عمره فى غياهب السجون الكثير يا ولدى
ولكنه صبر، ألم تر؟!

- تانى بتقول الصبر يا شيخ.. احتدَّ صوتى قليلاً وارتفع عن جلستنا
فغض بصره عنى صوب قدميه كاعتراض لطيف فأخفضته مرة اخرى
وقلت وأنا أمسك بيده: يا مولانا الصبر مش اختيارنا إحنا بدلناه
بالسكوت، سكوت على حقوقنا الى بتضيع وعقولنا الى بتتمحى، يا شيخ
هو الحسين مش ثار وثورته ظهرت بعد صبر، إحنا عدينا الصبر واتحكم
فينا التافهين والصوص ومحدث فينا طلعله صوت ولا ثار، ولا فينا
كربلاء ولا فينا الحسين، والسيدة زينب الى بنحلف بيها وبنجبها فضلت
العجزة واليتامى على القادرين وبذلت من خيرها وادتهم وإحنا يا شيخ
دلوقتى الطمع ضربنا والجشع ملا قلوبنا، واللى بيحكمونا زرعوا الفتن فى
كل بيت وكل شارع وكل حارة حتى هنا يا شيخ هتلاقيهم زارعين الحقد
والفتنة وأيديهم واصلة لكل مكان..

هم الشيخ بالانصراف وهممت بالوقوف لكنه ضغط على كتفى ومال
على رأسى وقال: الصبر يا بنى إن لم يتبعه عمل وحساب أصبح مذلة
وهوان وجزع.. احذروا من الجزع فإنه يغيب العقل ويميت القلب..
دلف بعباءته واختفى فى ضوء المصابيح الخافتة بالمسجد وكأنه طيف
بعيد أو شيخ أدى لتوهِ مهمة وجاءه إذن الرحيل..
عدت إلى مكاني فى الركن مرة أخرى وأسندت ظهري للحائط، لا أنكر

..... مساكن أهل الهوى=

أننى فى بعض الأحيان يصيبنى الكسل والرضا بما قسمه لى العمر واجداً الاعتراف بالانكسار والهزيمة نهاية لأفكارى وحزنى الذى لا ينقطع، وأحياناً أخرى أجدنى عزيز النفس قوياً مصمماً على الثأر تشتعل مراجل الغضب فى صدرى فىكون طريقى نحو انتقام يرد كرامتى واعتبارى، وقصاص يعوضنى عن الأيام التى قضيتها فى ظلمات وبرد قاسٍ، ناعثاً للحظات الأخرى بالخائنة التى أقف فيها على ربوة عالية بشاطئ بحر هائج، مبصراً تيار حياتى ينفصل عن وجودى فأراقبه بدهشة المتخاذل.. زادت لدى الرغبة فى الكتابة فأخرجت دفتر مذكراتى وكتبت بصفحة بيضاء فى أول سطورها «طنطا - مسجد السيد البدوى»..

وبدأت فى الكتابة عن يوم كان فيصلاً فى حياتى، فبعد عودتى مع صفية من رحلة الإسكندرية نما علم عند الجميع أن صفية وعزيز ارتبطا بوثاق الحب، ذلك لم يرق لأخيها وكان ضابطاً صغيراً فى الجيش آنذاك، لكن فى الستينيات كل ما له علاقة بالجيش له علاقة بالسلطة والجبروت ويصعب اعتراض كلامه والوقوف بطريقه، كانت ليلة الخميس فى قهوة «عبيد حنا»، وكنت جالساً فى مقدمة مقاعدها مع أصدقاء من الجامعة وشاب فى الثلاثينات يدعى أشرف الغيطى، يعمل بمحلج قطن «نواس» معروف عنه الثورية كما أنه عضو وناشط نقابى، أذكر انزعاجه الكبير وتخوفه الذى أظهره مما فعله النظام بالسيطرة على اتحادات عمال مصر ووضعه تحت ما يسمى بالاتحاد العام لنقابات عمال مصر والذى تم تأسيسه فى 1958، جاءت تلك الصدمات لتضرب العمال كما جاءت بعدها ضربات للتيارات

الديمقراطية باغتيال شهدي عطية وغلق المجال العام نهائياً أمام الجميع وإن كانت الجامعة بها القليل من الهواء الصالح للتنفس، لم تقتصر الضربات من النظام وحكومته للتيارات السياسية المختلفة والقوى الاجتماعية التقدمية، بل أنا أيضاً أخذت نصيبى من تلك الصفعات، حين أقبل شاب ذو شعر أسمر كثيف وعينين ضيقتين في وجه مثلث بعض الشيء، أبيض البشرة يتوسطه شارب منمق حسن المظهر، ظهر بحركات واثقة قوية الخطى تناسب قامته المرتفعة وكتفيه العريضين، يشعل سيجارة أخرجها من جيب بدلته السوداء ذات القميص الأبيض ورابطة العنق المخططة، مديده مصافحاً وقال: عزيز سالم؟!

أجبتة على الفور أنه أنا بلا شك، أخذنا طاولة مجاورة وعرفني على نفسه لأول مرة وجهاً لوجه «ماهر شعراوى ضابط بالجيش المصرى وحدة المدفعية، شقيق صفية، تعرفها أكيد» هكذا قال بصوت حاد وعين ت برق أكثر مما تبصر!

دعاني للسهرة بعد ساعتين بكازينو «كايرو نايتس» وأعطاني دعوة لحفل الليلة وقال إنه ينتظرني هناك وانصرف..

في نهاية الشارع الكائن به الكازينو، فندق ضخيم يتعدى الخمس نجوم للأثرياء وصفوة الطبقات ورجال الدولة من قيادات الجيش، بل عبد الناصر نفسه من رواد ذلك الفندق، اشتهر فندق مينا هاوس في تلك الآونة بتردد محمد نجيب وعبد الناصر وعبد الحكيم عامر وباقي الضباط عليه، وقد يكون شاهداً على واحدة من الليالى التي أثرت في تاريخ مصر، حين

..... مساكن أهل الهوى=

تحركت بوصلة الضباط من الحماية للامتلاك ومن الدفاع للحكم، فأطلقوا على حركتهم ثورة وأصبح كل من يعترض على ذلك المسمى أو ينادى بحياة نيابية صحية المناخ مصيره إما السجن أو البقاء تحت الإقامة الجبرية حتى لو محمد نجيب نفسه، والفضل في ذلك يرجع لنصائح بل وسائس سليمان حافظ المحامى والسياسى الذى سار في نهج السلطة الجديدة وأحسن الاستفادة منهم، وأصبحت مصر بعد مذكرته التى رفعها للملك فاروق يطالبه فيها بالتنازل عن العرش بلدًا دون دستور واختلف الساسة، منهم من مجد الحركة وأعجب بوصفها ثورة ومنهم من رآها انقلابًا وضاع رأيه وسط الأمواج العاتية إن لم تذهب حياته من الأساس، وأصبحت ثورة يقودها الجيش واصطلحوا ضمنيًا أن الشعب المصرى ساندها ووقف بجانب مجلس قيادتها الذى انعزل تمامًا فى غرف مغلقة يشرع قوانين ويصدرها دون نقاش أو حساب..

يومها لم تكن لى الجراءة فى التفكير بكل هذا قبل الموعد الذى حدده ماهر، كان الكازينو ذا هبة ووضعًا اجتماعيًا مميزًا، سلمت الدعوة للحارس على يسار الباب وأشار بيده مرحبًا، عبرت المدخل وتجاوزت صفًا أو اثنين من الطاولات والكراسى المرتبة حتى خوان زجاجي وقف خلفه عامل البار وتراصت زجاجات الكولا والبيرة بجوار الكاسات الطويلة وأوعية الثلج، والناحية الأخرى من الخوان مقاعد خشبية ذات قرص يدور لفة كاملة تمكن الجالس من متابعة الصالة والمسرح والحديث مع النادل إذا أحب، جلس ماهر على أحدهما ولوح بيده عندما رآنى، جلست بمقعد مجاور له

طلبت الكولا بينما طلب كأساً أخرى من الستيلا ملاء بالثلج، تردد كلماته في أذني حتى الآن «جميل إن صفية يكون ليها زملاء وأصدقاء.. وجميل كمان إنهم يكونوا مثقفين وواعين، بس الأجل إنهم يفضلوا أصدقاء مش أكثر..» رشف جرعة البيرة مرة واحدة وتابع «الأجل إنهم يبعدوا خالص عن طريقها» كانت لهجته قاسية صارمة كعينيه تماماً، أحسست بأنه ثعبان بالغ المهارة في التنكر وتغيير جلده، أسلوبه يتبدل من اللين إلى القاسى ومن الخبيث إلى الطيب، فهتت ما كانت ترنو إليه تلك الدعوة، فكان ردى أكثر استهزاء مما توقع، شربت من زجاجة الكولا التى قدمها إليّ النادى ونزلت من على المقعد الخشبيّ موجهة إليه نظرة لا تنم عن ضعف وخوف وقلت: «لما هي تطلب منى كدة، ساعتها بس هبعد»..

لم أنتظر رد فعله ولم أجهد نفسى في حفظ ملاحظه التى تعكرت وتبدلت بكل تأكيد، انصرفت من الكازينو إلى شوارع القاهرة أعبر بالطرقات دون وجهة، أغنى قليلاً لسيد درويش وأرفع صوتى «أنا هويت»، كأننى مخموراً ثملا من جو الكازينو ومن حديث ماهر شعراوى، أو بالأحرى أجد فى ذلك جلبا لشجاعة تثبت قلبى أمام التهديد الضمنى، لم أنم أيضاً فى تلك الليلة ولم أحكّ لأخى حسين، ظل التفكير يعبث بتلايف عقلى، أستشرق البعيد قبل القريب، وتحولت رأسى إلى فقاعة كبيرة وسط فقائيع تملأها الأفكار والحوادث والتنبؤات تندافع وتتصارع كأنها فوق جهر مشتعل..

فى صباح اليوم التالى، انتظرت صفية بمطعم الجامعة وجاءت كعادتها، وخالف ذلك توقعاتى، والأكثر دهشة أننا تواعدنا الذهاب إلى سينما

..... مساكن أهل الهوى=

ريفولى ودخول الحفلة المسائية، لكن حديثها كان متقطعاً مشبعاً بالتهديدات ذلك ما لحظته، وفي السادسة إلا الربع كنت فى انتظارها أمام باب السينما، أعطيتها وردة قطفتها من حديقة فيلا فى طريقى وأهديتها قطعة شيكولاته كرونا ذات القسمين الأبيض والبني، بدأ العرض فى السادسة، فيلم لفاتن حمامة وعماد حمدي، «لاتطفى الشمس» قصة إحسان عبد القدوس، انتهى العرض بعد ساعتين أو أكثر قليلاً، لم أشاهد ذلك الفيلم منذ تلك المرة سوى مرة أخرى أو مرتين، أحببت سينما مترو عن ريفولى كثيراً، لم أكن أشعر فى سينما ريفولى برائحة السينما كما الحال فى مترو، أكثر شىء أحببته بها صور علقت بالبهو لنجوم السينما المصرية فريد شوقى وعبد الفتاح القصرى وفاتن حمامة وإسماعيل يس، كانت صور ضخمة تشعر فيها بعظمة أولئك الفنانين، لم أتكلم مع صافية عما فعله أخوها، كل ما طلبته أن تؤكد لى أنها تحبنى، فقط لا شىء آخر، هذا وقود المعركة الذى احتجته..

لم تنطق بكلمة واحدة حتى وصلنا شارع الطحاوية، فى نهايته منزلها، كنت أرافقها إلى ناصيته وأغادر دوماً فى هذا اليوم، قالت لى أحبك قبل أن تذهب، كانت كلمة رقيقة أثلجت صدرى ليلالٍ طوال..

رأيت فى عينيها ماهر الذى يخيفها لكنها تغالبه وتنتصر لنفسها، أن تبصر التمرد فى عين اتسمت بالهدوء والوداعة، شىء يستحق التبجيل والحفر فى الذاكرة..

قلبت صفحة بيضاء أخرى فى مذكرتى وقبلها رفعت «قلة» مملوءة بالماء على فمى تروى العطش وتبلل ريقى، أعدتها إلى مكانها فوق الرف

الخشبي المثبت على جدران المسجد وعاودت الكتابة مرة أخرى، عن يوم آخر بعيد عن لحظتنا الحالية..

مدرسة الخديوية الثانوية بحى العروبة، نهائى الدورة الصيفية لألعاب القوى، نظمت وزارة الشباب ذلك الحدث فى صيف 1962 كنت خريجا حديثا، أنتظر فرصة للعمل فى مصنع نصر للسيارات، لم أكن ملاكما أو مصارعا كحال المشاركين فى الدورة، شاركتى فى تلك الدورة كانت لتشجيع ومشاهدة صديقى «محفوظ ربيع» بعد وصوله للمباراة النهائية فى لعبة الملاكمة، عندما ترى محفوظ للوهلة الأولى، جسداً ممشوق وأنفاً كبيراً متسعاً يساعده على ملء صدره بالأكسجين أكثر من الآخرين، له يد تشبه قبضة عسكرى الدرك، تدرك أنه بطل أوليمبى دون منازع، لكن منافسه هذه المرة لم يكن تقليدياً فهو شاب وسيم منمق أطول منه قليلاً تتوزع أليافه العضلية بانتظام بين الصدر والساعدين وله مشجعون كثر ومشجعات فانتات ينادين باسمه كثيراً، ضابط شرطة صغير السن وحسن المظهر، أظن ذلك كفى..

اشتعل نزال آخر على مقاعد المشجعين، فصفية لم تأت وحدها، صاحبها ماهر، الصديق المقرب لسراج فكرى، ماهر أيضاً له جمهور من الفانتات، جلسوا جميعاً يهتفون لسراج مجاملة، معظم مشجعي محفوظ كانوا طلبة الجامعة، من أصدقائه وزملاء الدراسة، أدهشنى وجه ماهر الذى لم تتغير ملامحه برؤيتى وكأننا نلتقى للمرة الأولى، لم يخبر صفية بأى شىء دار بيننا وأنا أيضاً لم أخبرها، عرفتني عليه، قابل ذلك بابتسامة ساخرة وسؤال

..... مساكن أهل الهوى=

مباشر عكر وجه صفيه وأثار تدمرها: هتشجع مين يا بشمهندس على،
صفية طبعا هتشجع ابن خالتها سراج وأنت؟!
قاطعتنا صفيه بلهجة تنم عن استياء ضمنى: أنا ماليش أوى فى الملاكمة
يا ماهر، أنا جاية أغير جو..

- يعنى هتشجعى مين يا صافى؟!!

- ما بحبش الاسم ده يا ماهر قولتلك قبل كده، بعدين محفوظ زميلى
برضه، أنا هبارك للكسبان و«هارد لك» للخسران..
ابتسم ماهر مطلقاً همهمة خبيثة وأدار وجهه إلى الحلبة مباشرة متجاهلاً
وجودى ولم ينتظر إجابتى أو تعليقى..

- لو أنا واقف مكان محفوظ، هتشجعى مين يا صافى؟!!

قلت ماكراً مثيراً لانفعالها بهذا الاسم، أيقنت بعدها أن آخر شيء تفعله
أن تستفز فتاة يظهر للجميع لطفها ورقتها لأنها تنطوى على بركان يرسل
حممه فى سخرية فقط إذا كنت من سعداء الحظ..

- لو كنت مكان محفوظ كان زمانك بتعد النجوم مع أول بوكس
من سراج، ماكش هيفيدك تشجيعى ولا صوتى.. قالتها بلهجة منتصرة
وابتسامة ساخرة ثم تابعت: ما تقوليش صافى تانى!

فاز سراج يومها وفاز ماهر والفاتنات، لكن محفوظ لم يخسر من
وجهة نظره فباستطاعته المره القادمة الفوز هكذا قال، أيضاً المكافأة المالية
لصاحب المركز الثانى هونت عليه كثيراً، صفيه لم تفرح لسراج بل على
العكس كرهت غروره وعجرفته وأنا كرهت الصلف الذى امتاز به ماهر

أخوها...

وضعت عنواناً للفقرة «هتشجعى مين يا صفية؟!» وأغلقت الدفتر،
حان وقت المغرب هكذا أعلن المؤذن وبدأ وفود الكثير إلى المسجد..
يغادر القطار فى الثامنة والنصف، لكنه ينتظر فى المحطة من الثامنة
تقريباً، تناولت عشاء يشبه وجبة الفطار قليلاً..

اتكأت على مرفق الشباك وأطلقت لنفسى الخيال بعيداً، أشعر بآدميتى
كلما تخيلت، أننى قضيت أعواماً من السجن ذى الجدران العالية ولم تخنق
خيالى أو تكتم تفكيرى، كل ليلة قبل النوم أرسم حياة أخرى بعيدة عن
البدلة الزرقاء وأرقام المساجين وصوت المزلاج ونعيق الشاويش وأيدى
العساكر، كانوا حيوانات عديمة العقل فى نظرى لا يستطيعون تربية شىء
سوى شواربهم، يزجرون عند رفض الأوامر وتعتاظ أعينهم وتتلون
بالحمرة حين يجلدون رءوسنا مرتفعة لا يهمننا السجن فنحن نملك خيالاً
يفرق بيننا وبين الحيوان، وقتاً كبيراً نقضى فيه الليل بالحبس الانفرادى أو
بالعنبر، وأيضاً نحسن الغناء ونحب الحياة على طريقتنا.. نرسم على سور
الزنزانة قفصاً مكسوراً نخرج منه أحراراً نحلق فى الأفق، نرسم مباراة بين
فريق يرتدى قمصاناً زرقاء وآخر يرتدى الكاكى لكن رءوسهم..!

برع رسامنا وكان قصير القامة نحيف الجسد يضع طباشيراً أبيض
فوق أذنيه دائماً لقبناه بالصغير، يجعل من رءوسهم ماشية ودجاج وكلاب
وأحياناً ثيران، واختص الصول زكريا بالفأر، دائماً كان يراه فأراً، يقترب
منا ويعرف أخبارنا ويوشى بها لمدير السجن، كنا نعلم ذلك ونجد فيه

تسلية..

غفوت قليلاً وصحوت على صوتها تجلس أمامي في عباءة سوداء
التصقت بجسدها فأظهرت جمال نهديها وحجابها غير المعقود انساب مع
شعرها الأصفر - رأيته تحت ضوء مصباح عربة القطار- والعلكة في فمها
تخبر أنها غير عادية، لا تعتاد السفر إلا لغرض، وضعت قدمًا فوق الأخرى
وأشعلت سيجارة من علبة سجائر أخرجتها من حمالة صدرها، ظهر شق
نهديها أمام عيني، فتبسمت ولا شك أنها أدركت، أخرجت سيجارة أخرى
وأعطتني إياها، لم نتحدث حتى الآن!

- أنا نازلة سيدى جابر.. عندى شقة ووحداية..

انطلقت فى ضحكاتى وشعرت بتلذذها، أمثال هؤلاء يعجبهن المزاح
أكثر من أى شىء آخر، يا لها من لعب!

تابعت بصوت ارتسمت فيه الجدية: ما باخدش كثير، ولوعجبتنى
نعمل اتفاقاً.. قلت إيه؟!

- لا، الاتفاق ده أتأخر عشر سنين..

- ليه أنت فصلت؟!، قالتها وهى تغمز بعينيها..

فاستكملت ضحكى منفثاً دخان السيجارة فى وجهها مما أزعجها قليلاً
وقلت: أنا جيت أصلى للسيد البدوى..

صدرت عنها زمجرة صحبتها تنهيدة وصوت آخر لم أفسره: مدد يا
سيدنا.. مدد.. وتابعت باستنكار: يعنى مالکش فى الطيب؟!

هبت واقفة وظهر جسدها المشقوق، يذيب الصخر وليس الجليد

..... مساكن أهل الهوى=

فحسب ربها لمسه يعيد العمر عشر سنوات إلى الخلف، فما بالك باحتضانه
وقضاء الليل في ربوعه!

- ما أعطلكش يا شيخنا، قالتها بسخرية!

- أنت اسمك إيه؟!

أصدرت ضحكة خافتة لا تخلو من مجون: أسامى كثير يا عنيا، سمينى
أنت يا أبو الولاد.. قالتها وانصرفت وتابعتها حتى توارت عن نظرى..
وظلام الليل ونور الصباح إنها للمليحة تعيد الشباب وتُجبرّ العظام، لا
عجب أن يقال فى مثلها ما يقوله الشعراء..

«غراء فرعاء مصقول عوارضها.. تمشى الهوينا كما يمشى الوجى

الوجل»

لكنها غانية خليعة لا قلب لها ولا ضمير فاقدة للروح والمعنى لا قيمة
لحبها ولا شبقها، لا تروى عطش القلوب، مآلها السقوط مقطعة ممزقة
الجسد والقلب، تحت أقدام المعربدين..

ارتفع صوت الضجيج من الغرفة المجاورة، مقعد يسقط فتنكسر
إحدى أرجله يتبعه ارتطام آلة كتابة قديمة بالأرضية محدثة جلبة أعلى
وصوت ثقيل ملبد بالغضب يأتي من ضخم الجثة الواقف بباب الغرفة
يسد فراغ بابها، يرتفع شاربه الغليظ مع كلماته البذيئة التي تنهر سميرة
الواقفة لا تقدر على الحراك وكأن يديها مربوطتان وعقلها غائب في عالم
آخر، تناثرت أزرار الماكينة يميناً ويساراً وكسر ذراعها الحديدي وظهرت
بقعة سوداء أسفلها تخبر أن مستودع الخبر لم يعد بحالة جيدة، ضرب المدير
البغيض كفاً بكف وضربها أيضاً بالحائط وصفها بالمستهترة وقليلة الفهم
ووصف الجميع بقلّة الضمير!

هبت فتاة رشيقة القوام، طليقة الشعر ذات بشرة بيضاء تقطن بها
مسايق التجميل وطلاء للشفاه فاقع لونه، اتجهت نحوه في خطوات
سريعة أظهرت التصاق تنورتها الشديد بالمؤخرة والسيقان، أخذته من
يده الممتلئة وخرجت به إلى مكتبه معتذرة وبلهجة حلوة تلتف الأجرؤاء
فتلقى باللوم علينا تارة وتارة أخرى تعدّه بإصلاح ما تلف..

سادت لحظات من الصمت ونظرات متبادلة بين عاملات المطبعة
يميناً ويساراً وإلى الآلة المحطمة..

مرت تلك الدقائق الثقيلة وسرعان ما عاودت الأصابع حركتها

السابقة فوق الحروف المعدنية وعاد صوت الآلات النظامي للعمل
وحركة الورق..

توجهت إلى سميرة نللم سمياً حطام الآلة وننظر إلى ما يمكن
إصلاحه..

لم يتغير الوجوم علي وجهها ولم يبدل السكوت حاله فقط تنظر بعين
تزيد الدموع الحبيسة بها، دقائق أخرى ثم عاد من جديد صوت الفتاة التي
كتبت للمشهد الأخير نهايته: خلاص يا سميرة يا حبيتي حصل خير،
الأستاذ نشأت قلبه كبير وهيبعت المكنة للتصليح علي حساب المطبعة..

ابتسمت بدوري لصوتها العالي وحركاتها خفيفة الظل، وصل كلامها
للأستاذ نشأت ولاشك أن بطنه انتفخ وزاد اعتداده بنفسه..

«خلاص يا بنات عدت، بس ممكن الحوافز يخصم منها» قالت نجلاء
وهي تركز على ركبتيها تساعدنا في جمع القطع ومسح بقعة الخبر..

- شكراً.. قالت سميرة باقتضاب، سبب ضيقاً وضح أثره السريع في
وجه نجلاء..

- تاعيينك معانا يا نوجا.. حاولت صبغ الجو بروح من المداعبة لكن
ذلك لم يرق لسميرة التي انتفضت قائلة: مش محتاجة حد يساعد ولا بتعب
حد معا.. ثم جذبت الذراع المعدنية من يدي بقوة وألقته فوق مقعد
مجاور وأشاحت بوجهها عنا بعيداً..

وقف ثلاثتنا بعد تنظيف فوضى الأرضية المتسخة، وضعت يدي على
كتف سميرة وقلت في عطف: خلاص يا سميرة.. عدت..

..... مساكن أهل الهوى=

- ماتحيكهاش يا ست.. قالت نجلاء بمرح تبعته بحركة من يديها جذبت بها خدى سميرة وتابعت: هو حسن هنا وفي البيت.. ياعينى على الحب وسنينه، والله شكله يعطل ويأخر، ولا صحيح هو شكله إيه الحب ده يا بنات؟!

تدخلت هناء، فتاة أخرى تعمل معنا فى المطبعة قصيرة القامة لها غمازتان تزيدان حسنهما حين تبتسم، وقالت: الحب شوق ولوعة ونار ومكنة بتتكسر يا أختى عشان عقلنا مابقاش فينا.. ارتفعت وتيرة الضحك بيننا قليلاً حتى سميرة تورد وجهها بضحكة مكتومة أفصحت عنها عيناها وقالت: أنا آسفة يا نوجا، اتعصبت عليك، بس قوليلي هو نشأت قالك إيه؟!

- هو ما قالش..

- إزاي؟!

تجهم وجهها قليلاً وقالت بصوت خفيض: عادى يا سميرة، الأستاذ بيعرف يهدى إزاي.. الموضوع عدى يعنى وكل حاجة بقت بخير.. فهمت ما قالته وما أخبرت عنه ملامح وجهها المقبوضة، فذلك التصرف ربما كلفها لمسة فى منطقة ما أو مسك لجزء من جسدها وربما كلفها أكثر من ذلك، فمثل ذلك الشخص لا يعطى القليل إلا لو أخذ الكثير وأرضى طمع وشهوة غرائزه.. «مسكينة نجلاء» قلت فى سرى!

فطوبى للبنات اللواتى ييكن فى حمامات الفنادق ويمسحن أيديهن من

لمسات زبون متنفخ الجيوب متحرش قليل المروءة، فلا يجدن الشكوى ولا تنفعهن سوى الدموع..

طوبى للواتى وضعن أجسامهن ستارة ومن خلفها أكوام لحم تصرخ حين تجوع فيهن نهش الأجساد عن الصراخ..

طوبى لهن وإن رأين يداً تتسلل تمسك بالفخذ وأخرى تمسك بالذراع، فامتنعن حتى ضاقت بهن سعة اليد وقلة الحيلة فخروا باكين..

طوبى للبنات حين تصبح فتاة وعلى فجأة امرأة ويجعلها المجتمع ستاً!، وقلبها ضعيف لم يعيش أطواره ولم يرُ نحو أحلامه ذراعاً واحدة..

طوبى لكن أينما كنتن، في المصانع وعلى جنبات الرصيف وقارعة الطريق، في البيوت سيدات وخادمات في المدراس معلمات وطالبات، طوبى لضحكات ليلية فوق الشفاه، طوبى لكن وإن أنهكن التعب والسهر وآلامكن..

استيقظت حنجرة سميرة مرة أخرى قائلة: ما تيجوا نتمشى بعد الشغل النهاردة حبة يا بنات..

- كان نفسى.. بس عاوزة أروح بدرى لأمى وأختى.. قالت نجلاء:
- مفيش مشكلة يا سميرة، نخرج وناكل حمص الشام كمان بعدين تروحينى أنا فى طريقك يعنى.. قلت متفحصه عينها العسليتين..

انهمك كل من بالغرفة فى عمله مرة أخرى وغاص الجميع وسط أصوات مألوفة تنبعث من الراديو أو آلات الكتابة وماكينات الطباعة..
وعند انتهاء الدوام خرجت مع سميرة وعلى كورنيش النيل أوقفنا

..... مساكن أهل الهوى=

بائع حمص الشام طلبنا زيادة الشطة والليمون ودفعت سميرة، وعلى مقاعد خشبية جلسنا مولين ظهورنا للطريق وعيوننا تمتزج بتموج النيل وترنحه في وسط القاهرة، يسرح من الصعيد بحريته ويرسم في الشمال مروحة تكدسنا بها، جعل منها دلتاه وجعلنا منها سكننا، لكنه رءوف رحيم، يحمل يحنًا فاخرًا ينطلق من المعادى إلى الزمالك ولا يعترض على مركب صغير للصيد يعبر من باب اللوق إلى المنيل..

استبقت سميرة إبداء الرأى في الحمص: الشطة كترت، على هواكى ده مش كده..

- عاملة إيه يا سميرة؟

- تعبانة أوى.

- مالك؟!

- أنا حامل والوقت..

دبت السعادة في وجهى واتسعت حدقتى حد المستطاع وقاطعتها بلهجة فرحة: يا سلام يا سلام، هتبقى أم يا سمسم..

لم تلتفت لكلماتى وتابعت: الوقت صعب وحسن مديون وده معناه أنى هقعد من الشغل..

صُبغ الجو بصمت خاص وترقب قطعته حشرة محرك سيارة حاول قائدتها إيقافها قبل الارتطام بعتبة محل «فروزين» للمثلجات، عدت إليها مرة أخرى بصوت حنون أخبرتها أن الأمر ليس بذلك التعقيد لأجدها جاهشة بالبكاء، ترك لدموعها البراح فوق خديها فتنهمر كقطرات

ندى صباحية فوق أوراق نباتية خضراء يانعة، سردت في لحظات قليلة وميضاً من حياتها منذ طفولتها وحتى الآن وكأنها تمسك بفيلم كاميرا الفوتوجرافيا، تسحب بيدها المكوك الداخلى للفيلم، فتظهر صورة فى الخامسة تستعد معها لدخول المدرسة تحتال خلف رأسها ضفirtان سرعان ما تحولاً لواحدة كذيل الحصان مع بروز نهديها كفتاة تشعر بتغيرات فى جسدها تبدأ مراحل أنوثتها فى الثانية عشرة فتأتى صورة أخرى لعريس وآخر يطرق باب المنزل ويفحص محتوياته ويتفحصها فى سن السابعة عشرة وتضىء صورة أخرى بطلها حسن بشارب صغير رفيع كخط منقوش ووجه تبرز عظامه قليلاً، ينتظرها أمام باب مدرسة السعيدية التجارية للبنات، وتفتح لها الشوارع الأحضان وتسير رحلة الحب والسعادة ويصل قطارها لمحطات الزواج والآن أطفال، نظرت إلى عينها وهى مستغرقة فى السر دلدت دموعها ببريق خاص يناسب سواد شعرها المنساب حرّاً على كتفيها، أخذت شهقة كبيرة أملأ بها رئتي بهواء المساء وقلت فى تنهيدة: يا بختك يا سميرة، ده مش كل اللى حب طال..

- يلا عشان ما نتأخرش، يدوب حسن يكون وصل دلوقت بعد درس المغرب..

- درس إيه؟!

- درس دين فى جامع البركى مع الشيخ رجب السروجى..

- آه.. ربنا يكرم..

- بكرة إجازة.. ما تيجى تقعدى معايا يا نجاة..

..... مساكن أهل الهوى=

- في شغل بس هيروح الجمعية وطلبات هنسهر عليها النهاردة .. بعد ما أخلص وأنا راجعه هعدى عليك ..

قطعنا طريق العودة إلى منازلنا نتحدث بعيداً عن الذكريات أو تفاصيل الحياة اليومية، يدور الكلام في أروقة مفرغة عن الازدحام والموضة والسينما أحياناً والممثل الوسيم وآخر ضخم الجثة ..

أكثر من ستة فساتين انتهت أُمى من حياكتها، أحدها يتخطى الرقبة والآخر ذو فتحة دائرية عند العنق، وأكثرها صنعة ومهارة مزركش له ألوان كثيرة تجاذبت خيوط الأحمر مع تمويجات سماوية وسط سحبات زرقاء ودوائر خضراء صغيرة فوق خلفية بيضاء أو سكرية اللون، له سحب خلفي يبدأ من أسفل العنق وحتى نهاية الظهر تقريباً وله ياقة بيضاوية مرتفعة قليلة، هناك أيضاً بلوزات قطنية وقميص زهرى وآخر لم يكتمل فاقع لونه ..

جميعها تنتظر لمسات نهائية تثبت للسحاب أو تركيب للأزرار ثم كى وتغليف، أتولى ذلك العمل مع أختي الصغيرة، نعد أقداح الشاي ويؤنس ليلنا نغم المدياح وقصص أختلقها بالكامل أو أغير أسماء أبطالها الحقيقيين فقط أحكيها لأختي فأنقل لها خبرة أو موعظة تعلمتها ..

صنعت أُمى فستاناً نمائلاً للمزركش جميل الألوان، أهدتني إياه، استقبلته مسرورة سعيدة، فهدايا الأم صادقة لا تأتى إلا عن حب، أخبرتني أنها دفعت حق القماش للجمعية علي داير المليم - علي حد تعبيرها! في الصباح .. قرابة التاسعة بعد تناول الفطار وتلاه كوب الشاي

أحسننت هندامى وتأنقى أمام المرأة المصقولة جيداً إلا من جزء علوى
وآخر فى الركن الأيسر ظهر عليه القدم..

حملت الحقيبة على ظهرى وقصدت جمعية بداية بشارع الملك العادل
وسط حي عين شمس..

وجدته فى غرفة المدير يجلس على المقعد الملاصق لمكتب رئيس مجلس
الإدارة، يضع يده اليسرى بجوار قطعة رخامية ملساء تحمل اسم من يجلس
خلف المكتب على مقعد جلدي مرتفع بوجه ممتلىء اللغد تحت ذقن مثلث
وأنف غليظ يرحب بالمقبلين ويتمني السلامة للمدبرين، لم تتغير لهجة
أستاذ محمد مهني كثيراً عن تلك التي اعتاد إلقاء الندوات بها، انفرجت
أساريره بشده عندما رأيته وانتفض من مجلسه يمد يده مصافحاً من خلف
المكتب وكذلك الشاب فى الناحية الأخرى اعتدل بل وقف راخياً بصره،
تعرفت عليه بشكل رسمى للمرة الأولى، أظنه لا يعرف اسمي ولا يعرف
أيضاً أنها ليست أولى حلقات تعارفي به، ويجهل أنه ضيف على أحلامي
وكثير التردد علي البال، كل هذا يفعله دون علم منه أو دراية..

جلست بالمقعد المقابل له وقلت فى هدوء: تشرفنا يا أستاذ على..

- الشرف موصول لي يا آنسة... قالها بود صادق..

تحدثنا معا عن الجمعية وشاركانى الحديث، أطلق عليها على «تعاونية»
لم يعارضه الأستاذ مهني، تعاونية بين أفراد الشعب بمختلف توجهاته،
لها أنشطة تمس الأسرة كوحدة مكونة للمجتمع وتتعلق بالشباب كعضو
فعال بالمجتمع يقع على كاهليه عبء البناء...

..... مساكن أهل الهوى=

حاول على توضيح ما يقوله الأستاذ مهني، حين يتكلم ينظر مباشرة في عين محدثيه وهذا جعلني أحسن الاستماع والإصغاء لما يقوله، التعاونية تأسست منذ سنة ونصف بجهود ذاتية زادت أنشطتها بين تعليم القراءة والكتابة ومحو الأمية وتشجيع الصناعات الصغيرة للأسر المنتجة وعرض منتجاتهم في أسواق استهلاكية تفيد محدود الدخل، ولها نشاط ثقافي في صنع كوادر مجتمعية قادرة على مواجهة التخلف، تنظم ندوات لأدباء ومتقنين وتوفر كتبًا في الفكر والأدب وتنظم مسابقات شهرية بين الموهوبين، ظل يتحدث بشغف وسعادة عن أنشطة الجمعية وظلت عيناى تراقبه وعقلي يسجل ما يقوله وقلبي يخفق بشدة كلحظاته المراهقة التى لا يستكين لها عقلى، لكن الأمر اليوم مختلف!

قطعه الأستاذ مهني مستغلاً إعجابى بأنشطة الجمعية وقال بصوت شملته حماسة كبيرة: إيه رأيك تنضمي للجمعية يا نجة، يبقى مشاركتك أكبر من المنتجات اللي بنعرضها..

آخر مرة قابلت الأستاذ عرض عليّ المشاركة بمشروع الأسر المنتجة وتوفير دخل إضافي بماكينة الخياطة، أسعدني ذلك، لكن سعادتي الآن تضاعفت..

لا أعلم.. هل زادت فرحتي بمشاركة الأستاذ وعلى عملاً يقومان عليه؟!

أو زادت لشعور بإثبات الذات داخلني يخبر بقدرتي على خلق كيان لشخصيتي يدفع في بناء المجتمع ولو قالب طوب واحداً؟!

جذب انتباهي سعال علي المزوج بكلمات أحببتها «لازم تنضمي للجمعية ويكون ليك دور كبير كمان ..»

فور انتهاء اللقاء على نحو راق للجميع وأمل بلقاء قريب، حركتني طاقة كبيرة سارت بدمي فهبطت الدرج من الدور الرابع للأرضى بسرعة أقفز كل سلمتين أو ثلاث، وفي الشارع كانت بسمتي واضحة للجميع، تذكرت سميرة وموعدها..

فتحت شراع الباب تتأكد من هوية طارقه قابلني وجهها بابتسامة، تبادلنا قبلتين على الخدين، فسحت لى بجوارها على كنبه تنصدر صالة صغيرة وأمامها طاولة دائرية ذات قرص زجاجي استقر بمنتصفها فازه ملونة ومبخرة من الفخار..

ربت على كتفي مرحبة بقدومي وقالت: هقوم أعمل اتنين شاى وأدوقك الكيكة اللي عاملهاها..

تمزيق للأحلام السعيدة، ضياع للأمانى المثيرة، غروب لشمس الحب، خفوت لوهج الشوق، سحابات من الكآبة تسيطر على عينيها وإن أخفتها بأفلام الكحل زادت وضوحاً، تمشى متلكعة تجر خلفها أقداماً مرهقة وتغطي ذراعيها بشال قطني باهت لم تعد سميرة تحسن الغناء، لا تقدر على متابعة النغمات، لن يستطيع لسانها مجارة عبد الحليم في «صافيني مرة» ولن تنطق شفتاها مع نجاة «أما براوة»، ستذوب أوتار صوتها مع هموم فرضتها حياة جديدة لم تعد لها العدة، بين أوانى المطبخ وملاءات السرير المتسخة، وأكوام غسيل مكدسة، وطفل يتكون في أحشائها شهوياً

..... مساكن أهل الهوى=

قليلة ويصبح أمام عينيها يبكى ويصرخ ويتغوط يمينًا ويسارًا، ألم يكن بحسبانها كل هذا؟!

لكنها تزوجت من أحبت وعشقت لسنين طوال فما بال من ذاق الحب ولم يصل وما بال من انتقلت كالمناجى من بيتها إلى بيت رجل آخر بورقة وشهادة اثنين وإمضاء مأذون!

لم يعد حسن شاطرها وبطل روايتها، انتهت فصول الرواية وبدأت فصول أخرى لقصص قصيرة تبدأ كل صباح وتنتهى عند المساء منهكة القوى متعبة ضائعة على فراش أصم، قد يتحرك قليلًا يرتفع وينخفض إذا ما احتاجوا لقاء ليليًا عابرًا ينتهى فى دقائق يتبعه حمام بارد ونوم..

لم تفصح سميرة عن تلك التخيلات التى تدور بعقلها لكن أرى فى عينها أكثر، أقبلت ممسكة بصينية دائرية وعليها أبريق الشاي وسكرية من البلاستيك، سألتها عن صحتها وعن الحمل وعن حسن وعن بالها وعن أخيها..

جاوبت وهى ترفع رأسها تضع كوب الشاي أمامى: أخويا مستنى الترحيل للكويت مع القوات المسافرة الحرب..

شهقت وضربت على صدرى وهالنى ما قالته وجرى لسانى بآيات وتعاويز، أستعيز من نار الحرب وأدعو بالرحمة والسلامة لكل من سافر، لم تتغير ملامح وجهها فالخبر عندها منذ فترة استغرقت فيها حزنًا كافيًا وريبة وخوفًا وهلعًا كبيرًا، أما الآن فهى تردد دعوات أن يحفظه الله وترجو السماء بحسن الطالع، وأن يعود سالم اسمًا وحالًا!

أما حسن وتبعه حالها وتبعه المولود المنتظر قدومه فهو أمر استدعى تنهيدات عميقة من صدرها تبحث عن مكان واحد في الأرض تشعر به بطمأنينة وتنعم فيه براحة البال، أخذتها من ذراعها إلى الشرفة تنتفس هواء جاريا نقيا ونلوذ بساعات العصارى، أتيت على ما في قدح من شاي بارتياح ووقفت جنبها ناصبة قامتي وإن بدت قامتها أكثر طولاً، ذهبت ببصري بعيداً إلى الخلاء بينما استقرت مسامعي بين شفيتها تلتقط ما تقوله، يسيطر الخلاء على المكان فتبدو الشرفة من بعيد وكأنها جزيرة صغيرة ترامت على يمينها مقابر بعيدة وعن يسارها حي مأهول بالحرفيين وأمامها بعيداً على حدود النظر صحراء يبدأ عندها المقطم، بدا صوتها يافعا مسترسلا في الحديث يتخلله صوت رشقات الشاي وقضم قطع الكيك، وممصصة شفيتها، قطعها عندما تراءى أمامي فتاة صغيرة تملأ وجهها ضحكة تصل من الأذن للأذن وخلفها صديقات يهرولن خلفها يحاولن عابثات اللحاق بها فتبهاهي بسرعتها، قلت في لهفة: فاكرة يا سميرة حارة عبد المعبود ودرب البقالين، فاكرة الشيخ عطية الموجي ..

ارتسمت بسمة باهتة على شفيتها سرعان ما تبدلت لضحكة عالية عندما أردفت «شد العمة شد» فرددت بسعادة «تحت العمة قرد» ..
جلسنا بأرضية الشرفة تتمايل رءوسنا من الضحكات العالية ويتبعها صوت تصفيق يد على الأخرى ..

وكان غصة قد أصابت حلق سميرة نمت عنها شهقة وتعجب ممزوج بمرارة وقالت في سخرية: هيبقى عندي في البيت الشيخ حسن!

..... مساكن أهل الهوى=

مدت ساقها البيضاءين فوصلت لعقب الباب، وضعت كوب الشاي جوارى وأسندت رأسى إلى السور، ترك حسن ستديو التصوير وعمل بمحل عطارة فى شارع الأزهر وأطلق لحيته واتخذ من المسبحة صديقاً وأصبح ليله مع المشايخ ونهاره فى العطارة، كل شىء أصبح حراماً يحتمل شبه الحلال، فهجر سميرة فى مضجعها حتى ترتدى النقاب وربما يطلب منها ترك العمل بعدها، أصبح يلبس القصير ويقص الشارب ويضع فوق رأسه طاقية بيضاء قطنية، واتخذ غرفة من البيت للخلاء بنفسه امتلأت بكتب الألبانى وابن عثيمين، أحرقت الشرطة الفيديو وأفلام التصوير وصوراً فوتوغرافية لطالما تباهى بموهبته حين التقطها، غابت عن لسانه كلمات الحب وزادت عليه الفتاوى وكلام السابقين فأصبح يردد قال الشيخ فلان ونهى الإمام علان..

لم تنفر سميرة من تلك الحالة فهى لا تكره التدين لكنها تكره مظاهره، تكره التظاهر، لا تحب الكذب، إن كان حسن صادقاً فمن أوصله لتلك الحالة يكذب، من فرض عليه لبساً معيناً ونمطاً معيناً وعملاً معيناً بقوة الدين هو كاذب لا محالة!

كيف تصبح حياتنا حراماً ونحن لم نسرق ولم نقتل ولم نتاجر بعرض ولا معقدرات ولم نأكل رباً ولم ننصر ظالماً؟!

لم أعلق ولم أقطعها تركتها تسهب فى كلامها وتخرج ما كتبه صدرها المسكين، ذرفت دموع عينيها وهى تندب حظها، فحسن الذى حكى لها كثيراً عن حبه لها وعن شغفه بها، يستغفر من كل هذا الآن ويدعوها

للاستغفار فكل همسة ولمسة قبل الزواج هي جرم، أى لباس شرعى
يأمرها به؟!

كيف للشرع أن يتحمل الأمر؟!

كيف للنفس أن تتحمل الأمر؟!

تلبس نقابا وجلابابا أسود ولا يرتفع لها صوت وتجلس فى منزلها تربي
أولاده وتتلقى شهوته ليلاً وينتهى بها المطاف كمقعد أو باب فى البيت..
هل يأتى النقاب بالأمر وهل يأتى الحجاب بقوة الهجر، لا تُجبر حرة
على ارتداء أو خلع شيء ولا تضطر لترك عملها وفقد كيانها حتى لو
كان العمل لا يدر دخلاً كبيراً فهو يصنع لها وجوداً داخل المجتمع، بئس
أفعالنا حين نأمر!

أين الفرق بالقوارير أمام لحيتك وسبحتك!

هاكم حسن!!

لن أصبح يوماً سميرة حتى لو كان ذلك أمراً من القلب وإذعاناً
بالحب، لن يجبرنى ظرف ولا شخص على فعل ما يرفضه عقلى، لا أعلم
أتلك الأشياء حقائق أو خرافات، لكن ما أعلمه أن حكم الإنسان على
الإنسان هو الظلم والتجبر، والجهاد حقاً هو جهاد عقل وإقناع!
ماجت وهاجت خواطري بتلك الأفكار، حتى خرجت من منزلها
عائدة إلى بيتى ونفسي نائرة متمردة..

تحرك البيدق الأبيض خطوتين للأمام معلنا بدء نزال إستراتيجي تقوده البيادق ورفاقها ومن خلفهم الملك والوزير، القطع السوداء لجمال والبيضاء لسليم، لم أعتد اصطحاب جمال لنادي فلورال فالجو لا يناسبه، هذه المرة من القلائل التي طاو عني فيها علي المجيء، بدأت مقارعة أخرى خارج الرقعة بين اللاعبين تبني الأول الدفاع عن الاشتراكية بينما الآخر رأى في الرأسمالية واحة أشد رفاهية وأماناً وانتظرت أنا بينهما لا أبدى رأياً أنتظر ماجي، تطل بزبتها وبصوتها ورائحتها فترضي قلبي وتنعم بها عيني..

قطع دور الشطرنج نصف الساعة الأول والحركات حذرة على الرقعة والنقاش محند خارجها فدفاع سليم عن «دعه يعمل دعه يمر» لم يكن أقوى من دفاعه ببيدق عن حصان جامح فقدته لتوه بحركة من فيل يمسك بالقطر الأسود ومن بعدها سيكون الخطر على الملك وشيكاً من رخ عنيد إذا ما هاجم البيدق الفيل المغامر، أشعل سليم سيجارة وتبعه جمال بأخرى، نظر سليم إلى الرقعة وكأنه يحصى مربعاتها السوداء والبيضاء يتأكد من كونهم أربعاً وستين وقال تستطيع في الرأسمالية أن تملك مصنعاً يعمل به آلاف العمال جميعهم يحلمون بامتلاكه يوماً ما، تلك قيمة التنافسية يا صديقي..

تبلورت إجابة في رأسى لكنى انتظرت جمال الذى فغر عن فيه
وخرجت ضحكة ساخرة حاول عبثاً كتمها وقال بصوت شابته السخرية
أيضاً: عظيم عظيم يا بشمهندس..

انزوى فى مقعده ممسكاً ببندق لسليم رافعاً إياه عن الرقعة مفسحاً
الطريق أمام حصانه ليقف مختالاً بالصف الخامس بينما تلملت ونال من
أوصالى الانتظار، جاء رد جمال منمقا مفعماً بالحماسة أيضاً وافقته عليه؛
تستطيع حقاً أن تحقق من امتلاكك للمصنع فى الرأسمالية ثورة طائلة،
تعتمد على فاقد القيمة ومعها تهرب بارع من الضرائب يعينك عليها
محاسب ماهر، فتصبح سيداً عظيماً بالغ الثراء، اترك أمر العمال وشأنهم
وانتظر مجاورة وزير سعيد أو مصاهرته أيهما أفيد للمصلحة اسلك
شريعته!

أخذ جمال من سيجارته نفثاً آخر وأردف: «العمال وقد أنتجوا من
سواعدهم سلعة تعادل العشر جنيهاً، كافأهم قوانين الرأسمالية
بنصف جنيه، فكيف لهم أن يحملوا وهم فى نومهم مجهدين؟!»

استمر الحديث بينهم يميناً ويساراً وراقت لقلبى صورة انفصلت بها
عن جداهما، أقبلت ماجى فى بنطلون أسمر وبلوزة زهرية وشعر قصير
قُص لتوه ليعطى شكلاً جذاباً رائعاً وابتسامة ملأت وجهها، تمسك بيدها
جرباً أبيض لضرب التنس على ما أظن..

ألقت بسلامها وعبرت بيدها بين راحتى فأحسست برعشة فى
جسدى أتوق إليها كل مرة أراها، لم تمكث معنا أكثر من عشر دقائق

..... مساكن أهل الهوى=

وغادرت غير مبالية للقلب الذى انتظرها فوق الساعة بل أكثر، للقلب الذى أُمِّل الحديث معها منذ صباحه، للقلب الذى زاد ضياؤه حين رآها والآن خفت ذبالات نجومه!

غادرت إلى الردهة الخارجية ومنها إلى ملعب التنس قابلت صديقات أخريات، انصبت عليهم كراھيتى، والجزء الأكثر من كراھيتى كان لذاك الواقف بقبعة بيضاء وزى رياضى صافحها بثقة، يا لوقاحته!

يا لخيانة تلك الكرة الصغيرة الخضراء تجمعها وتبعدها عني، تستحق البغض أيضًا كالشبكة البيضاء المعلقة بل هذا المكان كله يستحق الكره الواضح والصريح إن احتضن ضحكات متبادلة بينهما تاركًا ضيق قلبي ولوعته في الشرفة مراقبًا متحسرًا..

جذبتني يد جمال من أفكارى تضغط على كتفى وقال وهو يستعد لإشعال سيجارة أخذتها منه، وشرعت في تدخينها بعصبية ملحوظة دفعته ليبدأ في صوت خافت حديثه: أنا اتخنقت من المكان ده ما تيجى نروح لعايده..

هنا فقط أحسست بريح طيبة تدفئ نار قلبي وكأن روح خير طردت عني شبحا بغيضا، تبعته إلى دهليز الخروج استأذنت من سليم في حركة يفرضها الذوق العام وانصرفت..

في الطريق لم أتفوه بكلمات كثيرة وظل جمال يثرثر..

طرقنا باب السيدة المصون وجاء الصوت المعهود من خلفه تبعته الضحكة والهمسه والغمزة واللمسة ثم الترحاب..

يبدو أن المكان مشغول بآخرين، ذبائن آخرين احتلوا الغرفة الداخلية صوتهم يخترق المعازف ويصل إلى الصالة الخارجية، أحدهم نالت الخمرة من رأسه، قالت الفتاة الصغيرة وهى تدلف إلى الداخل أيضًا: يا ميت أهلاً ومرحباً الست عايذة جوا، إحنا ليلتنا النهاردة صباحى والطرب والسلطنة كله جوا، اتفضلوا يا بهوات..

كنت آخر المنضمين لجمهور الغرفة الداخلية، رأيتهم جالسين ممسكين بكاسات البيرة الرديئة، دارت الأفكار دورتها، أحقاً رشدى أصبح قواداً لصاحب البدلة المتنفخة جواره، صاحب الممتلكات وتوكيل السيارات ذاك الرجل الثرى «منير بيه» كما تناديه الست عايذة مفتخرة بهيجة القلب والوجه، أزاح رشدى يسراه التى أمسكت بالكأس ونادانى: على..على.. ردت عليه غانية قصيرة الفستان طويلة اللسان وقفت بالقرب من شباك موصل تدخن سيجارة فى نفثها الأخير: آلاقى زيك فىن يا على..

امتلاأت الغرفة بقهقهات الحضور وعلى رأسهم جمال الذى أفسح لنفسه مقعداً على كنبه ذات غطاء بنى، امتزجت عواطفى بين اشمئزاز وسعادة، طرب وضيق، انتابتنى قشعريرة وأخذتنى من تناقضات الأفكار إلى الغرفة التى تشرف عليها الست عايذة، جلست بجوار جمال، أخذت جرعة من زجاجة بيرة خضراء ولم أسأل عن سبب مزاقها السيئ، فالمشروب مغشوش وهذا سر آخر للمتعة بذلك المكان..

كأس تبعثها الأخرى ثم أخرى وأخرى، وزجاجة فارغة بجوار الأخرى ودارت طواحين الهواء فى رأسى وغفلت عيناى عن الحاضرات،

..... مساكن أهل الهوى=

فلم أبصر أفخاذهن العارية ومساحيق التجميل المستقرة فوق وجوههن
بل غابت أصواتهن أيضًا عن رأسى فلم أسمع ضحكات خليعة ماجنة
وآهات وهمسات ولمسات حركتها النشوة والغريزة..

وتمايلت.. تمايلت مع الشيء الوحيد الذى سمعته، مع المعازف
والنغمات، وإن لم أميز لها لحناً سوى أصوات جنائزية تنذر بالنهاية، ومن
بينها سمعت الكمان مرة أخرى ينادينى من خلف ستار، يتابعنى من
بعيد، ويتلاشى قليلاً قليلاً ويتركنى وحيداً وسط الجموع مع كأس وخمر
ردىء وصورة تظهر كومضة باهتة وتحال إلى شبح يغدو هنا وهناك لفتاة
أحببتها فى صمت وراقبتها عن قرب وعن بعد كانت لى ورائة الماضى
وأمل المستقبل فجعلتنى ضحية المفردات فضاع عن لسانى الشعر وغاب
عن قلمى النثر فلم أحسن التشبيه ولم أجِد الكناية، رأيتها فى كأسى تبتسم
وفى زجاجة الخمر تضحك تمايل وترقص بين يديه التى صافحتها دون
موارية، رأيتها خائنة..

خائنة لقلبى ولأيامى.. لكننى عاهر ساقط ابن سجين!

عاهر يبحث عن عاهرة وسط عاهرات ارتدن السرير والفراش
وساقط لم يحسن فى سنواته سوى المراقبة، لم يجد دليلاً للحب ولم يحسن
المقاومة!

وهذا أبى السجين انصرف عنى كما انصرف أهل الغرفة إلى غرف
مجاورة، هل ينتظر رشدى سيده فى مقدمة السرير ممسكاً بفتاة حسنة المظهر
فاتنة الجسد يضعها بين ساقيه ويبارك له فمها وكهفها الصغير وعندما

..... مساكن أهل الهوى=

ينتهى السيد وتنطفئ نشوته يأخذها أو يستبدلها بأخرى هل حقاً يارس
القوادة بدقة ويسر؟!

حتى أنت يا صديقي الثائر أخذت إحداهن وخرجت إلى غرفة أغلقت
بابها وتعريت وبدت سوءاتكها جليلة وسط ضحكات وتأوهات..
وأنا.. هل أنا راهب أو شيخ؟!
لماذا جئت إلى هنا إذن؟!

أظنه المكان الصحيح والمناسب حيث الهوى يوضع نقود والحب ملك
لمن يستطيع الدفع والخمر حلال لكنه مغشوش، مثل وجهها واسمها!
أخذتني سنة نوم قليلاً، وذهبت بحلم رأيت ساقى وأطراف جسدى
صناعية معدنية لا تقدر على الحراك ولكنها موجودة وأبى مشرد فى ثوب
مهترئ يقف أمام أعمدة الكهرباء ينظر لحواف الشبايك والميازيب
والأسقف العالية ولكن ذلك ليس وجهه بل هذا أنا، انتشرت شعيرات
بيضاء بذقنى وجرى الشيب برأسى وهذا ذو الأطراف الصناعية هو
والدى، أنظر إليه وأناديه «عزيز.. عزيز..»..

فلا يجيب ولكنى أنهض مفزوعاً وأفق من غفلتى على صوت عال
وشجار وعويل فتاة ونواح سيدة، رفعت رأسى المثقلة وأخذت خطوة
متعبة خرجت بها من الغرفة وخطوات أخرى إلى الغرفة ذات الباب
المكسور وأمامها تكدست الأجسام، فتيات بلباس نوم كاشف عن كثير
ومعهن المدبرة السيدة المصون «الأبلة» عايذة وفي الغرفة فى ركن من
أركانها الأربعة وقفت الشقراء ذات الجسد الممشوق لكنها تنظر فى هلع

..... مساكن أهل الهوى=

وتسيل من أنفها قطرات دم تنزل على فمها المهشم، رأيت لوناً أرجوانياً
أسفل عينها، وأمامها مشهد لم أفسره ربما الخمر!
رشدى يقف بين جمال بعضلات ساعديه وصدره العارى وبين منير
ببطنه المترهل ويديه السميتين، يفصل بينهما، فيحول بين خناق على
المحك!

يهدد منير بينما يحاول جمال عابثاً الوصول إلى تلايبه وفي لحظة قضت
على تأثير الخمر في رأسى، ألقى جمال برشدى جانباً وانهاى بالصفع
والضرب على منير، هشم أنفه وركل قدميه بل ومؤخرته حين سقط،
انطلقت نحوه فرفعته عن الجسد الملقى ودفعته بعيداً ولسان منير لا
يكف عن السب واللعن والتهديد والوعيد وصوت الغانيات ومعلمتهن
لا يكف عن النواح والصياح، هل توقفت المعازف أو استمرت وسط
الشجار، أشعر بها فى أذنى يخالطها صوت سيئ وساعد قوى أمسك به
وأتحاشى النظر إلى الفتاة المعتدى عليها...

خرجت مع جمال إلى غرفة خارجية وانبرت عابدة تطيب خاطر الثرى
وتلومه فى لطف..

أشعل جمال سيجارة فى ضيق وعصبية وهو يقول «فاكرها ملك أمه»..
لم أستفهم ما يقوله كل ما هدفت إليه هو تهدئته..

دفع رشدى الباب بقدمه مسرعاً ووجه حديثه إلى جمال فى صورة
الناصح، طالباً من جمال أن يعتذر ويحقن مشكلة سيكون فيها الخاسر
بلاشك هكذا رأى رشدى..

انفجر غضب جمال ونعت رشدى بألفاظ تسيء إلى شرفه فانصرف
رشدى وهو ينبهنى إلى ضرورة إنهاء المشكلة..

غادر منير ورشدى بعد ما يقارب النصف ساعة وودعتهما الست
عايدة وهى تعتذر عما حدث وتتعهد بإنهاء الأمر..

أغلق الباب الخارجى تبعه فتح لباب غرفتنا ودخلت الست وهى
تعدل من حمالة صدرها، أشعلت سيجارة وجلست على طرف السرير
بالقرب من جمال وقالت فى هدوء: روق يا جمل، الراجل مشى..

نعتها جمال بالقوادة والخسيصة معدومة الأمانة، بل أقسم بأنه لن يكون
أحد مريديها مرة أخرى، ضربت على صدرها وقالت بصوت عالٍ: إيه يا
خويا هو بمزاجك ده أنتوا ولادى، هو أنا عندى أغلى منكم..

وأدت ضحكة ودت لو تطفو على سطح المشهد العبثى، قوادة تتشدد
بأننا أولادها وتفضلنا على مال الرجل الثرى الذى يغدق عليها وعلى
بناتها من ماله!

الأمر يتعلق بالعشرة، وهل أمثال هؤلاء يحفظن العشرة؟!

هل أخبر ماجى بذلك الموقف لربما تعلمت قليلاً!

ولكن ما علاقة الحب بالعشرة، هى لم تحبنى، ذلك كل ما فى الأمر
كنت شاعرها أو كاتبها لا أكثر!

استأذنت الفتاة الشقراء، ضحية الثرى فى الدخول، اسمها ثريا..

وقفت أمام جمال وشكرته بل وأجهشت بالبكاء، طلبت منها الست
عايدة الخروج والجلوس مع الأخريات وسيعتني بها، طلبت منها أن

أفهم ما حدث قبل أن تنصرف..

أراد أن يمارس معها أسلوبًا ينال من كرامتها أكثر مما يجب، فهي ليست بمطية وما تبعه هو هوى واحتياج تجده عندها لا أكثر، فلن تركع وتمطى ظهرها ولن تأتيتها من مكان ترفضه ولن تعلق أصابع قدميك، لن تستجيب لنوازك السادية..

لم يرقَ للثرى صاحب الأمر ووجوب الطاعة، من دفع من أمواله للمعلمة في الخارج ثمن الليلة ذلك الرفض فخلع حزامه وجعل من ظهرها وجسدها وسادة يضربها بجلد حزامه بل ونالت يده من وجهها، وعندما زاد صوتها وعبر صراخها حدود الغرفة كان مصيره لكلمات جمال القوية وسباب الأخريات، بل وتوعدات من الست عابدة بعدم دخول ذلك «البرميل» كما وصفته شقتها مرة أخرى..

غادرنا في الثانية بعد منتصف الليل، ونقلتنا أقدامنا بين الأزقة والشوارع..

هجع جمال عطفة الحلوانى واتخذ طريقه إلى منزله بينما أكملت طريقي وبرأسى فكرة أعمق من مجرد عراك بين مخمورين فبائنات الهوى وطالبوه كلاهما يجب الحفاظ على شىء من الآدمية بينهما، الأجساد لا تباع ولا تشتري فقط الظروف والمجتمع الضاغظ بطبعه..

كنت كالمارد، أحسست بقوة وحول لا أعلم مصدره، كأننى قذفت من بركان، أو خرجت لتوى من قمقم ضيق حطمته وانطلقت، ألقيت عن كاهلى الساعات السوداوية التى عشتها ورأيتها أحوالاً عابرة ذهبت وطوتها الريح فى عتبات الخوف التى رميتها خلف ظهرى..

لم أهتم بتهديدات ماهر وإن كان الثمن هو فصل من مصنع لم أكمل فيه الأسبوع وتهمة لا أعرفها قضيت على أثرها شهرين فى السجن ووضعت فى زنزانة الجنائين، لم أرهب فى كل ذلك أعين ماهر الثلجية المخيفة وإن كانت أصابعه الصلبة الغادرة وراء ما أصابنى، لكن عيون صفية الواسعة الحنونة وهبتنى الجسارة ودربتنى على المقاومة، فمر كل شىء دون أن يترك فى نفسى انكسار، وعرفت نفسى أمام جبروته وسطوة بدلتها، عزيزاً قوياً نرجسياً قادراً على نقل حبى خلف الزنزانة، وقتها سألتنى أخى حسين عند خروجى من الحبس عن حبى لها، هل فعلاً أحبها أو العند هو من يدفعنى إلى الاستمرار، لم يخطر بباله أن يسأل هل اترك الأمر كله وأستكين لتهديده، فهو يعلم أخاه حق العلم..

أتذكر إجابتى وكأنها كانت تقف إلى جوارى، فهى التى أنظر الشمس إلى حائطها فأجدها جلية صادقة، هى التى أرى فيها عكا وأبصر بها يافا وتنادينى من بوابة القدس، هى الجيش العربى المنتصر، هى سيناء

..... مساكن أهل الهوى=

أزرعها زيتونا وأتمخطر بين شجيرات لوزها، هى فدائي أحكم القبضة على بندقيته ودافع ضد عدوان ثلاثي، وإذا رأيته بغتة تهرب الروح من جسدى وأبقى الشهر أو الشهرين دون عقل..

هى مرادى الذى لن يمنعنى عنه ماهر أو سراج!

أعلننا فى مارس 1964 تمسكنا بقرار الزواج، وخاضت صفيه معرفتها فى المنزل وكان انتصارنا فى أغسطس من نفس السنة، تزوجنا ورحلت معى إلى أسوان، عملت هناك ما يقارب العامين فى مصنع «برونكا 56» لتصنيع هياكل السيارات، انفصلت فى تلك السنوات عن الحركة السياسية فى القاهرة، بل القاهرة نفسها انفصلت عن الساسة والمفكرين واتبعت صوتا واحدا كعادتها آنذاك، اتبعت صوت الرئيس المعصوم وعشنا فى لحظات من الخيلاء بل أيام وشهور نحلم بقوة الظافر ونترقب ظهور القاهرة..

فى فبراير عام 1967، بدأت عطلة طويلة قضيتها فى القاهرة فُرضت على جميع العاملين بخطط الإنتاج بالمصنع لقلة الموارد، زارنا ماهر فى شقتنا بالسيدة زينب، لم تقل عنجهيته أو صلفه، كل ما فى الأمر أنه استكان للأمر الواقع ولو نسبياً أو مؤقتاً..

بينما عدلى وهو الأخ الأصغر فيومه مشغول كثيراً حتى عن زيارتنا، فتجار القطن يقسمون ساعات النهار بين المحالج وأراضى الفلاحين وفى الليل فى الغالب ملاهٍ ليلية فاخرة أو إبرام عقود التصدير..

أما أخى فلم يتغير كونه صحفياً بالقسم الاقتصادى بجريدة الأمة

لزمته نظارة طبية فوق أنفه، لم يعد يرتدى الباريه، وأصبحت هيئته مرتبطة برباطة العنق، وأبى أيضاً ظلت جلسته المعتادة مع الحاج محمد عواد العاجي والأستاذ ربيع فرحات لكن رابعهم توفي، وخرجت جنازته من المسجد الذي ظل سنوات طوال إمام له، وأنشئ بالحي سبيل مياه يحمل اسم الشيخ راضى...

في الخامس والعشرين من نفس الشهر حضرت ندوة أشبه بمؤتمر شعبي أعده الاتحاد الاشتراكي، قابلت مصطفى خير الله ويوسف مختار وسعد نجيب، الأول كان حاضراً على المنصة والثاني في الصف الأول من الحضور أما الثالث فهو من عثر علي وجلس معي بالصفوف الوسطى للسرادق الكبير، تحدث مصطفى خير الله بحماسة المعهودة منذ الجامعة، تشدق بالفاظ كانت حديث المصريين جميعهم «الأمة، القومية، الوحدة العربية» اندمج الفلاحون مع العمال والموظفون والشباب والكبار والفتيات أيضاً، ولاحت روائح الحرب في الأنوف وتحمست لها العروق وامتلأت الأفواه بآيات النصر، وارتفعت الروح المعنوية للجميع بمن فيهم أنا، وقتها كنت واثقا في الانتصار، كنت أرى قوس النصر قريباً، فربما يفلح العسكريون في مهامهم الأساسية وسط ذلك التأييد الشعبي الكبير..

ربت سعد نجيب على كتفي وهم بالانصراف لكنني تبعته، خرجنا بصعوبة من الصفوف المتراسة وكأن هواء القاهرة خارج السرادق يختلف عن داخلها يلفح بالكتف فأحكم غلق المعطف..

..... مساكن أهل الهوى=

قال سعد نجيب متشكيا: الأمر خطير، اهتافات والحماسة مش سبب كافٍ للانتصار ..

قهقهت بشكل تلقائي وأشعلت سيجارة ونظرت إليه وهو يلوك شيئا في فمه يشبه العلكة: موقفك من النظام مآثر على موقفك من الحرب ..
نظر إلى سيارة حمراء فولكس نزل منها شخص في معطف أسود من الكشمير وأعاد النظر إلى وقال: الأيام تقدر تحكم أفضل منى، وأتمنى أن أكون مخطئا ويبقى فيه استعداد حقيقى غير التهليل ..

اقرب الشخص صاحب السيارة الحمراء والمعطف الأسود منا أكثر، واتضحت ملامحه وبدانته، «رأفت إسكندر» الصيدلى وابن الزعيم الوفدى القديم مورييس إسكندر، عرفنى عليه سعد نجيب واتجه ثلاثتنا لجروبي بوسط البلد، كان اللقاء الأول بينى وبين واحد من صديقين حملهم العمر معه كما حمل الأيام والشهور، ذقنا كل شيء سويا ..

لم يغادرنى فبراير تلك السنة إلا بخبر جيد، صفة حامل فى شهرها الأول، أكد لى الطبيب صحة الحمل، راقى فى عينى كما لم ترق من قبل وخالطنى شعور آخر لم أجتهد فى تفسيره فقد أحببته، تحمل جزءا مشتركا يحمل صفتها واسمى ..

مرت الأيام تباعا وتباعا أعمل شهرا فى ذلك المصنع وشهرا آخر جالسا فى البيت فأنزل للعمل بورشة كبيرة فى وكالة البلح خالعا لقب مهندس متمتعا بصفة «صناعى شاطر» وهكذا ..

فى الأول من يونية من نفس العام جاء ماهر إلى منزلى فى السيدة

زينب مرتدياً زيه العسكري الكامل وودعنا إلى معسكر القوات المسلحة
بأنشاص الرمل، كان وداعه لى فاتراً لا يحمل أي مشاعر..

وامتلأت إذاعات الراديو بمحطاتها المختلفة وبرامجها المتنوعة بالأغاني
الوطنية والخطابات الحماسية ولقاءات مع القادة العسكريين أصبح عبد
الحكيم عامر ضيف السهرة اليومى..

أتذكر أيضاً تجمعنا فى منزل والدى يوم الجمعة 2 يونية، التقيت
بحسين على باب المنزل وعبرنا مدخلا مستطيلا صغيرا، ثم انعطفنا
لحجرة جانبية متوسطة الحجم مربعة الأضلاع، وتبعنى صفية وعند
دخولها الغرفة أسرع لفتح النافذة على مصراعيها فدخلت نسمة باردة
لطفت جوها المحتق وجلست بالكنبه المقابلة أسفل الشباك، تجاذبت مع
حسين أطراف الحديث وكان عن الحرب، قاطعنا والدى حين دلف إلى
الغرفة فأقبلنا عليه مقبلي اليد وفعلت صفية..

أخذت من يده جريدة الأخبار وقد كتبت فى أولى صفحاتها بالخطوط
العريضة مانشيتات تدل على الاستعداد التام وقرب الحدث الكبير..

فمانشيت الصفحة الأولى كتب بخط أسود غليظ يقول « ننتظر
المعركة على أحر من الجمر » وهكذا فبعد أوامر عبد الناصر بإغلاق خليج
العقبة أصبحت صورة الحرب واردة لاشك وأصبح الشحن الجماهيرى
والتعبئة الشعبية هو الناموس المستقر فى جوانب القاهرة والإسكندرية
وكل محافظات مصر، لم يبد والدى أى قلق فالثقة لم تكن بالنصر فقط بل
بالزحف أيضاً إلى القدس وطرده العدو الصهيونى من الأراضى العربية

كافة..

تأوهت صفية ممسكة ببطنها واشتكت من وجع فوق الرحم قليلاً وفي جنبها الأيمن، أخذتها إلى الطبيب مسرعا وصاحبني حسين كان الوقت قبيل المغرب بقليل أظن..

كتب الدكتور رويضة طويلة لتثبيت الجنين ونصحها بالنوم أغلب فترات اليوم وعدم بذل أى مجهود، جلبت الأدوية المطلوبة من صيدلية إسكندر بشارع الجمهورية ووجدت رأفت إسكندر كما جرت العادة، لم تتح لنا فرصة للحديث الطويل، أخذت منه الدواء وعدت إلى سيارة الأجرة وبها صوب منزلى مباشرة وأصبحت صفية حبيسة الفراش، فنقلت الراديو بغرفة نومنا..

كانت قلقة بشأن أخيها لكن ثقتنا في قوة الجيش لم تهتز على الرغم من كلام سعد نجيب الذى جال بخاطري كثيراً وكثيراً وسط حالة اليقين المبالغ فيها من القادة العسكريين والوزراء أيضاً..

وجاء يوم الإثنين 5 يونية 1967 وانهارت البيانات من المذيع وتواترت الأخبار يميناً ويساراً وأزيز الطائرات إن لم تنقله الإذاعات العربية نقلته الغربية بل ونقلته سماء القاهرة نفسها في بعض الأحيان، جلست بجوار صفية وأخذت أقلب بعناية بين قنوات الإذاعة.. الحرب بدأت..

جاءت إلى منزلنا رئيسة شعراوى أخت صفية الكبرى لتهتم بها وتراعى حملها، نزلت إلى المستشفيات وأماكن الاستغاثة وقوات الدفاع

المدنى للتبرع بالدم والاستعداد لطوارئ الجبهة الداخلية...
انضمت لفصائل خدمة الجبهة والتي أسسها طلاب كلية الهندسة
جامعة عين شمس وتعرفت على «رمضان عويس ودلال وديد ودريه
الفقى وعبد الله سرحان» أخذنا نجمع أكياس الدم من المتبرعين فى
الشوارع ونوصلها مع سيارة إسعاف للمستشفيات العامة والعسكرية،
والمذيع لم يتوقف عن أنباء وبيانات النصر!

ولم يريا منا غير ذلك وأخذنا نردد ونزايد على صوت المذيع «أسقطت
قوات الدفاع الجوى ثلاث وأربعين طائرة فنردد خمس وأربعين»،
«نجحت قواتنا الجوية فى إسقاط لواء مدرع» وفى جريدة المساء كان
المانشيت الأحمر «الجيش العربى يزحف إلى تل أبيب» وانغرس الجميع فى
تلك الأخبار وإن كذبتها وكالات أنباء أجنبية!

لكننا وثقنا فى النصر ورأيناه وسمعناه فى المذيع!
وظلت الأخبار تتضارب حتى يوم السابع من يونية - اليوم الثالث
للمعركة - عندما عبرت قوات العدو حدود سيناء وبدأت تلوح للجميع
خييات الهزيمة التى تأكدت يوم العاشر من نفس الشهر وجاءت أوامر
الانسحاب من الرئاسة ومعها ضاعت قلوبنا وأحلامنا، امتلأت القاهرة
بالعويل وكذلك دمشق وبيروت وعلمنا بعد ذلك أن الطيران الذى دك
معاقل العدو لم يترك الممر بل قصف فى مكانه قبل الإقلاع مزودا بالطيارين
المصريين، فتحولت الميج إلى خرده وأصبحت طائرتنا دمي ملطخة بدماء
شبابنا..

..... مساكن أهل الهوى=

وسقطنا كما سقط كل شيء، وتبقى كلام سعد نجيب فقط في خلدي،
وتمنيت أن يصبح ذلك كابوسًا وسيذهب لحاله، خربت صفية أن عبد
الناصر قوى والأسد مقاتل شرس وعبد الحكيم قائد عسكري محنك، لم
أقتنع بتلك الأقاويل طيلة عمري لكنى رددتها ساعة الضيق وفي لحظات
الهوان كذبت بها على نفسي كما كذب علينا المذيع، لماذا لم تظل الحرب في
المذيع؟!

وجاءت الأخبار تؤكد ببشاعتها وصدقها المخذل للجميع أن قائدنا
العسكري لم يكن في غرفة العمليات ليلة الحرب..
جريدة قالت: إنه في المنزل. ومجلة قالت: كان في ملهى مع فنانة
مشهورة. وأخرى قالت: كان مريضًا وتكاثر الأقوال..
لكنى لم أهتم، كل ما وجدته مؤسفًا مؤلمًا هو غيابه، فمع غيابه غابت
القيادة وسقطت الدفة وتبعثها خيبة ثم حسرة وندم وفي النهاية آلت إلى
نكسة!!

لا أعلم متى بدأت النكسة؟!
هل بدأت عندما تولى ضابط برتبة رائد زمام أمرنا قفز ثلاث رتبات
عسكرية بقوة دولة يوليو ليصبح لواء وبعدها يصبح مشيرًا فوزيرًا
للدفاع؟!
أكثر من ثلاثة عقود من الخبرات العسكرية والدراسات الإستراتيجية
اجتازها بقوة الصاروخ..
صاروخ يوليو الذى سقط فوق رءوسنا وحلت النكسة!

وفتأى فى بطن أمه هل شعر بنكستنا حقاً فانهاى علينا بالسباب واللعان
وظل ير كل بطن أمه ولم تقدر هى على البوح والشكوى؟!
وماهر ذلك المسكين الذى اتخذنى خصماً واتخذته أيضاً، ما باله هل
أحس النكسة مثلى أو أكثر وهو الأسير بمعكسر عتليت، ربما أغمضت
عيناه وكبلت يدها ووثق قدماء وانهاى عليه بالضرب وركلوا وجهه
المثلث ببياداتهم الحقيرة، ربما منعت كرامته من الصراخ، هل تذكرنى؟!
ماذا بهم خطاب التنحى وهو يعلن عن نكستنا أيضاً، هل هروب أو
تنحى؟! تنحى!

غرقت القاهرة فى التساؤلات كما غرقت من قبل فى ألحان النصر
وأناشيد العزة والمجد..

وسينما ريفولى ونظيرتها مترو الأجدربهما أن يجعل من التنحى والنكسة
فيما يعرض فى حفلة السادسة والثالثة ولا يعرض فى التاسعة، فلم يعد
هناك مكان للعشاق ولن تصبح قبلات منتصف الليل ذات فائدة..
فيلم يبدأ بعبارات الرئيس «لقد قررت أن أتنحى تماماً ونهاياً عن
أى منصب رسمى وأى دور سياسى، وأن أعود إلى صفوف الجماهير»
وتأتى الجماهير فى ردها بمظاهرات تجوب الشوارع فتهدف «ناصر ناصر..
لارئيس إلا ناصر»..

لكنها تطلب محاسبة المسؤولين وإن كنت نفسك منهم فالتاريخ لا
يسامح وإن ساحت الشعوب!
وبقيت مع سعد نجيب ورأفت إسكندر نجوب الشوارع ونهبط

..... مساكن أهل الهوى=

بالمقاهى نسمع قصصًا عن بسالة الجنود وعن تخطب الإدارة، وبصفتى مهندس ميكانيكا انتظرت اللحظة التى تفتح فيها المصانع الحربية بابها من جديد وانضمت لأحد المصانع الحربية بحلولان وأصبح العمل على قدم وساق ولكن المنتج محدود وضعيف يشبه القاهر والظافر!
فى نوفمبر 1967 حضر «على» ابنى الوحيد ورأيت أملاً جديداً ولد معه قرار بإعادة بناء الجيش واستقدام خبراء سوفيتين للوقوف على الحالة العسكرية للجيش..

وعاد ماهر أيضاً بعدها بشهرين فى تبادل للأسرى، وجاء إلى بيتنا بعد عزلة قضاها وحيداً فى غرفته زادت على الأسبوعين لا يخرج منها إلا للحمام ويعود مسرعاً، يقرأ كل الجرائد اليومية ولا يستقبل أحداً سوى «سراج» صديقه القديم..

وعندما خرج من محبسه النفسى كانت وجهته الأولى منزلنا، تحاشيت النظر فى عينيه، لكنى أشفقت عليه، حمل «على» بين يديه ونظر إليه ملياً، طبع قبلة على جبهته، وأتت صفية فى عباءة زهرية فضفاضة تترك شعرها بقصته الجديدة ينساب حتى كتفيها، قدمت له شرباً وبعض الحلوى وقالت وهى تمسك بالطفل الذى شرع فى البكاء: عزيز كان هيسميه ماهر، مش كده يا عزيز؟!

نظرت بين قدمى وأكدت على كلامها، وظهرت ملامح الدهشة على وجه الضابط الأسير، أسير فى ماضيه وفى حربه التى لم يحاربها لكنه أصبح أسيراً لها..

أُمنعت النظر إليه وتابعت: حمدا لله على سلامتك يا بطل..

هز رأسه في استهانة ممزوجة بالأسى وقال: بطل!

وانتفضت حلوان.. في يوم 21 فبراير 1968، تحركت القيادات العمالية ومن خلفهم عمال المصانع اعتراضاً على حكم المحكمة العسكرية في قضية قادة سلاح الطيران السبب الأعظم في نكستنا، وخرج الطلاب أيضاً من جامعاتهم وتحولت الفصول الدراسية وأزقة المصانع لضمير حتى يرفض الاستهانة بشرف الوطن أكثر من ذلك..

شاركت وسط العمال وراقبت الطلاب وتمنيت أن أصبح طالباً منهم، وعند الاشتباك مع قوات الداخلية في محيط جامعة القاهرة في 25 فبراير، أحبيت وجودي مع الطلاب أردد هتافهم وأرى الصدق في آرائهم الحرة وكتب القدر لقاء آخر جمعني بالند القديم «سراج فكري»، متظاهراً في وجه ضابط منوط به فض المظاهرة ولا حائل بينهما فوق كوبري الجامعة، لا أدري ماذا حدث وقتها بالظبط.. عبرت إلى شوارع جانبية وتفرقنا!

زاد الحنق على الأحكام الهزلية وتكاثرت الأعداد المتظاهرة يحرقها وقود الطلاب الصادق من مختلف الكليات ووقعت الإصابات بين الشرطة فتعدت الخمسين وبين الطلبة تجاوزت العشرين، ونشرت جريدة الأهرام يوم الإثنين 26 فبراير تصريحاً للفريق محمد فوزي وزير الحربية يؤكد فيه عدم تصديقه على قرار المحكمة في قضية الطيران، وتوقفت الدراسة بالجامعات وأغلقت العديد من المصانع أبوابها أمام القيادات العمالية النشطة انتظاراً لقرار الحكومة والرئيس بعد اجتماعهم الذي تخطى

الخميس ساعات ..

أخذت أردد مع سعد هتافاً انتشر بين الطلاب وكان الأشد جرأة «لا صدقي ولا الغول.. عبد الناصر هو المسؤول»، الوعى الجماهيرى المشكل حينها دفع بالنظام إلى احترام هيبة الوطن لتنشر جريدة الأهرام أيضاً يوم الثلاثاء 27 فبراير خبراً بخط منمق وبارز للجميع «المحكمة العسكرية الميدانية العليا تنظر قضية قادة الطيران، وزير الحرية أحال القضية إلى المحكمة العليا التى يرأسها الفريق الرمالى»..

ليطوى التاريخ صفحة أخرى مخزية كتبت يوم 20 فبراير 1968 بأحكام هزلية تقضى بالحكم 15 عاماً على الفريق أول طيار صدقي محمود والسجن 10 سنوات على اللواء طيار إسماعيل لبيب وبراءة الفريق أول طيار جمال عفيفى واللواء عبد الحميد الدغيدى..

سافر سعد نجيب، جاءه جواب نقله إلى قصر الثقافة فى المنيا كعقاب لنشاطه السياسى، وتم فصلى من المصنع الحربى وعدت إلى أسوان مرة أخرى بعد بوادر عودة للصناعة من جديد..

أما على فكان يسهر بالليل على بكائه تارة وضحكه تارة أخرى، أخذ من صفية العين ولحظه السيئ أخذ أنفى الكبير..

هكذا دونت فصلاً كبيراً ومهماً فى مذكراتى، كان تاريخاً فى فترة شبابى وأياماً لا تنسى من ذاكرة دولة يوليو..

أغلقت الدفتر ونظرت فى الساعة المعلقة بالحائط فكانت الرابعة والثلث فجراً، شغلت المذياع على محطة الأغانى ولم أفطن لإبريق الشاى

..... مساكن أهل الهوى=

على الشعلة يغلى ماؤه..

أيقظنى صوت امتلاء بالضحك، فتحت عيني بصعوبة لأجد فؤاد
فوق رأسى تمامًا ممسكًا بالدفتر والكوب الزجاجى الفارغ إلا من بعض
أوراق الشاي المطحون والسكر..

وصل فؤاد فى موعده بالضبط قبل أن يداهمنى النوم بصوته الهادئ
أخبرنى أن كل شىء على ما يرام وأنه لا يرى على كثيرًا وذلك عن اتفاق
بينهما، ابنته كاثرينا عادت من كندا فى إجازة، ذلك أسعده كثيرًا وذكرنى
بهجرة رأفت إسكندر..

سألته أثناء تناول الفطور بشىء فيه خوف وترقب: فى أخبار عن
القضية يا فؤاد؟!

- أنت فعلا متأكد من رغبتك فى فتح ملف القضية من جديد؟!

تخلفت سميرة عن العمل لليوم الثالث، وأصابت غيبتها ريبة الجميع، فالبعض قلق وتساءل عن صحتها، وأخريات توقعنا أن يكون الموقف الأخير هو سبب انقطاع صلتها بالمطبعة، أما نجلاء فكانت مرتابة واقترحت أن نزورها بعد الدوام، حتى الأستاذ نشأت سألني البارحة عنها، كل تلك الأيام ستخصم من مرتبها بلا شك، لكن الخوف أن يستعيض عنها بفتاة أخرى وينقطع عملها بالمكان..

نزلت كشوف المرتب فأسرع كل العاملات إلى السكرتير، يأخذن مهيتهن ويوقعن بجوار اسمهن بالاستلام، بحثت عن اسمي فكان في الورقة الثانية، قبل مغادرة مكتب السكرتير، جاء صوت من الداخل «اقبضي لسميرة يا نجاة وشوفيها هتيجي الشغل تانى ولا لا وبلغيني» قال المدير وهو يحشو فمه بقطع من الحلوى..

خرجت مع نجلاء وصحبتنا هناء أيضًا إلى منزل سميرة، لم نخمن ماذا يمنعها من القدوم إلى العمل، تمنى أن يكون الأمر خيرًا وفقط وقريبًا جدًا سنعرف كل شيء..

عندما انزاح الباب الخشبي ودلف ثلاثتنا إلى الشقة وطبعت كل منا قبالتها على خدى سميرة وفعلت هي، جلسنا بالكنب المتقابل في الصالة، دخلت سميرة إلى المطبخ مسرعة، ودقائق حتى جاءت بأكواب الشاي،

..... مساكن أهل الهوى=

باغتتها هناء بسؤالها: هو في حد في البيت ياختى ولا أفلع الطرحة عادى؟
- خدى راحتك، حسن مش هنا، نورتونا والله.. قالت سميرة وهى
تعطى نجلاء الشاى، بينما تناولت فنجالى بنفسى..
جلست بجوار هناء ورحبت بنا للمرة الثانية أو الثالثة، وشحب وجهها
وزاغت عيناها كأنها تخفى الكثير ولا تريد البوح بشىء...
كسرت نعمة السكوت المنتشرة بالغرف وقلت بعد رشقة من فنجان
الشاى: القبض بتاعك يا سمس، المدير قالى اقبضهوا لك النهاردة.
- قال كده بس؟! -

- لا الصراحة.. قالى أعرف أنت مابتجيش ليه الفترة الى فاتت؟!
- وشكلى ماعدتش هاجى تانى.. قالتها وهى تنظر إلى موضع قدميها
وإلى البساط فوق الأرضية الأسمنتية..
- ليه يا بنتى بس، لو على الموقف الأخير فعدى وكل حاجة بتهون. ردت
نجلاء..

- الموضوع مالوش علاقة، أنا خايفة عشان الحمل ويعنى..
قطعتها هناء وهى تضع فنجان الشاى على الطاولة شكرتها وقالت: نجاة
كانت قالت لنا وإحنا جاينين بس أنت ممكن تاخدى إجازة عادى لحد ما
تولدى..

طلبت منها زجاجة ماء واشترطت أن تكون مثلجة فحرارة الجو مرتفعة
اليوم، وعندما عادت بها وجهت حديثاً إليها بشكل واضح:
- حسن منعك من الشغل يا سميرة ومش هترجمى المطبعة تانى؟! -

..... مساكن أهل الهوى=

- دى رغبته وأنا مش عاوزة أضغط عليه أكثر كفاية الى هو فيه.
خرجت كلماتها بصوت هادئ واثق، لكنى متيقنة أنه يخفى فيضا من
المشاعر بل يخفى بوادى ألم وضعف يراودها دفعها لتغير مجرى الحوار تماما،
فسألت هناء عن موعد زفافها..

- والله يا سميرة هو شكله كدة زهق منى ومن أمى ومن زنها ومعاه حق،
الصراحة وشكلها كدة هنتجوز فى القسم بعد فضيحة آداب عشان أمى
تبطل تطلب..

غرق الجميع فى ضحكات متقطعة، حتى سميرة وجدت فى الضحك
الستار الأمثل لما يخفيه صدرها من حديث مكتوم..

عند أذان العشاء هممنا جميعاً بالانصراف، تقدمتنا هناء ثم نجلاء وأنا
ودعتها على الباب، قبل أن يرتفع صوت من السلم فى الدور الأرضى لرجل
يهمهم فى إشارة لوجوده، مر مسرعاً بالسلم حتى استقر بباب المنزل أمامى
وأنا أقف مع سميرة، قلت فى تلقائية اعتدت عليها قديماً معه: إزيك يا
حسن.. ومددت يدى مصافحة، غض بصره عنى وقال فى اقتضاب وتعثر:
أنا كويس، ربنا يصلح لك الحال يا أختى ودلف مسرعاً إلى المنزل، ودعت
سميرة وهبطت السلم أفكر فى جملة التى تدور فى قاع رأسى فتستقر بمقدمته
وترسم صورة اللحية والجلباب القصير..

لا أرى المشكلة بهما إطلاقاً، لكن هل حقاً ذلك التغير تعبير عن التدين
الحقيقى، أو ذلك هو الزى الرسمى للوظيفة الجديدة؟!

تأبطت ذراع نجلاء وعلى يسارى كانت هناء، عبرنا عطفة المتولى ومنها

إلى شارع عيسى خورشيد أخذت هناء الأتوبيس من على ناصية الشارع وقصدت طريقها إلى روض الفرج، أما نجلاء فهي تسكن خلفي بشارعين أو ثلاثة ونستطيع السير إلى هناك مادامت أفواهنا تلوك بالكلام..

التقطت أذني نغما جميلا لاح في مخيلتي أو ربما سمعته بالفعل ربما مرت سيارة وكان سائقها رائق البال فسمح لمذياحه أن ينقل صوتا يغنى «دارى جمال العين دارى.. خلى اللى فيهم مدارى مدارى» وجهد لسانى فى الحفاظ على نغم الأغنية وترديدها «يا ناس قولوله القسوة حرام..».

- سهرانة طول الليل ما بنام.. ردت نجلاء وهى تشبك أصبعها للإبهام مع الوسطى وفوقها السبابة، فتحدث نغمة خاصة لدندنة قلوبنا..

- جمالات دى يا نوجا؟!

- قالت بخفة وهى تغنى «يا جنائنى وردك على غصنه فى الروضه أشكال

والوان»..

- يا رايق أنت يا جميل.. نكزتها فى كتفها وهتفت بها فى حماسة الموال ده

اسمه إيه يا بنتى؟! ثم أردفت بسرعة: وفيه مزيكا يا نوجا..

ضحكت ومالت برأسها للخلف وغمزت قائلة: موال دارى جمال العين

دارى.. وآه على المزيكا.. آه، دا الطبله تدوب الوسط دوب..

امتزجت ضحكتي مع ضحكها وأحسست بقلبي يمتلئ بنسمات عابرة

لسعادة تحمل انطلاق شبابنا بعيداً عن ماكينات الطباعة وساعات العمل

والكد..

خطرت بعقلي فكرة وكأن مصباح العقل أضاء فسألتها بلهفة: أنت

..... مساكن أهل الهوى=

عندك الشريط بتاع الموالد ..

- يووووه ده أنا ياما قضيت معاه ليلالى ..

- هوصلك البيت وآخده منك ليلة وأجيهولك لو عجبنى هشتريه بكرة

من ستديو غنيمة ..

أسرعت خطوات أقدامنا تنتقل بالشوارع على أرصفة الطرقات المثقلة بضوء المصابيح ليلاً وبضياء الشمس صباحاً، ننظر إلى السيارات المجنونة فأرى نفسى فى سيارة مكشوفة السقف تنطلق بسرعة لا تقدر عليها مثيلتها وتترك شعرى سابحاً فى الأفق خلفى، ويمر جوارنا العابرون والسائرون ونمر نحن بالجالسين والواقفين وتفتّر شفاهم عن ابتسامات أو تمعضات وعلامات قلق وارتياح وعند شارع سيدى الأربعين هيجعنا العطفة وسرنا جنباً إلى جنب نخترق الحارة الضيقة إلى الميدان ثم حارة أوسع قليلاً فنلقى بسلامنا على البيوت والدكاكين وتوقفنا أمام عمارة من طابقين صعدت مع نجلاء السلم أعطتنى الشريط وعدت إلى المنزل مسرعة من شارع خلفى وصحبنى أذان العشاء حتى الباب ..

وخلف الباب كانت أمى فى الانتظار على الكنبه المواجهة للشباك وبجوارها جلست أختى متربعة اليدين وعندما رأتنى انطلقت صوبى مباشرة قبلت وجنتيها وسألت أمى عن الحال والصحة بشيء من الدعابة جعلتها تجتهد فى تغطية ملامحها الجدية بسطح من ماء الابتسامات الفاترة، قربت منها وجلست ملاصقة لها تماماً ..

- مالك يا أم نجاة؟!

اندفعت أختي وقالت: مكنة الخياطة باظت وبابا بيحاول يصلحها..
- آه عشان كده يعنى..

حاولت أن تبرر أنها ليست المسئولة فقاطعتها بلطف ومسحت على رأسها: روقى روقى بكرة هوديا تتصلح ما تقلقش ما تقلقش، بعدين أنت عاوزة تاكلى عليّ العشا ولا إيه؟!

- ربنا يكرم وتتصلح يا بنتي.. قالتها وهبت لتجهز العشاء..
وضعت حقيبتي على المنضدة الصغيرة ودخلت إلى غرفة أمي، وجدت والدي بجسده الطويل النحيل ينكب على الماكينة ممسكاً بمفك بيمنه ويسراه يحرك أسطوانة صغيرة في منتصف الماكينة حركات صغيرة وبحرص كأنها عقارب ساعة..
- أسطا رأفت، إيه الأحوال يا عم..

ضغط بقدمه على دواسة الموتور ورفع المفك قليلاً عن الماكينة وهبت منه صيحة نصر تبعها نداء بصوت عال: «يا عيشة يا عيشة، اشتغلت يا عيشة اشتغلت» وامتلاً وجهه بعلامات الفخر..
فباغته بقبلة على خده وقلت: وشى حلو عليك أهو..
- مش أى حد يا بنت أبوكى..

تركتهم وتوجهت إلى غرفتي، خلعت ملابسى وارتديت أخرى للنوم..
تناول معي والدي العشاء، فهو لم يذق الطعام طيلة اليوم كان يعمل على تصليح الماكينة، هكذا وجد نفسه، وجد فكره وصنعتة القديمة، أنصفه المفك والمسامر ولم تنصفه الحكومة ولا المصنع حين أحاله للمعاش المبكر..
.....= 164 =.....

..... مساكن أهل الهوى=

وبعد أن غفل الجميع وراح في نومه الهادئ، ظلت أختي ساهرة على سريرها وأنا على السرير المقابل دفعتني يقظتها إلى الحديث قليلاً معها..

- صاحبة ليه يا ميادة لحد دلوقتى؟!

- مش جايل نوم خالص.. مش أنا اتعلمت أركب الزراير أحسن من الأول وأسرع كمان..

- شاطرة يا حبيبتى بس مش جايلك نوم ليه..

- مش عارفة، ماتيجى نشغل الراديو ونفتح باب البلكونة ونسهر ..

أحسست بهزة في جسدى كله وتذكرت شريط نجلاء فقلت وأنا أفقر من على السرير إلى شنطتى: لا لا استنى..

أخذت الشريط وأحكمت غلق الباب حتى لا يخرج الصوت فيوقظ النائمين في الخارج ووضعت الشريط بباب المسجل وبدأ الموال..

وتركت ميادة سريرها وتوسطت الغرفة وبدأت الرقص كعادتها تزيج برأسها يميناً ويساراً وتتايل بجسدها وأنا أشجعها..

وبغته توقفت ونظرت إلى فائزات شيئاً بداخلى هو ما دفعنى لاستعارة الشريط والآن يدفعنى إلى شىء آخر..

أومأت برأسى بحجية ملبية لرغبتى قبل رغبتها، وخلعت بجامة النوم وارتديت فستاناً قصيراً ضيقاً عند الخصر..

جلست ميادة على حافة السرير لكن قبل ذلك ربطت حول خصرى شالاً أحمر..

شغلت ميادة الموال من بدايته، بدأ المزمار فى سمعى يزيد ويزيد وتبعته

الطبله ونقرات من يضربها عبث بخصرى قبل أن تصل إلى رقبها المشدود،
مال جسدى وذهبت عكسه قدمى ويدي ارتفعت تتلوى كنغم المزمار ثم
تهبط وتستقر أمام جذعى..

حركتنى النسفات العابرة ومزيج الشجن والفرح وجاء الناي فرفع
ذراعى إلى أعلى وفي حركات التوائية كنغماته ظلت ذراعى من أعلى للأسفل..
تحمل معها تطلعاتى وأحلامى التى تزيد كل يوم عن سابقه، جسدى
الآن محرر طليق يهتز كلما أراد وتثنى له النغم، أما أحلامى فهي طليقة دومًا
تأتى من بعيد لتصل إلى أبعد وعقلى يحملنى معها إلى مستقبل أكون سيده،
فى انطلاقه الذى يوازى انطلاق الناي والمزمار، يتلون بلون الحرية وإن لم أره
واضحًا حتى اليوم لكنى أعرفه وأعرف صوته، صوته كالموال..

كالموال يبدأ من خفوت وينتهى لصخب تبلغ فيه النشوة ذروتها
فينساب شعرى بدوره حينها ويتحرك فى دائرته فينقلنى إلى مسرح كبير
تمتزج به الإضاءات الحمراء والصفراء وبينها الزرقاء والخضراء وسط تهليل
الجميع لكن ما هذا النداء فى أذنى؟!
أهذا حقًا صوته؟!

أم تلك الطبله ماكرة وصلت القلب وكشفت عما يحتويه، وربما خبث
نجلاء أوقعنى فى شر كها فوهبت الشريط سرى المكنون!!
لكنى أدركت أننى لا أرقص فحسب بل أتمايل ثملة كحقل من القصب
العارى وتعلقت بلسانى كلمات الموال، فأخذ يعيدها ويزيد عليها آهات
وإحساسًا بالسمو طفا فوق كل شىء ومعه طفق شعور آخر، بالطيران

..... مساكن أهل الهوى=

بالتحليق عاليًا أدور وأدور فأصل إلى غاية بعيدة أرى فيها نجاة حرة ترقص
بشياب تضيء جسدها ..

وعاد الموال من جديد يطرب القلب ويلوذ بشكنات الوجدان..
«سهرانة طول الليل ما بنام.. صبرنى يا قاضى الغرام صبرنى»
وجاء صوته مرة أخرى رخيماً متزنًا لا يناسب رقصاتى أظنه أدرك ذلك
فأحال صوته عذبًا تشوبه رياح الجنون..

يمينًا ويسارًا تحرك الخصر واهتز، اهتز كثيرًا صانعًا نغمة تخصه وحده
ودوى فى مسامعى تهليل وتصفيق وثناء أظنه لى فى تلك اللحظة بالذات، لقد
نالت جمالات الكثير من الثناء من قبل والآن دورى!

خفتت أشباح المسرح والجمهور وانطفأت الأضواء وانقطع الصوت
البعيد وعدت إلى الغرفة مرة أخرى ببساطها الممدد وسقفها المعروق وباب
شرفتها قديم الطلاء..

ضحكت كثيرًا وضحكت ميادة أكثر وغصنا فى نومنا وصوت الطبله فى
أذنى لم ينقطع والناى حين أنقلب على سربرى يتبعنى والمزمار يرسل أوامره
إلى خصرى فتصبيه نوبة اهتزاز خفية..

وفى الصباح أدركت أننى نمت بالفرستان، ووجدت رغبة عارمة فى
الخروج به إلى الشرفة، فلن تظهر سيقانى من سورها لكنها تستطيع التمتع
بهواء البدايات، أما كنفى العارى وفتحة صدرى فالشال سيغطى تلك
الأجزاء جيدًا..

رأيت القهوة لم تتغير ملامحها، حتى بعد دهانها وتجديدها كما ادعى

المعلم عزونى مالك القهوة ومديرها، كما أكدت اللافتة الجديدة عدا ذلك كل شيء كما هو الباب الواسع المطل على ناصيتين، والنصبة النحاسية، والكراسى الخشبية بمقاعدھا من القش المفتول، ولن تتغير الزبائن بالطبع عند العصارى أو ليلاً بعد العشاء، سيحتسون الشاى ويرتشفون فناجيل القهوة يعقدون الصفقات ويتسلون بسيرة فلان ومصائب علان!

ورشة النجارة لم يفتح صاحبها أبوابها بعد كما لم يستطع من قبل فتح أبواب قلبى..

وعلى ذكر القلب، ماذا دهالك؟!

هل على من ملك مفتاحك أو هو تعلق ونزوات ستذهب إلى حالها بعد فترة، جاءتنى إجابة من عميق الفؤاد تنهرنى وتجبرنى على احترام القلب أكثر، فتذكرت أن الغد هو موعدنا الأسبوعى بالجمعية وسيكون على حاضرًا، هنيئًا لك أيها القلب فصاحب العيون الصافية سيكون على قرب أمتار قليلة فى الغد..

أخرجت مجلة السهم من شنطتى وعدت بها إلى الشرفة، وعدنى الأستاذ مهنى وهو رئيس تحرير المجلة إلى جانب كونه صحفياً كبيرًا بالجريدة التى يعمل بها على، أن تتاح لى الكتابة بها بعد فترة قليلة من التدريب الجاد، قرأت مقاله على عجل لكن تعلق بذهنى اسم مر أمامى من قبل لكن ذاكرتى الآن لا تسعفنى «رجب السروجى».. أنا متأكدة من صلتى بذلك الاسم!

لكن ما صلتى بشركات توظيف الأموال من الأساس!

على حافة مكتبي وجدت ورقة مطوية فتحتها لأجد بخط ثقیل فى منتصف سطرها العلوى «مذكرة تحقيق» أمعنت فى سطورها وقرأت النص جيداً وكما توقعت الإمضاء فى الأسفل يساراً «منتصر سحاب».. وعلى اليمين «متولى العجرودى»

جذبني صفيـر خافت إلى مصدره فكان بالمكتب الموازى وجدت منصور عيسى يـمـط شفـتيه فى لا مبالاة ويقول بصوت أكثر إهمالاً: أنا كمان جاتلى نفس المذكرة..

- تفكر ليه؟!

- منتصر سحاب..

قاطعته متسائلاً: آه طبعاً هو الى ورا الشكوى بس لازم سبب تانى..
هز منصور منكبيه فى استخفاف وقال: شوية كده وهنشوف..
تحدثت جلسة التحقيق بالمذكرة فى تمام الحادية عشرة فى مكتب الشؤون القانونية بالجريدة أى بعد ساعة من الآن بالضبط..
راق لى اقتراح منصور بالخروج إلى الفطار، ولتكن وجهتنا «جاد» أو «الحصرى»، الأول على الناصية اليمنى للجريدة والآخر خلفها مباشرة..
جاد كان أقرب قليلاً والقهوة ملاصقة له تماماً..
لم يتحدث أى منا مرة أخرى عن الشكوى، لفت انتباهي أولاً عدد من

مجلة الهداية يمسك بها زبون على الطاولة المجاورة، سألت منصور هل قرأ يوماً لأحد كتاب تلك المجلة عمود رأى أو تحقيقاً ما..

جواب وهو يهم بالتهم طبق الفول بعون من الخبز الشامي وشرائح المخلل: آه طبعاً.. أنا متابع جيد للمجلة بالمناسبة..

أومأت برأسي وشاركتة بدورى الطعام، سادت فترة صغيرة من صمت الألسن شهدت على نشاط الأسنان وحركات المضغ والبلع وكسر الخبز المحمص وارتشاف الماء..

وعند الانتهاء عاد بنا حوار المجلة إلى سبيله مرة أخرى بعدما دفعنا الحساب وانتقلنا للقهوة المجاورة، أشرب كوب الشاي الصباحي وطلب هو قهوة بدون سكر..

- قرئت للشيخ حلمى عطا قبل كده؟

نمت ابتسامة صغيرة على شفتيه وقال:

الحقيقة أنا معرفش هو فعلا فليسوف الشيوخ ولا شيخ الفلاسفة..

سكت قليلاً ليذق مرارة القهوة التى تروق له وتنفرج لها أساريره وأكمل بحماسة: فعلاً فى فكر تنويري جداً يقدمة كتاب المجلة..

- عرفت أن الأب يوحنا بائينلوس كتب فيها عمود رأى العدد السابق؟

- ارفعوا الصليب عن ظهوركم فهذا ليس بزمان المسيح..

- لا تدعهم يخبرونك أنك جائع بحق الصليب..

- أو مشرد.. أو مكتوم الفم.. مدحور اللسان..

أثنينا على كلمات القس ومقاله صاحب الصرخة المدوية لعدة أوجه

..... مساكن أهل الهوى=

أولها مجلة إسلامية تستقبل قسًا بين صفحاتها والآخر ذلك القس يحض علي الثورة بل يخبر أقرانه أن سيزيف قد انتهى والمسيح ذاته لم يأمر بالسكوت، فلا تعفف لمظلوم أمام ظالم..

وضع فنجان قهوته ومن قبله وضعت كوب الشاي وأشارت ساعة المقهى للعاشرة والنصف، اقترحت اقتناء عدد هذا الأسبوع من مجلة الهداية، وافقني الرأي وانصرفنا إلى كشك لبيع الجرائد في نهاية الشارع..
أربعة مقاعد متقابلة ومكتب خلفه مقعد خشبي أكبر من سابقيه وجواره آخر صغير..

وعلى المكتب قالب رخامي دون عليه بخط نحاسي «متولى العجرودي..
مدير الشؤون القانونية»
العدل أساس الملك.. لم علقت تلك اللافتة على الحائط؟!، يريدها قاعة محكمة!

فأحشد محاميًا أو اثنين ويصنع قفصا حديديا أقف خلفه مرتديًا بدلة بيضاء أو زرقاء وإن شاء حمراء!

«بريء يا سيدي القاضي» هكذا أصرخ..
«التزم الصمت وإلا حبستك أسبوعا كاملا»..
«أى حبس.. أنا أرتدي الحمراء وعشماوى في انتظارى بأصابع ثقيلة..
فلماذا الأسبوع»..

«سيدي القاضي إن موكلى.. في الحقيقة.. مذنب.. هكذا أراد قاضي القضاة المنتصر دائماً منتصر سحاب فلا عدول عن أمره.. لكننى أطمع في

التخفيف عن موكلى ولو قليلاً..!!»

لاحت أمامى أشباح وخيالات للمحاكمة الوهمية وسرعان ما تلاشت
بحركة من الأستاذ متولى بشاربه الكث وساعته الفضية ورابطة عنقه
الضخمة ورأسه الأصلع وهو يقول بجذع مشيراً للمقعد أمامه: اتفضل يا
أستاذ على وأنت يا أستاذ منصور..

دقائق بسيطة ودلف من الباب منتصر سحاب فى بدلة سوداء، ألقى تحيته
كصديق حميم وجلس على مقعد مقابل..
وبدأ التحقيق.. أو بمعنى آخر بدأ الأستاذ منتصر فى غزل خيوطه
وإحكام سيطرته!

تهكم منصور كثيراً واشتاظ الأستاذ متولى أكثر ولمعت نظارة منتصر
سحاب ودارت فى رأسى التراتيل وتبعثها الأفكار، كيف للمسئولين عن
جريدة مصرية اعتبار تقرير صحفى يصف المشاركة فى حرب الخليج بأنه
استنزاف لدماء العسكرية المصرية جريمة أو تضليل للرأى العام..

كل شىء صريح وواضح كشمس يوليو فى الثانية ظهراً!
ليست النساء صاحبات الكيد وفقط، فهناك منتصر سحاب أيضاً، يترك
التقرير يمر إلى النشر ثم يأمر بإيقاف توزيع العدد مستنداً إلى إشارة من جهة
عليها ترى ضرورة خوض الحرب فجمع الأموال أهم من استنزاف الدماء!
ويتنصر منتصر فيضع تلاميذ خصمه القديم والدائم - محمد مهني - أمام
فوهة المدفع.. فإمضاء من العجرودى أصبحت أنا ومنصور موقوفين عن
العمل لأجل غير مسمى وحتى انتهاء التحقيق..

..... مساكن أهل الهوى=

مسرحية ضعيفة الحبكة مبتذلة الأداء، لم يقطع تذكرتها الجمهور فتذاكرها بيعت قبل طرح الجهة غير معلومة، لكنها تنتهى بطنوش!
خرجت من مكتب العجرودي وفي يدي منصور عيسى أردد «طنوش
قالك طناش ما تعصلجلناش».

عم نجم قالها منذ سنوات على لسان منير فوق مسرح أبدع عليه الملك
المصنوع وخادمه المطيع ليتحول من كومبارس وضيع إلى ملك ذائع الصيت!
أخذت حقيتي الملقاة على المكتب وخرجت وتبعنى منصور.. وبالممر
الخارجى للجريدة قابلت سوزى متأخرة كالعادة ورائحة عطرها قوية
مثيرة..

فى حوار جانبى بين صحفى من قسم الحوادث وموظفة الاستقبال
الحسنة التقطت أذننى خبراً توقعه الجميع بفوز عبد العظيم جودة فى
انتخابات التصعيد للنقابة ليصبح نقيباً عاماً للصحفيين..
تمتم منصور بكلمات غير مفهومة ثم قال بثبات وبصوت عالٍ: «وما يضر
الشاة طهوها بعد زبحها»..

لم أجد مأوى يناسبنى فى تلك الساعة المبكرة إلا المنزل، فالحانات أغلقت
منذ ساعات عدة بعد انقضاء مغامراتها الليلية والمقاهى لم يعمرها الأصدقاء
والرفقاء بعد، حتى الشيشة وإن كانت سنة محمودة لا تشترط وقتاً ولا ترتبط
بموعد لكنها ذات دلال تروق فى المساء ليصبح شهبندر مبسمها فى الليل..
إذاً فليكن المنزل وحي السيدة!

هتف بصوت أجش مرتفع يدوى فى الأذن كصافرات أكتوبر الحربية

..... مساكن أهل الهوى=

«على...يا على»..

توجهت إليه مباشرة، يقف بجسده الطويل وخديه الممتلئين وفوقهما
عينان غائرتان لوجه أمرد تمامًا، بـدكان واسع قليل يحمل لافتة كبيرة «سنترال
الثورة.. الحاج حامد الصعيدى»...

- يا راجل يا صعيدى.. بصوتك ده تشتغل عسكرى درك محترم..
- عسكرى فى عينك يا بجح..

قطعته بضحكتى ليكمل بصوت خفيض نسيبًا: عيلة عبد الهادى شحاتة
رجعت..

ثم تابع: النهاردة الصبح، كنت بفتح المحل لسه ولقيت العربية بتنزلهم
وكلهم تقريبًا وصلوا.. ناجى ويحىي وعلا وعم عبد الهادى ومراته ومعاهم
واحد أول مرة أشوفه..

- ده بقالهم زمن كدة.. خرجت تنهيدة من صدري مع دخان السيجارة..
- وعلا..

استعجلته ليلقى بما فى جعبته من أخبار فأردف متباطئًا: انجوزت وحامل
كمان..

حركت رأسي لا مبالي وقلت: ربنا يكرمها..
حاولت تغيير الموضوع والخروج من مأزق الذكريات فكانت صورة
عبد الناصر المعلقة على الجدار فى صدر المحل تقريبًا هى الوسيلة..
- مش هتشيل صورة عبد الناصر بقى يا عم الحاج..
أجاب بانفعال مرح وابتسامة اعتاد عليها وجهه عند المزاح: ده البطل

..... مساكن أهل الهوى=

الزعيم يا ولاد إمبارح ياللي ماتعرفوش حاجة!
- أراهن أنك بتحب عبد الناصر عشان صعيدي بس..
- بس يا ابني.. وبلهجة متحسرة على أيام مضت قال وهو ينظر إلى
الصورة: ناصر.. ناصر الأمة.. ناصر العروبة.. ناصر الشعب يا على...
- ماهو إحنا شعب يحب اللي يغني عليه!
- لا يا على.. إحنا شعب يحب الزعيم والراجل!.. أبوك كان بيحبه على
فكرة وبكى لما مات..
- غريبة، هبقى أسأله..
أدركت في لمح البصر الخطأ الذي وقعت فيه، فاستدركت مسرعاً: تفتكر
هيرجع؟!
- مصير الحى يتلاقى يا ابن عزيز..
تركته وغادرت فور دخول زبون مستغلاً انشغاله بقضاء حوائجه..
خطوات قليلة صعدت من خلالها السلم وألقيت النظر على شقة عبد
الهادى شحانة ثم إلى شقتى فتحت باب الشرفة ألقى السلام على السيدة فى
قبرها واستقررت بجسدى على السرير حتى دارت تروس الأفكار مشبعة
بالذكريات لوم واستنتاج ولا مبالاة أيضاً واستنكار!
استنكار قلب لحب وددت لو دام، واستعجار رحم لطفل حكمت عليه
بالموت وسميته أيام المراهقة!
عرفتها وكنت فى السابعة عشرة، أحببتها وربما مازلت أحبها ورأيت
الطاحونة البعيدة تدور بريشاتها الكبيرة فلم يستقر القلب وغدا بعيداً إلى

اليمين باحثاً عن شقراوات وإلى اليسار عن الحسان وظلت الطاحونة في دوران والقلب ارتضى بدور الفريسة يحرقه الشوق ويجلده الجفاء...

وظلت هى فوق سلمها وفي شرفتها وخلف شباكها الموصد ترتدي الأزرق والأبيض والمزركش تنظر إلى السيدة كما أنظر وتنادى لأم هاشم وأظل في غفلتى يجمعنا البيت الكبير ببابه وطابقه المشترك ومن بعده الحى والميدان والشارع والسيدة والمقام!

ألمس يديها حين تذبذب عيناها في لقاء سريع على السلم أو فوق سطح العقار، تكشف عن منديلها الوردى فأرى طهره كمسبحة عابد وجلباب ناسك.. حدثت في عينيها وفي شفيتها ورسمت لها أنفًا صغيرًا مديبًا أفضل من ذاك كبير الفتحات.. وعاهدتها على الحب فكانت الميادين شاهدة والأبصار إلينا شاخصة ولم يمانع القدر هكذا ظننت..

وأصبحت بطلها وأصبحت الوجه شديد البسمة في حياتي وعلم المقبل والمدبر عن علا وعلى، عن بيت في حى السيدة ضم الحبيين... وكيف للبحر أن يترك فاتنته؟!

حين رأيته وقد تنهد الثدى وظهرت في عيني الأنثى وتبددت البسمة وحلت بدلًا منها الغمزة فاكتملت أركان الجريمة الساحرة، حتى المكان كان أكثر مكرًا منا، غرفة فوق سطح البيت الكبير سكنتها القوارض والققط وحطت فوق سقفها اليمامات وأفراخ الحمام..

بدأنا بلمسة ثم قبلة فتعريت وجردتها من شريط الضفائر وكان أصعب ما استطعت تجريده!

..... مساكن أهل الهوى=

وانطلقنا للنشوة ودقائق قليلة أيقظنا منها البكاء دون صوت والدموع
الثقيلة..

وقطرات دم على ذيل فستانها!
وصدر يسعل وأنفاس متلاحقة، لملت ثوبها وأخذت شريط ضفائرها
وأسرعت إلى شقتها..
وغبنا كثيرًا فلم نلتق ورأت أمها أن الأمر ليس بالسهل وينقصني الكثير
لأصبح زوجًا وعريسًا!
ورأى قلبى ذلك فانصرف عنها وابتعد وظلت وحيدة وعادت طاحونتى
للدوران..

علمت أمها فهجروا المكان وهاجروا إلى بلاد لا تحتوى على غرف
للقوارض والقطط واليهامات ولحظات المجون والحسرة!
أود الآن الاعتذار.. أود أن أقول وأجزم أنني مخطئ وفاسد وهى شريفة
صادقة!
أخبرهم أن الطير بنى عشه فى فم الأفعوان متشبثًا بأمان العشق فلم
يجده!!

وباغته أمان آخر عند الهجرة من ذاك العش إلى زوج جديد وحمل وسيارة
وأسرة!

بعيدًا عن الطاحونة وصوتها ورياحها الغادرة...
فى المساء توجهت إلى قهوة الشرق ذات الأربعين عامًا أو تزيد.. طلبت
حجر شيشة وكوب ماء، نفث وآخر ثم ظهر جمال كطل شبح خرج لتوه

..... مساكن أهل الهوى=

من خلاء القهوة، ألقى بسلامه على أهل المقهى جالسين وواقفين ممسكين
بالشاي ومتأملين في حجر النرد..

- كنت عارفاً طبعاً أنني هلاقيك هنا، ولما تأخرت استنيتك.. قلتها وأنا
أثبت مبسم خرطوم الشيشة جيداً..

- هنا المكان الوحيد اللي مفيهوش مخبرين..
- والركن..

- يمكن، بس أنت آخر مرة كنت هناك امتي؟!

- قريب، أيام انتخابات النقابة.. خن مين راح معاي..

هز رأسه قليلاً وضرب بأنامله على الطاولة وقال عدة أسماء..

فبادرتة بالإجابة: عبد الرحيم..

فغرفاه وقال بدهشة: عبد الرحيم جاد الحق!

- أها..

لم أجاريه سرد الذكريات لانشغالي بمجاراة الشيشة تبادل الأنفاث لكنى
لم أمانعه استكمال التفاصيل والأحداث عن أول مظاهرة حملة عبد الرحيم
فيها ليهتف ضد لائحة اتحادات الطلاب الصادرة عن أمن الدولة..

«ساعتها رشدى كان جدع» تلك الجملة التى دوى صوتها فى أذنى وردد

صداها بقوة..

على الرغم من سخطى على رشدى وغضبى من الطريق الذى سلكه إلا
أنى استنكرت تلك الجملة، فرشدى هو سبب أيضاً فى منع منير من البطش
بجمال وكان سبباً فى خروجه من المعتقل المرة الأخيرة..

..... مساكن أهل الهوى=

لا يجب علينا إصدار الأحكام المطلقة على البشر، وراء كل فعل تبرير وسبب لا نعلمه، ربما من يعلم الصحيح يفعلُه، لكن الصحيح شيء نسبي لكل واحد منا.. من يجد الصحيح في جمع المال في وقت قصير يبذل أمامه بعضاً من الشرف والكرامة..

هذا ينقص منه ويجعله مطأطأ الرأس لن تغنيه السيارة الفارهة ولن ترفع رأسه مرة أخرى سترته الفاخرة.. وهذا أيضاً لا يمنحنا الحق في منح فلان أو إعلان صك الشهامة أو وسم العار.. جميعنا نخطئ ونصيب والزمن قادر على الحكم، فشريف اليوم قد يصبح غداً شيخ الأفاكين، ولص اليوم قد يحيله الدهر لتقى ورع.. العالم يتغير وذرات أجسادنا تجري ولا حكم مطلق في كون يعترف باللامحدود..

مرة أخرى نادى جمال على النادل وبصوته أعادني من أفكاري إلى الطاولة..

- أنت رحت المؤتمر؟! .. سأل باستنكار.

- آه ما أنا قتللك هروح..

- حد يسيب مناظرة عن الأمية الثانية عشان يحضر مؤتمرا هو في الأصل

ندوة بتنظمها الدولة!

- أنا صحفى يا جمال، مهم عندى أعرف الكل بيقول إيه!

زاد استنكاره وأصر بقوة على رأيه، مؤكداً أن تلك المناظرات والندوات

التي تعقد بمركز الدراسات التقدمية هي نوع من النضال المفروض على كل

تقدمي فدعمها واجب وضرورة كالشراب والطعام..

..... مساكن أهل الهوى=

ينسى جمال دائماً أن اثنين فقط من يتقاسمان الطاولة الصغيرة بالقهوة ويدع المجال لصوته وعقيدته الحنجرية وكأننا في المؤتمر العام للحزب الشيوعي الروسي أمام لينين وتروتسكى..

قفزت إلى رأسى جملة قالها صحفى هندي بالمؤتمر، أخرج بها وزير الخارجية السوري الذى تحدث عن المناخ الديمقراطي في الوطن العربى!
- جمال.. «إن صاحب السيادة عندما يسمح بشيء فإنه يأمر به»..

- ميكافيللى.. أنت مؤمن؟

- لأقصى درجة يا صديقى المناضل..

العالم لا يحتمل الشد والجذب فدعونا نترك بعض السباحة هؤلاء المشاغبين يتظاهرون هنا أو هناك، يعترضون على بعض السياسات ويرفضون حزمة القوانين تلك أو تلك، في الحقيقة نحتاج إلى قليل من الصوت من حين لآخر حتى لا يهدأ نباح كلاب الحراسة ولا يصدأ مزلاج السجن ولا تتشنى فوهة بنادق جنودنا!

- آه.. ده اللي استنتجته بقى من المؤتمر يا عم على...

- ده الكلام اللي قاله كل وزراء الخارجية تقريباً بس كل واحد غلفه بأسلوبه اللي سماه ديمقراطية الأصلح واللى قال عليه تشاركية الحكم والجميل بقى إن وزيرنا سماه الحوار المجتمعى التشاركى!

- تبجح..

- بالمناسبة أنا اتوقفت عن العمل..

ارتفع صوته ضاحكاً وشاركته ونحن نهم بالانصراف لوجهة أخرى

..... مساكن أهل الهوى=

نقضى فيها ثلث أوسط من الليل.. وفى الغد أركب قطارًا يأخذنى إلى الإسكندرية أشاطر والدى يومه..

لم أكن ضيف أبى الوحيد، فالأستاذ فؤاد سبقنى منذ ثلاثة أيام أو أكثر.. خلعت حذائى وأغلقت الباب، سلمت عليهما وجلست بالمقعد القريب لأريكة جلس عليها والدى ممد الساقين وجواره عدد لابأس به من الجرائد أشهرها الأهرام وأكثرها معارضة للنظام «المهد»..

تناولا الإفطار لتوهما وتناولت الإفطار فى الطريق بدورى، فتقاسمنا براد الشاى على ثلاثة أكواب..

واشتركت فى حديثهم الذى أثاره الأستاذ فؤاد بتصفح عدد الأسبوع من مجلة الهداية - أحضرته معى - أبدى إعجابه بالشيخ حلمى والدكتور أنور زغرب أستاذ الاجتماع بجامعة أسيوط..

أمسك والدى المجلة وقلب فى صفحاتها حتى استقرت عيناه على ورقة فى منتصفها تحقيق عن أموال الجمعيات الخيرية أعدته صحيفة تدعى «ريهام نوفل»، يخبر تحقيقها أن الجمعيات الخيرية وأموال التبرعات علاوة عن كونها مسكنًا للفقراء وغشاوة تغطى أمراض المجتمع المتأججة وبؤر الاحتياج المتأصلة هى أيضًا سوق مفتوحة لغسل الأموال والتهرب الضريبى بل وساتر يقف خلفه أصحاب شركات توظيف الأموال وتجار العملة، ذكرنى تحقيقها بمقال الأستاذ مهنى الأخير عن تلك الشركات ومحاربتة لتكتل تجار المال بشارع الأزهر، بعض أصحاب محلات العطارة والأقمشة كتجارة ظاهرة شرعية ومن خلفها تأتى أنشطة أخرى تدر ربحًا أكبر وتحالف الضمير أكثر

وأكثر..

- هو الشيخ حلمى كاتب إيه العدد ده؟!

سأل فؤاد وهو ينهى الحوار عن الجمعيات الخيرية فالجميع متفق ضرها أكبر من نفعها.

- مقاله جريئة جدًا عن أموال الحج واختار لها عنوانًا مثيرًا «وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم»...

جاوبته بحماسة جعلت والدى يقلب مرة أخرى فى صفحات المجلة وصولاً إلى المقال المطلوب وبدأ فى قراءته بصوت عالٍ..

وزاداد انفعاله مع كلمات المقال وأفكاره فتفخم صوته وظهر الاستحسان على وجهه الواسع..

«وليست أموال الحج والعمره كأموال النفط، لم تُجمع للتداول فى البنيان ولا اقتناء الباهظ والفاره وبالطبع لم تمنح بأمر الدين لطائفة ما أو عائلة بعينها، هى أموال جاد بها من استطاع إلى الحج سبيلاً لخالفه وديانه».. ليست من مصادر دخل العائلة المالكو!!

تلك العبادة وجعلها ركنًا لمن استطاع إليها سبيلاً، أوليس نفس الدين من أمر بالتكافل، فانظروا إلى الصومال والسودان وتشاد وإن أسعفكم النظر فهذه إفريقيا برمتها!

يحث مقاله على التساؤل حقًا.. هى عبادة لكل المسلمين، فلماذا يتنفع منها حفنة قليلة منهم؟!

إن البيت لله لم تملكه عائلة أو تستأجره طائفة!

..... مساكن أهل الهوى=

من يجد في نفسه القدرة على إثارة العقول وتنبيه الأذهان وإيقاظ الضمائر هو نبي العصر ورسول التنوير، ذلك كان تعليق والدى عن مقال الشيخ والذى اتفق معه الأستاذ فؤاد..

عدت إلى مقال آخر كنت قارئة أمامهما للقس الثائر يوحنا باثيلنوس، عنوانه فلسفى من الدرجة الأولى «عتمة كهف أفلاطون»...

قطعنى الأستاذ فؤاد بصوت معتدل وقال: لعلمكم الأب يوحنا تقريراً انقطعت صلته بالكنيسة لم يعد قساً عاملاً خصوصاً بعد آرائه الفلسفية اللى أثارها في المجمع الكنسى وكمان مقالاته سواء في مجلة الهداية أو كتاباته المنشورة خارج مصر..

معلومة جديدة لكنها متوقعة، لم تغير في موقفنا من قراءة مقاله.. نقل بمقاله جزءاً من كتاب الجمهورية لأفلاطون حيث يقول في حوار بين سقراط وغلوكن..

«سقراط: تخيل كائنات بشرية قبعوا في كهف تحت الأرض، له ممر طويل باتجاه النور، ظل هؤلاء الناس هناك منذ نعومة أظافرهم، وقيدت أرجلهم وأعناقهم بأغلال، بحيث لا يستطيعون التحرك من أماكنهم أو رؤية أى شيء سوى ما يقع أمام أنظارهم لأن السلاسل منعتهم من إدارة رءوسهم. وخلفهم نار متأججة من مسافة، وبين النار والسجناء طريق مرتفع. ولتخيل على طوال هذا الطريق حائطاً منخفضاً، مشابهاً لتلك الحواجز التي يضعها أمامهم لاعبو الدمى المتحركة.

غلوكون: إنها حقاً لصورة عجيبة، تصف نوعاً غريباً من السجناء.

سقراط: إنهم لا يشبهوننا، ذلك أولاً لأن السجناء في موقعهم هذا لا يرون من أنفسهم ومن جيرانهم شيئاً غير الظلال التي تلقيها النار على الجدار المواجه لهم، أليس كذلك؟

غلوكون: وكيف يمكنهم خلاف ذلك ما داموا عاجزين طوال حياتهم عن تحريك رءوسهم...؟

سقراط: فلتأمل الآن ما الذي سيحدث إذا رفعنا عنهم قيودهم وشفيناهم من جهلهم. فلنفرض أننا أطلقنا سراح واحد من هؤلاء السجناء، وأرغمناه على أن ينهض فجأة، ويدبر رأسه، ويسير رافعاً عينيه نحو النور. عندئذ سيعاني آلاماً حادة وبضايقه التوهج، وسوف ينهر إلى حد يعجز معه على رؤية الأشياء التي كان يرى ظلالها من قبل. فما الذي تظنه سيقول إذا أنبأه أحد بأن ما كان يراه من قبل وهما باطلا، وأن رؤيته الآن أدق، لأنه أقرب إلى الحقيقة، ومتجه صوب أشياء أكثر حقيقة؟ ولنفرض أننا أريناه مختلف الأشياء التي تمر أمامه، ودفعناه تحت إلحاح أسألتنا إلى أن يذكر ماهي. ألا تظنه سيشعر بالحيرة، ويعتقد أن الأشياء التي كان يراها من قبل أقرب من الحقيقة من تلك التي نريها له الآن؟

غلوكون: إنها ستبدو أقرب كثيراً إلى الحقيقة.

سقراط: وإن أرغمناه على أن ينظر إلى نفس الضوء المنبعث من النار، ألا تظن أن عينيه ستؤلمانه، وإنه سيحاول الهرب والعودة إلى الأشياء التي يمكنه رؤيتها بسهولة، والتي يظن أنها أوضح بالفعل من تلك التي نريه إياها الآن؟ غلوكون: أعتقد ذلك.

..... مساكن أهل الهوى=

سقراط: فتخيل إذا ما عاد إلى رفقاءه السجناء وحاول أن يحررهم من أغلالهم، ويقودهم إلى أعلى واستطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه، ألن يجهزوا عليه بالفعل؟؟

أفاد يوحنا قراءه من ثقافته واطلاعه الفلسفى، فجميعنا نرى الظلال ونظنها الحقيقة الوحيدة وإذا ما خرج أحدنا عن الناموس المألوف تخرج برفقته متاعب لا يتخلص منها تأخذه أحياناً إلى النبذ وربما الاعتقال أو القتل!

وبخضم تلك النقاشات وعلى هامشها، رأيت أنه من السانح السؤال عن قضية أبى، الخطوات المرتقبة، الترتيبات الجديدة..

قال الأستاذ فؤاد بصفته المحامى المعنى بالأمر: الأسبوع الجاى هعمل استبيان فى النيابة عن القضية وفى محكمة أمن الدولة العليا بعدين هقدم طلب لإعادة التحقيق وهنشوف.. وأنا متفائل إن التحقيق لصالحنا..

- ونرفع قضية رد اعتبار وتعويض عن اللي حصل.. أكمل والدى وهو ينظر بتمعن لباب الشرفة المفتوح..

لقاء آخر قد يجمعني به أقف أمامه مشهراً السبابة في وجهه موجهًا
اتهامي إلى عينيه، وأصبح به أمام قاض لا يعلم الكثير عنا..

مارق.. أنا؟! سارق... أنا؟!

خائن.. أنا؟! قاتل.. أنا؟!

لن أنتظر إجابته فهي لن تشفى الغليل ولن تطب الجراح التي حط
عليها الذباب وملأت جنباتها الدماء المكتلة ولون الصديد الأصفر..

وبتركني القاضى فأخبر عن لقاءات نسجها القدر مع ذلك السراج
فكرى..

فلقاء أتذكره جيدًا كان في محطة القطار وكنت في انتظار القطار المنطلق
من القاهرة إلى أسوان وكذلك هو..

وعلى صغير يخطو في نهاية عامه الأول وأمه نضرة الوجه تحسن زينتها في
فستان يصل إلى بعد ما الركبة ذي لون فاتح ونقوشات صغيرة..

ظهر في بدلة شرطية سوداء تزينها على الكتفين ثلاث نجوم وعلى عينيه
نظارة شمسية كبيرة تقدم بثبات إلينا، كنا في التاسعة صباحًا والقطار
ينطلق بعد نصف ساعة..

انتابني ترقب وحذر أمام ابتسامته الباهتة ويده الممدودة للتصافح..
تصافحنا ورفع نظارته لتظهر عينا زرقاوان فيها من المكر والدهاء الكثير،

تجاهل وجودى نسبياً ووجه حديثه إلى صفية
«خلى بالك على نفسك يا صافى وعقلى عزيز وخلى بالكوا من على»..
استنكرت صفية لهجته الأبوية بينما ارتسمت على وجهى ابتسامة
أعلنت التحدى لسلطته التى خولت له الحديث بتلك الطريقة..
- أنا مسافر أسوان برضه حجزى فى العربية الثالثة..
- نتقابل هناك.. قلت فى برود شديد..
ثم أكملت وأنا أنظر إلى صغيرى يقظ العينين: حجزنا فى العربية
الخامسة.. الصدفة ما كملتش..
أشعل سيجارة وودعنا ببرود لم يمنعه من المصافحة مرة أخرى.. وترك
لسانه يلدغ قبل الانصراف فقال بلهجة الآمر: خليك فى شغلك يا على،
بلاش حاجة تانية..
- أنت انتقلت من قطاع الأمن المركزى لمباحث أمن الدولة ولا إيه؟
- اسمع نصيحتي... البلد فى حالة حرب..
أعلن موظف المحطة عن جاهزية القطار للانطلاق وعلى المسافرين
التوجه إلى أماكنهم، أكدت على ندائه صافرات القطار..
«البلد فى حالة حرب» جملة ردها المسئولون، ولا أمانع فى جعلها
عنواناً لمذكراتى عن تلك الفترة...

انطلق القطار ومعه شروذ ذهنى، لا تنطق صفية وعلى يغط فى نوم
عميق والشمس ترسل أذرعتها على نوافذ القطار الزجاجية فتمر أشعتها
من جنبات الستائر كاتمة اللون وعند مفترقات المقاعد لتظهر خطوط

..... مساكن أهل الهوى=

مضيئة فوق المقاعد وعلى أوجه المسافرين وفي الطريقة الضيقة، تناولت
الجريدة الصباحية وقرأت عناوين صفحتها الأولى ولكن الذهن منشغل
فما أقرأه لا أدركه فأتركه!

انتقل نظري إلى الشباك فأزحت الستار ونظرت إلى الطريق الذى تنهشه
عجلات القطار بسرعة ودقة..

شعرت أناملى بملمس ناعم دافئ اجتاز الفراغ ووصل إليها فالتقت
الراحتين وتشابكت عشرة أصابع وانطلقت تنهيدة من صدرى وابتسامة
من وجهها نظرت إليها ثم إلى على النائم على المقعد المقابل وإليها مرة
أخرى، أطلت اللمس لأصابعها وإياهمى تحرك فى شكل دورى على ظهر
يديها، وتصاعدت الأنفاس، أخذت يدها بين راحتي ووضعتها فوق قلبي
بعد تقبيلها مرة وأخرى؛ مرة على ظهر اليد وأخرى فى راحة كفها الدافئ..
ولا نتحدث.. فقط احتواء!

احتواء لكل ضيق، لنكسات وهزائم، معتقلات لأسرى وتعذيب
لمظاهرات، لجنود وطلاب لا يمتلكون سوى الصدق!
احتواء لأمة بعد التغنى بالنصر منيت بالهزيمة فما رفعت هامة ولا رأى
لها الوجود قامة!

أحتاج بلدى الحبيبة إلى كف صفية ولمسات أناملها، أم تفضل تهديد
سراج وصوته الأَجَش؟!

أذكر صوتها العطوف «أنا معاك وعمري ماهسيبك، أنت مش مجرد
زوج، أنت السند والأمل والحلم الى عاش بعيد عني ولقانى ولقيته»..

..... مساكن أهل الهوى=

لم أكن الحلم كما اعتقدت ورأيتى، كنا جميعاً فى كابوس كبير يعيش به الرئيس والخفير كلنا وسط ذلك الكابوس، ما بين يديها وأمام عينيها وما ينبس عن شفيتها فقط هو الحلم البعيد عن الكابوس!

نمت على صدرها وأوقظنى صوت الصغير يبكى يطلب حقه فى حنان السند الكبير والصدر الدافئ..

أود أن أخبره الآن وهو فى أوج شبابه وأنا فى طريق الكهولة سائراً، أن أهمس فى أذنه «ولدى العزيز، إن الحبيبة والزوجة هى من تؤمن بك وبأحلامك من تعطى لك دفئها فى يناير البارد وتجربى خلفها على شاطئ البحر فى يوليو وهى تركض سعيدة بقربك، من ترتق الجوارب ليلاً فى انتظار وصولك وتثبت لك أزرار القميص وتنظر بحب يعتربه شغف الوصل واللقاء، فلا تشعر بتفضلها عليك، ولا تجد المنة والأذى فى يوم بين عينيها، واعلم يا بنى أن المرأة لا ينقصها العقل كى تباريك أشغال المجتمع وقضاياها ولا ينقصها الطموح لتصبح ذات شأن وباع فى مناح الحياة، وإن دورك ليس بالهين فى دفعها إلى تحقيق أحلامها والوثوق بقدرتها، أقم منزلك بدعائم ثلاث يا صغيرى؛ الحب والثقة والشكر، اشكرها حين تكد فى أعمال المنزل وخذ بيدها واشكرها حين تدعمك فى تحقيق نجاح ما، ثق فى رأيها وناقشها وقابل حجتها بالحجة وثق فى رجاحة عقل يشاركك المعيشة ولا يفترق عنك سوى بالموت، والحب.. الحب هو من يضىء الأنفاق المظلمة بل يصل نوره إلى القبور المعتمدة..»

قضيت فى أسوان حيث الفرع الجديد لمصنع السيارات ما يقارب

الأربعة أشهر طلبت بعدها العودة إلى الفرع الرئيسى بالقاهرة ووافق مدير المصنع بعد انقضاء شهرين آخرين واستقدام مهندسين..
عدت إلى حلوان مرة أخرى إلى العمال المنظمين والفكر النقابى المؤهل للقيادة، إلى ماكينات تدار بعقول لا يهتمها السعة الإنتاجية وفقط!
وعدت إلى السيدة زينب مرة أخرى، مدد يا بنت الكرام وأم الأكرمين
مدد..

وفي أغسطس 1970 وافق عبد الناصر على مبادرة روجرز وكانت صدمة لنا جميعاً فى منزل رأفت إسكندر الذى ضرب بيده كثيراً على سفرة الطعام ولم ينطق، وخيم الصمت إلا من صوت المذياع ينقل أخباراً تؤذى المسامع، صوت قداحة سعد نجيب تبعث شرارتها فتمسك بمقدمة سيجارته أخذ نفثاً منها وقال «أهو ده اللي صار»..

وبصوت حريرى ردد ضيف فى أقصى الطاولة وهو ينقر بأصابعه عليها نقرًا جميلاً، فمن يملك ذاك الصوت يملك أنامل أيضاً تحسن صياغة النغمات، تركت صوت الراديو جانباً وركزت مع صوت الشاب...
«أهو ده اللي صار.. مالکش حق تلوم عليّ»..

تلوم عليّ إزاي يا سيدنا وخير بلادنا ماهوش بإيدنا»
غنت معه فتاة أخرى صديقة لهما تعرفت عليها ببيت رأفت أيضاً تدعى سميحة عثمان..

أفرغ سعد كأس الكولا مرة واحدة بينما أخذت جرة كبيرة من الشاي فأملت لسانى ونظر كلانا إلى رأفت إسكندر وهو يقول: كدة إعلان صريح

بإنهاء حرب الاستنزاف..

- وإعلان ضمني بسيطرة أمريكا على مجريات الأمور.. قال شاب ذو شعر قصير وبشرة سمراء يدعى حنفى عيد..

- والفدائيين في فلسطين رأيهم إيه؟!.. سأل سعد وهو يلوك ببعض المكسرات في فمه..

أجابه شاب آخر لا أتذكر اسمه حاليًا: في بيان طلع من منظمة التحرير رافضًا طبعًا وقف العمليات الفدائية والمقاومة، يعني اللي وافقوا الملك حسين في الأردن وعبد الناصر هنا..

كان البيان إشارة من الفدائيين المتمركزين في غور بالأردن رفضهم وقف العمليات الفدائية المسلحة..

في السابعة مساء خلا منزل رأفت إلا من سعد وأنا وهو بالطبع.. سألته عن هؤلاء الشبان الأربعة قابلتهم مرة واحدة قبل ذلك، أخبرني أنهم طلاب جامعيين ومثقفين من رواد مقهى عبيد حنا ومسرح الجمهورية للفنون..

ذاع صيت الطلاب كثيرًا في الوسط السياسى فمثلاً وقتها كنت أعرف أسماء بعض الكوادر الطلابية الذين أشعلوا جمرات الثورة في الجامعات وأبقوا الفكر الثورى قائمًا ورفعوا شعارًا لكفاحهم الطلابي رفعته من بعدهم الحركات العمالية والحركات السياسية «الديمقراطية وتحرير الأرض» فذاع صيتهم وزادت قدرتهم على التأثير في الرأي العام خصوصًا بعد قضية محاسبة قادة سلاح الطيران فمنهن «ليلى سويف وعائدة سيف

الدولة ودرية شفيق وأمنية راشد» المرأة المصرية ساهمت في تشكيل التاريخ المصرى بشكل ملحوظ حقًا أما الشباب فأصبحوا فيما بعد رفاق كفاح وأصدقاء مقاهى أمثال «محمد بديع سلطان وعلى عبده»..

خطا على في عامه الثانى بعد الشهور والأيام ودبت معها قدماء الأرض، أراقبه وهو يحمل ألعابه من الناحية اليسرى للغرفة إلى اليمنى وأراقبه حين يهرول فيسقط على وجهه فيخالطنى شعور الضحك والشفقة، وعلى غير العادة زارنا ماهر، وجلب معه بعض الألعاب لعلى، مسدسًا وسيّفاً..

كان فى حالة أفضل من ذى قبل، مورد الوجنتين، عادت إليه نظرتة القوية وعادت إليه كبرياؤه، اختفت قليلاً مسحة الحزن فى جبينه وبرز مكانها آثار جرح غائر فى مقدمة ناصيته..

تركتنا صافية وأخذت معها على، تعد الطعام وتأخذ الصغير إلى نومه كما قالت..

لم تلتقِ أعيننا بشكل مباشر، وجرى الحديث وكأننا ندين وبالفعل نحن لم نكن أصدقاء!

- وأنت يا عزيز شايف إننا قادرين نرجع أرضنا تانى ولا بتشكك فى قوة الجيش؟!

- الجيش أفراده من الشعب وأنا عمرى ما شكيت للحظة فى إن الشعب

ده يسبب حقه، الشعب قادر يطلع جيش يرفع رأسه فى كل مكان بس..

قاطعنى بحدة بحركة من يده وبلهجة أكثر عصبية: بس إيه.. هتقول إن القيادات غير مؤهلين..

- هقول كده وهقول.. هي فين نية الحرب!!
- أنت راجل مثقف يا عزيز وعارف كويس يعنى إيه بناء قوة عسكرية
بعد صدمة زى اللى حصلت..

- نابليون كان بيقول دايمًا «لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر»..
- او عى تفتكر إن فى حد نفسه فى الانتقام واسترداد الأرض أكثر من
الضباط اللى اتأسروا أو شافوا بعيونهم ذل العدو ليهم أو شافوا أصحابهم
وعساكرهم بيموتوا قدام عنيتهم..
- عمرى ما زيدت على حد ولا ادعيت الوطنية.. بس الواضح إن أى
حد لبس البدلة دى احتكر الوطنية لنفسه وعازب يمنع الكل من الكلام فى
أى حاجة!!

ازدادت وتيرة الحوار سخونة أطفأتها صفيه حين دعتنا إلى مأدبة
الغداء..

انصرف ماهر وعاتبتنى صفيه بل ودارت عينها عنى وهى تقول: كل
ما ييجى ماهر تتخانقوا، وهو ما بيحش كثير وقولتلك إنه بعد ما رجع من
الأسر وأعصابه تعبانه جدًا وعصبى..
لم أجبها مشفقًا عليها فأردفت بلهجة حزينة: اللى شافوه فى عتليت
محدث يستحملة..

عميقًا فى عينها رأيت شيئًا يشبه غطاء مخاطيًا من الدموع خلفه حديث
مر المذاق بلغت به، عن أسرى افترشوا الصحارى الجرداء منزوعي الثياب
محلقى رءوسهم يرفعون أيديهم خلف جباههم المذلولة، يُركلون فى

بطونهم وصدورهم ببيادات صهيونية قاسية صيغت من جلودنا العربية،
عن آخرين كبلوا من خلف اليد بالساق والساق باليد واصطفوا أمام
مدرعات تقودها فتيات قاتلن رافعات علم الصهاينة، ثملت عقولهن
بالنصر واحتلال الأرض فدهسن أجساد الأسرى ودهسن الكرامة قبلها..
أرخت رأسي آملاً في الخلاص من غسق الدجى باحثاً في رأسي عن
حل لدى الشعراء أو فكرة لدى الكتاب فالجنود يعانون، وهذا دوركم يا
أصحاب الأقلام..

في اليوم التالي ذهبنا إلى منزل أبي وقابلت صديق أخي القديم كمال
علام، اليساري القديم صاحب أول كراس قرأته أصبح عضواً في الاتحاد
الاشتراكي، استأذنت منه ولحقت بصفية في الغرفة المجاورة حيث يستقر
أبي بجوار الراديو وأغاني أم كلثوم..

جلست معهم قليلاً حتى غادر كمال وانضم إلينا أخي حسين..
خرجت معه إلى السطح، زاد عدد الحمام في برجه الصغير، راقبته وهو
يطلق أزواجاً متتابعة منهم ويلوح لهم براية حمراء ويناجيهم بصغير عالٍ،
وجد متعته في مناجاة الحمام، وشغل حياته بدراسة الاقتصاد وأغلق على
نفسه باب الزواج وباب المرأة بأكمله، يؤمن أن القلب لا تفتح أبوابه إلا
مرة واحدة، ولم تأتِ بثمارها بل حولته إلى أرض مهجورة تشققت وضاع
خصبها وصالحها..

صوت عالٍ من الأسفل وصراخ وهرج ومرج ورجل يصرخ «الزعيم
مات مات» وامرأة تتنحب..

..... مساكن أهل الهوى=

هرعت مع حسين إلى السلم ومنه إلى الغرفة، الأب يبكي وصفية أيضًا..
أسند حسين رأسه بحلق الباب وظل الأب يردد «ضاع.. ضاع.. حلمنا
ضاع يا ناصر» وصفية تبكى أيضًا بل وعلى جعلته الضوضاء يصرخ،
والذهول يضربني بيد قوية فلا أنطق ولا أتحرك فقط أرمى بجسدي على
الكنبة، أسمع المذياع وأرى والدي وأخى وصفية!

لن تنسى مصر يوم 28 سبتمبر 1970، أنا أيضًا لن أنساه، كيف لي أن
أبكي لموت سجانى؟!

ذلك ما حدث.. نزلت إلى الشوارع أعبر فيها دون وجهة وأرى العيون
تبكى والأصوات تنتحب وأناس تلطم الصدور بالكفوف!
لكنى بكيت.. ما السبب إذن؟!

هل لحظة غلبت فيها عاطفة العوام عاطفتي، أو ذاك الشخص ذو
النظارات السمراء له تأثير على مدامع العيون؟!
لم تكن المشكلة بيني وبين شخص عبد الناصر فقط - فهو لا يعرفني
شخصيًا وأنا لم أقصده في شيء خاص!

مشكلتي مع نظام عبد الناصر، مع ضباطه، مع مراكز القوى، مع
البيروقراطية التي أسس لها بكل جهده، مع رأسالية الدولة التي أخفاها
خلف ستار الاشتراكية، مع كل شيء!
مع النكسة... مع من خلفه..

محمد أنور السادات نائب عبد الناصر وفصيح الضباط الأحرار، من
يستطيع التحدث باللسنة متعددة، جيد في المحاوره ورائع في المناورة..

جاء رئيسًا للبلاد وجاء معه الحراك الثورى طلاب وعمال...
أعلن أن عام 1971 هو عام الخلاص وعام الحرب ثم سّماه فيما بعد
عام الضباب وخرج علينا في 13 يناير 1972 يعتذر عن الوفاء بوعدده في
جعل العام الماضى عام الحسم متعللاً بالحرب الهندية الباكستانية وانشغال
الحليف السوفيتى بها..

تزوج رأفت إسكندر يوم 14 يناير من مارجريت فيليب، طالبة بكلية
الطب في السنة الخامسة، وبدلاً من صحبتها لقضاء شهر العسل، صحبته
هى إلى المؤتمر الطلابى الذى نُظِم بكلية الهندسة في 17 يناير وكانت
الدعوى له في الخامس عشر من نفس الشهر..

واستمر الطلاب يعلنون مواقفهم وقوتهم ومن خلفهم المجتمع يؤيد
ويتنظر إشعال الفتيل الثورى، والرئاسة ترسل مبعوثيها إلى الطلاب أمثال
أحمد كمال الدين فيقف عاجزاً أمام المطالب المشروعة، وتطلب منه إحدى
الطالبات أن يحضر الرئيس إذا لم يستطع هو الإجابة!

وعلى مقهى عبيد حنا أجلس مع سعد نجيب وبعض الأصدقاء نتشاور
فيما تحمله الأيام القادمة، إلى أن جاء يوم 24 يناير واقتحمت قوات الشرطة
الحرم الجامعى وتم القبض على أعداد كبيرة من الطلاب والطالبات،
كانت كفيلة تلك الحركة بإشعال جمرات الثورة في صدر المجتمع المصرى،
فتحولنا من التحليل والمتابعة للوضع الطلابى إلى المشاركة، فمع خروج
الطلاب إلى ميدان التحرير والتحامهم بالجمهور في وسط القاهرة، أصبح
اعتصامًا شعبيًا واسعًا يطالب بالحسم ورد الكرامة والقضاء على سنوات

..... مساكن أهل الهوى=

الهوان ويطالب بإصلاحات ديمقراطية واجتماعية.. ومن هنا أصبح اعتصام التحرير الموجة الأولى التى هزت عرش السادات بقيادة طلابية عمالية ومساندة من طوائف الشعب..

وبالميدان قابلت رأت إسكندر ومارجريت وصحبتنى صفية وسعد نجيب وباقى الرفاق على مقهى عبيد حنا ورواد مسرح الجمهورية.. حتى على كانت صفية تحمله على كتفها وأحملة أنا قليلاً..

غادرت صفية فى الليل وأصدرقائد قوات الأمن المركزى أوامره بفض الاعتصام فى الليل أيضاً، وعند الفجر كان الاعتصام ملطخاً باعتداءات قوات الأمن..

أتذكر الهتاف وقتها «اصحى يا مصر» هتاف أقره الطلاب والعمال وساندتهم جموع الشعب المنتفض فى وسط القاهرة، جاء إلى خيالى شبح بغيض فى زى أسود ونياشين يرفع شومته أمام عيني ويهوى بها على رأسى وظل تخيلاً وشبحاً لم يُحل إلى واقع، واكتفى الواقع بقسوته وتبجحه..

لم أذهب إلى بيتى بعد تلك الليلة، انطلقت إلى حلوان أقف وسط العمال فى ساحة مصنع الحديد والصلب، تدمر الكثير منهم وأصر على الاستكمال وجاءت دعوات الإضراب بالمصانع وشرعنا فى تنفيذها..

بعدها أصدرت وزارة الداخلية بيانات تؤكد فيها احتوائها الموقف ومشروعية المطالب لكن ذلك تم بعد الزج بالكثير من الطلاب فى غياهب السجون ومعهم العديد من الكوادر العمالية..

كنا نعلم أن الوقت لن يمر بسلام علينا وأن الحديد لم يطرق وهو ساخن

فكيف له أن يُشكل فيما بعد!

وفي يوم أذن فيه الفجر بمسجد السيدة جميلاً هادئاً بصوت الشيخ عبد الرشيد الرافعي، وكنت كعادتي في الشرفة أنظر إلى الحركة البادئة في الحركة والآخذة في الانتشار، أغلقت باب الشرفة خلفي حتى لا يوقظ صفيه وعلى في غرفة نومهما وأخذت من سيجارة ونيساً لساعات الصباح، لم أكن أعتقد أن هناك من ينوي مصاحبتى ومجالستى، ولم يأت وحيداً بل تبعته سيارتان..

سيارة شرطة زرقاء ييجو وخلفها سيارة بصندوق وسيارة أخرى للترحيلات مليئة بالجنود..

استقرت أمام باب المنزل وصعد الضابط مسرعاً وخلفه آخرون لم أشك أن الباب المقصود هو باب شقتى وفي نفس الوقت لم أستوعب أن يُقبض على أي من سكان العمارة بتلك القسوة والعدد الكبير..

«افتح يا عزيز إحنا عارفين إنك جوا، مش عاوزين نكسر الباب» قال الضابط، ومعه دقات سريعة وقوية على الباب الخشبي..

هرعت خارجاً من الغرفة وانتفضت صفيه ومعها على من نومهما وامتألت نظرتها بهلع وخوف وتجمدت ملاحظها كإناء نحاسى قديم تسأل ماذا يجرى.. ماذا يحدث؟!!

فتحت الباب ودلف الضابط وجنوده أمسك اثنين منهما بساعدى بينما ردد كلماته المعروفة «مطلوب القبض عليك.. انزل معنا من غير شوشرة».. واختفى ضوء النهار الآخذ في السطوع خلف صاح سيارة الشرطة

..... مساكن أهل الهوى=

المقفلة ولم تكن هنالك نيابة ولا تحقيق وبالتالي لا محامى ولا قاضى، سجن القلعة فقط..

فترة جديدة من عمرى قضيتها فى سجن القلعة، أطلقوا عليه حينها باستيل مصر..

بدأ السجن فى سيارة الترحيلات فجوها الخائق وضوؤها الخفيض وغبارها المنتشر فى كل نفس اتصل مع برد الزنانة القارص يعصف بالجلود وما أسفلها من عظام..

وجدت البدلة البيضاء فى انتظارى معها قبعة من نفس اللون وحذاء مطاطى اشتهرت به «باتا للأحذية» وقذف بجسدى فى زنزانة رقم 7 وأغلق الباب الأصم وتحرك مزلاجه البغيض وأصبحت الصحبة من شباب الجامعة وشباب الحركات والقيادات العمالية، الكل خلف أبواب مغلقة والزنزانة تحمل من الأحباب ستة أو سبعة، والطرق بين الزنازين تضيق وتضيق وتصبح أرضيتها مثقلة باليأس..

ظل الحال ثلاث ليالٍ تقريباً لا نعرف ما يدور فى الخارج بل لا نعرف هل حقاً ثلاث ليالٍ مروا أم أربع، يدخل إلينا الطعام من فتحة أسفل الباب تغلق بسرعة فلا نرى سوى يد وأطباق!

وصوت الشاويش أجش قوى مرعب يصرخ فى الحضور يأمر بالصمت، لا ضوءاء..

لا حديث..

لا غناء..

وأصبح السلو بين سكان الزنازين هو العزف على الباب الحديدي
بدقات نعلم من خلالها أننا أحياء، كل زنزانة يخرج عنها عدد من الدقات
بعدد قاطنيها...

وفي ليلة لم يعجب الشاويش وصديقه الصول تلك العادة فنبهنا
بالامتناع، لكننا لم نهتم وفي الليل امتلأت الطرقة أولاً بالماء ثم تدفق إلى
الزنازين، أغرقها الشاويش المعتوه بخرطوم الحريق!
سُمح لنا بالتريض والخروج من الزنزانة في اليوم السادس وبدأت
تحقيقات مباشرة وغير مباشرة مع البعض..

يفتح باب الزنزانة، ينادى العسكرى على فلان ويأخذه إلى دور علوى
أو سفلى ويتم التحقيق معه، ربما يعود السجين أو يرحل وربما يلتقى به في
غياهب أخرى أكثر ظلمة..

نقلنا بعد ثلاثة أيام إلى الجانب الآخر من السجن وكنت نزيلاً لزنزانة
رقم 7 أيضاً!

والصحبة تلك المرة كانت مع محام وصحفي وطالب بكلية الزراعة..
المحامى ناصرى لديه ندبة كبيرة فوق خده الأيسر اسمه غانم رضا،
والصحفي يسارى كثير التدخين، أما الطالب فكثير الكلام والتذمر لا يهتم
بالسياسة، جلبته الصدفة فقط، حبيبته تهتم بالسياسة قال ذلك كثيرًا..

وذاث ليل زاد الصوت في الخارج، وكأنه هرج أوز ولغط دجاج وصياح
ديكة وتقدم مخبر وخلفه مجموعة من العساكر يمسكون بشاب نحيل
أشعث الشعر معه آخر يرتدى نظارة سوداء الجميع يعرفهم بلا شك..

..... مساكن أهل الهوى=

الشاعر أحمد فؤاد نجم وصديقه الشيخ إمام، انطلق تهليل المسجونين يرحبون بالصوت اللاذع الذى لا يرهبه المخبر ولا العساكر بل يخشاه الشاويش ويخشى التعرض له حتى لا تأتى كلمات أشد من السوط تنال من كرامته...

وأصبحنا كل ليلة على موعد مع صوت الشيخ يؤنس الجميع من المسجون إلى الشاويش وحتى أصغر عسكرى.. فقط نرى التذمر حين يأتى ضابط يخشى الأصوات الصادرة فيأمر العسكرى والسجان بغلق الفم وسحب اللسان.. لكنها مهمة صعبة! واشتقت إلى صفية وعينيها وتمنيت جناحين أعبر بهما أسوار السجن إلى على فأحتضه ولو قليلاً وأعود، لا مشكلة لدى فى العودة... وانضم سجناء جدد إلى المعتقل، أعضاء اللجنة الوطنية العليا للطلاب ونزلوا بالزنزانة رقم 9..

رحب بهم الشاعر وصديقه، فدوى صوت الشيخ إمام فى السجن كله فى الصباح والمساء داخل الزنازين وعند التريض وجواره الفاجومى يردد معه ويلقنه.. «أنا رحت القلعة وشوفت ياسين.. حواليه العسكر والزنازين».. كانت كلماته نياشين شرف لأولئك المناضلين «أحمد وبهاء والكردى وزين»..

فهاهو طالب الآداب وشاعرها زين العابدين فؤاد يتلقى التحية ومعه صديقه أحمد بهاء الدين شعبان طالب الهندسة وصديقهم شوقى الكردي طالب الطب البيطرى ومعهم أحمد عبد الله طالب الاقتصاد والعلوم

السياسية..

طلاب كان لى الشرف فى معرفتهم وقتها وكنا نرى فيهم الأمل الكبير
كانوا كالقاهرة التى تسحب خلفها مطالب المجتمع..
فى ليلة أصبحت فيما بعد علامة فى ذاكرتى، فتح عسكرى ضخمة الجثة
كث الشارب ذو عينين ضيقتين باب الزنانة على مصراعيه وقال بصوت
كالعذاب يبرق ويرعد فى آن واحد «عزيز سالم.. قوم بسرعة.. فذ يلا..»
وأخذنى معه بدفعة فى كتفى من ممر إلى دهليز وصوت الشيخ إمام فى أذنى
مع كلمات نجم..

هبطنا سلاّم ضيقة خلفى العسكرى صاحب الصوت المرعب وأمامى
آخر طويل الجسد وخلفه آخرون..

أخذنا المنعطف الأول ومنه إلى غرفة على اليمين وقبل فتح بابها، أخرج
العسكرى طويل القامة غمامة سوداء وثبتها على عيني جيداً وجذب الآخر
يدى اليسرى خلف ظهرى ووضع بها السوار الحديدى الآخر..

جلست على ركبتى كما أمر صاحب الصوت لم أر وجهه حتى الآن،
لكن صوته ظل محفوراً فى رأسى لسنوات وسنوات، صوت كبرود الثلج،
هادئ يحسن مخارج الألفاظ أشعر فيه بدهاء وعندها يحال إلى فحيح أفعى
تتلوى، وعند الغضب نعيق غراب ينذر بالشؤم، أعلم أيضاً أنه كثير
التدخين ورائحة سجائره مميزة من تبغ نقى مستورد!

جلس أمامى على مقعده أو أريكته أو مكتبه لا أعلم بالتحديد لكن
خلفى كان شخص ضخم ومفتول العضلات يده تشبه المطرقة فى قوتها،

يضرب في المفاصل وأسفل العنق وفي المعدة..

- إزيك يا عزيز..

حاولت الرد قبل أن تأتي صفعة من الخلف اهتز لها جسدى كله..
ليكمل في صوت أكثر برودًا من سابقه: ما تتكلمش إلا أما أقولك اتكلم
يا عزيز..

- البلد مش عاجباك في إيه يا عزيز، أنت مش عارف إننا في حالة
حرب؟!

اتكلم يا عزيز قال وهو يعبث بقداحته التي تصدر صوتًا مميزًا عند فتح
غطائها أظن..

أحسست ضوء الغرفة الخافت من خلف الغمامة السوداء..
نفث دخان سيجارته في وجهي وكأنها إشارة للصفع والضرب الشديد
يمينًا ويسارًا من الآلة البشرية الواقعة خلفي..
استمر التحقيق على تلك الوتيرة وانتهى بوضعي في زنزانة أخرى ضيقة
كثيرًا لا تزيد في العرض على مترين وطولها ثلاثة أمتار، قضيت يومين في
الحبس الانفرادي..

رأيت فيها صفية تحمل قارورة ماء تضمد بها جراح ظهري وظلت
التخيلات تزيد في رأسي، عن أبي وأخي وعلى وماهر أيضًا!
كنت نائمًا حين تحرك المزلاج بعنف ودفع الباب بقوة ودخل عسكري
ممسكًا بدلو ماء بارد كان من نصيبي ليوظني ثم خرج وحل مكانه الوجه
الأشد بغضًا في حياتي.. سراج فكري..

يرتدى معطفًا بنيًا وفي فمه سيجارة في رمقها الأخير رماها أرضًا..
لا أتذكر من حديثه سوى جملتين ففعله كان الأقوى والأشد بطشًا..
الجملة الأولى «قولتك إن أحسنك تركز في شغلك، بدل ما تحط
نفسك في طريقنا».

أما الثانية فكانت بلهجة أشد «اوعى تفتكر إنه سهل حد ياخذ منى
حاجة نفسى فيها».

هددنى كثيرًا وجاوبنى على سؤالى الوحيد الذى شغل فكرى آنذاك،
كيف له أن يجدنى فى كل مكان أذهب إليه، أهو ضابط فى قطاع الأمن
المركزى، أم فى أمن الدولة، أم أنه ضابط مكلف بمراقبة عزيز أينما ذهب؟!
ضحك بصوت عالٍ وقال إنه انضم لجهاز أمن الدولة مع تولى السادات
الحكم واختيار الأكثر كفاءة.. وفى قول آخر .. الأكثر قدارة..

كل شيء أصبح أكثر قسوة فيما بعد، غرفة أخرى مظلمة تمامًا، أقذف
فيها عارى الجسد منزوع الثياب وكلب شرس مكمم الفم ذو مخالب قوية
يصبح ضيفى فى الصباح وفى الليل خرطوم ماء ينساب بأرضيتها..

أعلم أن كل ما أصابنى لم يكن ذا بعد سياسى وفقط، يد سراج تمسك
بعنقى بعنف، تعاقبنى على صفية، فتضعنى على كرسى وتختبر قوة التيار
الكهربى على جسدى، أما الأكثر بشاعة فلن أورده بمذكراتى ولن أتحدث
عنه الآن على الأقل، يكفى أنه يلاحقنى كل ما خلعت ملابسى ونظرت إلى
جسدى!

وخرجت فى 2 مارس 1972، تاركًا خلفى جبروت سراج ذاهبًا إلى

..... مساكن أهل الهوى=

صفية أشكو لها ما أصاب جسدى فتسير بيدها على رقائقه الممزقة أحكى لها فى الليل عن رعب السياط التى تمزق الجلود والصفعات التى تصافح أصداخنا وقبضات تعوج أفكاً حين تلقاها وأظافر لبشر بقلوب صدأة أو كلاب مفترسة تنهش أنسجة ولحوم فى الفخذ والظهر وتحت الإبط وبين الساقين وأجساد تسحل أو تربط بحبال خشنة على حوائط مدببة وأرض صخرية، أسألهما لماذا يتركنا الله فى تلك الزنازين، أهذا الجحيم يرضيه؟! وذلك البلد الحبيب لماذا فتح زنازينه أمامنا ونحن أبناءه المخلصون لا نبغى سوى خيره، أتلك المكافأة؟!

أم مهر العروس ودلال البكر فى ليلة العرس؟!

لكنهم ليسوا بأهلها كى يأخذوا المهر هم مغتصبون ومجرمون!

ووجدت عزائي كوني أحد الزائرين الدائمين لحارة حوش قدم بالغورية بمنطقة الحسين أصعد عبر سلم متهالك لغرفة متواضعة فى شقة أكثر تواضعاً أرافق المثقفين والأدباء والسياسيين فى حضرة نجم والشيخ إمام، وما إن تخطو قدمك الغرفة حتى تجد الثورى الضرب و صديقه أشعث الشعر فى أشد توهج لهما..

ضمت الغرفة أيضاً جنسيات مختلفة كانت بينهم فتاة من حركة المقاومة الشعبية فى بيروت اسمها الحركى ريتا لم تخبرنى ولم يعرف أحد اسمها الحقيقى..

لها نظرة حادة من عين تضىء كقرص الشمس وبشرة شمعية وشعر طويل يصل إلى الخصر، ترتدى البنطال والبلوزة فتصبح مقاتلة شرسة

..... مساكن أهل الهوى=

وإن ارتدت التنورة أو الفستان تقسم إنها نجمة من هوليوود أو فنانة تنتظر التكريم على سجادة «كان» الحمراء...

الفتاة الوحيدة التي أخذت فصلاً من حياتي دون باسمها، ولا أعلم هل ساحتني صفيه عنه، أو لم تعلم عنه شيئاً؟! أنا لم أخبرها، لكن المرأة تعلم بلا شك تلك الأمور، ولا تخفى عليها خافية..

الساعة أصبحت متأخرة الآن جداً، تسير نحو الثانية ليلاً، أغلقت دفتري مذكراتي الذي انتفخت صفحاته وحملت الكثير عن الماضي..

فتحت الثلاجة تناولت علبة اللبن الباردة وأخذت فطيرة صغيرة، أكلتها مع رشقات اللبن، ثم أغلقت نور الغرفة وتمددت على السرير، بالأمس كانت الشقة بها صوتان معي، كان صوت شاب مثقف أرى فيه المستقبل وأرى فيه شبابي وصوت آخر لرجل مخلص آمن بقضيتي ووضع على نفسه عهداً باستكمالها..

الآن لا صوت يعلو في الأنحاء والأروقة سوى دقات الماضي وأنين ذكرياته...

امتدت يده إلى فخذي الأيسر، مررها بحذر، فابتعدت وأخذت حزمة الأوراق بعيداً إلى المكتب الآخر، دقائق وتبعني مرة أخرى، وقف خلفي قريباً جداً أنفائه تخترق خصال شعري ورائحتها الكريمة في أنفي مديده إلى خصري بقوة يجذبني إليه قبل هروبي من حصاره..

صرخت بكل قوتي محاولة دفعه عنى، وضع يده فوق فمي والأخري على صدري، حاولت عض ذلك الكف الثقيل وبقدمي ومرفقي تخلصت قليلاً من مسكته..

وصوته صليل النار في أذني «اهدى يا نجاة واعقلى أنا عنيا ليك.. محدش هنا خالص غير أنا وأنتِ».

دفعت عنى تلك الكومة المكتظة باللحم وأمسكت مسرعة بعصا حديدية مدببة هاجمته بها حين اختل توازنه وكاد يسقط لكنه أمسك بمقعد خشبي حاول إصابتي به وقذفه بقوة اتجاهاً..

كنت في ناحية وهو في الناحية الأخرى من الغرفة ولا أحد معنا في المطبعة.. كل العمال رحلوا، لم أكن أعلم إنه فخ!

عيناه لا تحمل أى آدمية، محجران فارغان من أى نقطة دماء ثبتت بهما كرتان من الزجاج، يلمعان في اشتهاى وطمع يصل إلى جسدى فينهشه قبل يديه وساقيه..

أصبت بحالة من الجنون حولتها إلى غضب قذفت بكل شيء جوارى
ناحيته، دباسة الأوراق، خرامة أوراق صغيرة، علبة الحبر، حتى أقلام الكتابة
وكومات الورق داخل أكياسها..

تفادى كل شيء براعة، لا أعلم أكانت تلك براعته أم ضعف ساعدى
وقلة حيلتى وربما غريزته المتوحشة هى من أكسبته الخبرة والمهارة!
نحى جانباً كل شيء أمامه وخرجت على شفثيه ابتسامة رسمتها قذارته
وشراسته لنفسي المسكين...

شعرت بنوبة أخرى من الجنون كسابقتها بل أشد، جعلتنى أتمسك بآخر
خيوط يحمى جسدى من مطرقة جسده وسندان ما بين ساقيه..
ركضت إلى ناحية أخرى من الغرفة فأصبحت خلف المكاتب الصغيرة،
أجهشت بالبكاء كثيراً وقبلها كان يتبعنى راكضاً لا يكثرث لما ألقيه فى
طريقه، ثوراً هائجاً بأنياب ذئب وعقل ثعلب وحقارة الضباع..
فتح أزرار قميصه ليزيد من رعبى وارتجافى، أصبحت حبيسة بين
المكاتب المصطفة أمامى والحائط الواقف خلفى وطريقى الوحيد للهرب
يسده جسده الضخم!

كان البكاء هسترياً والصريخ يوقظ من ماتوا ودفنوا، جاء فى رأسى
هاجس هل صوتى ضعيف لا يصل لعم ممدوح حارس المطبعة وخفيها
أو شارك المدير جريمته؟!

مرت اللحظات وكأنها أيام ثقيلة من دهر لا يجوز عليه سوى السب
واللعن..

..... مساكن أهل الهوى=

هجم بكل قوته على جسدى أمسك بذراعى وحاول تقبيل وجهى
ورقبتي وقطع بلوزتي بأسنانه، لكننى قاومت مرة وأخرى، أزحته بعيداً
لكن عضلات ساعدى ضعيفة أمام ذلك البرميل المتحرك فسقطت!
سقطت على الأرض وسقط فوقى يلهث ككلاب الصيد..
وأصبح البكاء والنحيب هيسترىا، ودار أمامى شريط يعرض فيلماً قصيراً
عن حياتى، وكيف لنجاة النجاة الآن!
فيده الباردة تمسك هنا وتعتصر هناك وجسدى يزداد نحولاً وتخور
قواى، أحاول غلق ساقى.. لا جدوى!

فالقائل متمرس، اعتاد خطف الأزهار وقطف الورود وتفنن بالسفاح!
لوهلة واحدة أضاء كل شيء فى عيني وجاء المدد ودبت بجسدى
شعريرة النشور، وغازلنى نصل حاد يستخدم لتنظيف مخارج الخبر فى آلات
الكتابة، لم تكن وظيفته السابقة ذات قدر كبير، كالآن..
التقطته مسرعة من تحت المكتب المجاور وبعزم ساعدى الأيمن وقبله
عزم جسدى كله غرخته، وانفجر ينبوع دم من أسفل عنقه وسال على كتفه،
تيقنت بأنه دم ملوث، كصوته الذى ارتفع يصرخ ويتألم ويضرب يده
الأخرى التى لم يضعها على جرحه وأنا أضحك وأغوص فى ضحكات
هسترية..

مال بجسده بعيداً عنى إلى الحائط متألماً، ممسكاً بعنقه يصرخ ويسب فأرد
عليه سبابه وأركله بقوة فى بطنه ووجهه نزعت درج المكتب الخشبي حين
أحسسته قادراً على مواصلة هجومه وألقيته بكل قوتى على وجهه البغيض

فتحطم خشبه كما تهشمت أنفه وزاد صراخه وزادت ضحكتي المنتصرة..
تلمست جسدى أبحث عن صوابه عليه فأزِيل برودتها بل أردت تمزيق
تلك الأماكن بأظفري التي لم تفلح مسبقاً في التخلص منه..
ما زال صوته يئن، وصياحه يزيد ولا أكف عن ركله كلما شعرت بغیظ
وحنق، وما أكثر ذلك!

عدلت من ملابسى بسرعة وغسلت وجهى وأخذتني نشوة الانتصار
فتبدلت مشاعرى المنكسرة وحالتى الهيستيرية إلى أخرى لا أعرف معناها،
قوة وغضب واستنكار من كل شيء ونفور حتى من ملابسى التى تغطى
جسدى المنهك..

قبل أن أغلق باب الغرفة خلفى وأغادر ذلك المكان المشؤم تاركة ذلك
البرميل يلهث ويصرخ ويتوجع كان صوته ينهال عليّ بالسب واللعن
والتوعد، لكنى لم أهتم، بل غادرت بأقصى سرعة..

هل كان الجو باردًا؟!، أو جسدى يحمل برودته أسفل جلده؟! الجميع
يأتى ويذهب فى الطرقات بملابس صيفية خفيفة لا يشكون البرد ولا ترتجف
عروق أيديهم مثلى..

كان الأتوبيس بغیضاً أيضاً بالنسبة لى فهو أوه سيصبح مكتوماً ويشاركنى
به كل ركابه جالسين كانوا أو واقفين..

ترجلت وحدى على الأرصفة أتابع مشهداً ينتهى نهاره بنزول ستائر
الليل فتتبعها أضواء المصابيح وكشافات السيارات..
وأنا مله الصلبة لا تزال على جسدى ونظرتة وأسنانة وشفتيه كل هذا

أخذته معي وحمله جسدى المسكين..

على مقعد خشبي بحديقة عامة تطل على قصر مهيب لأmir عاش زمناً
يأمر وينهى ويلتمس الجميع رضاه ولم يخطر بباله ساعة أن يُطرد من خلفه
ويحال منزله إلى مزار تدخله بتذكرة فتدوس أرضيته وتمر بحديقته دون
خشية أو مواردية، جلست ومددت ساقى فى الهواء الطلق..

أتأمل القصر وأنخيل شكل مالكة القديم، طويل القامة له شارب مفتول
وعين حادة، وماذا عن أخلاقه؟!

ينتظر الربح من تجارة العرض أم يبنى ثروته من عضد العامل وتزيد
أملكه من قوت الفلاح؟!
لا أدرى.. لا أدرى...

أهو سيد جسدى ليقتمحه وقت ما يشاء، أم ذلك القانون فرض على
أجساد الفقيرات والكادحات؟!

لكننى لست بالفتاة المستضعفة، انتصرت عليه وتركته مدغدغ الأنف
فاقد الوعي وجرحه فى العنق سيشهد كثيراً على خسته أمام مرآته وخلف
ياقته، عند الاستحمام وحتى فى لياليه الحمراء سيرز الجرح وشماً ساخراً
منه..

زادت البرودة فى عروقى وأحسست بشوق لغرفتى وسرى فقطصدت
البيت مسرعة وبعده الحمام..

خلعت ملابسى كلها ونزلت تحت المياه المتدفقة من الدش أغسل جسدى
جيداً بهاءٍ باردٍ حيناً وحيناً آخر بهاءٍ ساخنٍ، أحاول نزع آثاره عن جلدى..

غسلت رأسى جيداً وكأئننى أخلع من ذاكرتى الساعات الماضية..
ولم تكن شهيتى قادرة على بلع أو هضم بل رؤية حتى شكل الطعام..
نمت كثيراً، وراودتنى أحلام وكوابيس رأيت هاشم وعلى وفزعت لدى
رؤية نشأت..

أسرعت ميادة نحوى تسألنى وتحاول احتضانى فأرجع إلى نومى مرة
أخرى دون رد أو إجابة

وبقيت فى منزلى يومين لا يزورنى أحد ولا أعرف ماذا يحدث فى الخارج..
وفى اليوم الثالث جاء عم فوزى المخبر إلى البيت وهو أحد أصدقاء
والدى القدامى، أخبره ببلاغ مقدم ضدى فى قسم قصر النيل وقد علم ذلك
من الصول عبد الحميد شقير، نادانى والدى مسرعاً متلهفاً يتعثر فى جلبابه
الطويل، وحكى لنا المخبر تفاصيل البلاغ..

الأسبوع الثانى دون عمل فى الجريدة، ما زالت خيوط منتصر سحاب
تسيطر على نتائج التحقيق، حاول الأستاذ مهنى المساعدة لكن لا فائدة..
أيضاً لا شىء مهم، فليستمر المشهد إذن فى نسج مراسمه العبثية، سأجهز
حقيبتى لأسبوع أو اثنين وأغادر إلى الإسكندرية، ربما أستطيع إكمال حلقات
«المحروسة»، أرى نفسى روائياً كسولاً، فعدد هذا الشهر اقترب من الصدور
ولم أنه صياغة حلقة الرواية بعد.. وصل صوت الحاج حامد الصعيدى إلى
غرفتى وامتد إلى سريرى ومنه إلى أذنى:
«على...يا على.. يا على يا عزيز»...

فركت يدى جفونى الملبدة ببقايا النوم ونهضت إلى النافذة المطلة على
سنتراله...

- أيوه ياعم حامد.. قلت مستفهماً.

- بوسطة يا على.. جواب من الكويت..

قال ثم جلس على مقعده الخشبي، سيرسله مع سيد القص صبي القهوة،
وافقته وانتظرت الصبي صغير الجسد كبير الرأس صاحب العشرة أعوام أو
أزيد قليلاً...

تمثل أمامى شبح كريم ثروت وصديقه المصور قبل فتح المظروف وقراءة
أسطره..

جواب من ورقتين ومعه صورة فوتوغرافية لطفلة صغيرة تعض أناملها وعيناها ترتجف خوفاً، وهذا ما جعلها تلتصق بجدار شبه محطم، كتيابها المقطعة تماماً..

فتحت الورقة الأولى مكتوبة بالرقعة..

«عزيزى على..»

يطمئن الجميع على صحته وصحة فيكتور، ويتحدث عن وضع العمل داخل أجواء الحرب، يسأل على أحوالى وعن مضايقات متتصر سحب، هل ما زالت مستمرة؟!!

أكملت قراءة الرسالة الأولى وفي سطورها الأخيرة، أخبرنى أن الورقة الأخرى هى مقال كتبه فى لحظات ضيق لقطتها كاميرا فيكتور ملاك ووثقتها فى صورة الطفلة وابتسامتها المذبوحة، حملنى مسئولية نشر المقال ومعه الصورة..

لا أعرف السبب المحدد الذى منعه من إرسال المقال والصورة إلى الجريدة مباشرة، لكن هذا لا يهمنى كثيراً..
استجمعت تركيزى لقراءة المقال بدقة..

«وفى واقع مرير فى سبعينيات هذا القرن، كانت الحرب الأهلية فى لبنان لأكثر من خمسة عشر عاماً، يعلم عنها صديقى المصور فيكتور ملاك الكثير، فشارعه الصغير وضياعته الهادئة أصبحت منطقة لا يُعرف ليلها من نهارها، لا نوم ولا هدوء، صوت مدافع وأزيز طائرات وزخات رصاص، قلوب محطمة وجلود محرقة ووجوه ضاعت معالمها وسط بحور الدم هنا وهناك..

..... مساكن أهل الهوى=

اليوم وفي تسعينيات هذا القرن الذى يأبى السلام بكل أشكاله، وفي دولة صغيرة لا تتسع شوارعها للمدركات الحرب، جئت مع عدسة فيكتور ونزلنا إلى ساحة المعركة المصطنعة والمعدة سلفاً من دولة أخرى تتحدث نفس اللغة ولهم نفس لون البشرة بل نفس الأديان، كل شىء قريب ومتشابه، لكن هنالك حرباً، وحرباً ضرورياً، قصف مدفعى وبالطائرات هجوم بحرى وبرى، وجيوش من العرب والعجم، ولا شىء يرتفع صداه سوى القتال! الطفلة المرفقة صورتها تدعى هادية، عراقية تعيش في الأراضي الكويتية، أبوها طبيب في مدينة العبدلي وعمها ضابط برتبة رائد في القوات البحرية العراقية!

ليست تلك مزحة عزيزى القارئ فخالها أيضاً ضابط لكنه في سلاح المشاة، والدها يطب جرحى الحرب الكويتيين وخالها يرافق عمها الغزو! هى لا تدرك تلك المأساة لكنها تعلم جيداً أن العالم لم يعد مكاناً مناسباً تأمنه على أحلامها الصغيرة..

هذا الجدار خلف ظهرها حطمه قصف صاروخى من يدري لعل عمها من شد فتيل المدفع وخالها يستعد الآن لاقتحام المدينة شاهراً رشاشه مطلقاً قوالب رصاصاته، لتسقط جرحى فيحاول جاهداً والدها تضميد تلك الجراح..

لا أعلم أهى رومانسية الحالم التى أتحدث بها، أم جهل بالنواحي الإستراتيجية للدول، دعونا نطلق عليها مشاعر صنعتها الحرب داخلي.. لماذا لا نتخلى عن الرقصات الجنائزية ونبحث عن أخرى، نتحدث فيها

..... مساكن أهل الهوى=

قليلاً فلا نترك الفرصة لوزير صهيوني أو دبلوماسي أمريكي لبث سمه داخل العروق..

نجلس فنقول: «أنت أخطأت.. وأنا أيضاً.. لنبنى ماهدمناه للتو»..
ما العيب إذن؟!

كريم ثروت - الكويت 1990

العيب يا صديقي، أن العالم قد يحتمل الحرب لكنه لن يحتمل الاعتراف بالخطأ، والأمر ليس اعترافاً بالخطأ، هي مصالح وأموال وسيطرة أهم بكثير لديهم من طفلتك وصورتك، أهم من قلمك وعدسة صديقك، بل أهم من حياتكما لو أردت!

أصبح لدى مشوار قصير إلى الأستاذ مهني قبل السفر أسلمه المقال والصورة وهو قادر على نشره في الجريدة ليصبح غداً أو بعد غد على صفحاتها الأولى..

جردت ذاكرتي بعض الفنادق القديمة التي اعتدت الإقامة بها ليلة أول ليلتين خلال زيارتي للإسكندرية، معظمها في المنشية، وأبى أيضاً هناك، لكن من الصعب الإقامة معه تلك الفترة فهذا يعني أسئلة كثيرة واستجابات من الجيران واقتراب لخطر ما لا أعرفه بالتحديد لكن الأهم أنا أحتاج الجلوس بمفردي تلك الفترة، أحتاج غرفة في فندق لها شرفة أطل منها على حركة المارين وفي الليل قد أقسم كورنيش المنشية مع فتاة أتعرف عليها بالصدفة أو فتاة تنتظر نصيبها الليلي من الذكور طالما جيوبهم تحمل بعض النقود، وربما مع أفكارى ودفترى وكوب شاي..

..... مساكن أهل الهوى=

شارع البوسطة القديمة وفي بدايته فندق جلوريا، وعلى اليسار واليمين حياة أخرى عريقة تطل بتراتها على حاضرننا، فذاك حى المنشية ويلاصقه محطة الرمل، الطرق المعبدة بالتاريخ والأرصفة ذات العقود والقرون وذلك الفندق هو مقصدى..

جلس رجل أشيب الشعر خلف مكتب صغير فى صدر غرفة الاستقبال، وضعت حقيبتى على الأرض وألقيت التحية ثم جلست على الكرسي الشاغر أمامه، لم يرد تحيتى فربما سمعه ثقيل!
صافحته واعتدل فى جلسته فقلت بصوت عالٍ يطغى على صوت الضوضاء فى الطرقة والغرفة المجاورة ويصل إلى أذنه: كنت عاوز غرفة لمدة أسبوع سرير واحد تطل على الشارع..
نظر إلىَّ الرجل بتمعن وضحك ضحكة جافة كالسعال وقال:
معندناش..

تفاجأت برده ولهجته التى تشبه شخصًا يطرد آخر غير مرغوب فيه، لكنه أكمل مسرعًا: هو النهاردة موسم الهربانيين من القاهرة ولا إيه.. مش أنت من القاهرة برضه يا ابنى..

لم ينتظر إجابتى بالإثبات أو النفى وتابع: فى واحد لسه من ساعة بس واخد الأوضة الفاضية..

- موسم الصيف أكيد.. شكرًا يا أستاذ..

جاء فى رأسى فندق مشابه اعتدت عليه بمحطة الرمل فى منتصف شارع سعد زغلول، عمارة قديمة أيضًا على يمينها محل البن البرازيلى، بينما الفندق

فى الدور الثالث فوق مكتب جريدة المساء بالإسكندرية.. فندق كليمنتس هاوس..

تلك المرة كانت فتاة شابة هى مسئلة الاستقبال وكان وجهها بشوشاً رغم مساحيق التجميل والأجمل هى ردودها اللينة، لديها غرفة خالية لها شرفة تطل على الشارع..

وافقت بالتأكيد وأعطيته حساب السبعة أيام وأخذت المفتاح بعدما ملأت بعض بياناتى بسجلها، ونادت على عامل فى مقبّل العشرينيات ليرفع عنى الحقبة ويوصلنى إلى باب الغرفة..

غرفة مثالية لطبى، سرير كبير ودولاب وطاولة صغيرة، مروحة مكتب وستائر كاتمة اللون معلقة على باب الشرفة، أزحتها جانباً وفتحت الباب ووقفت بالشرفة قليلاً أرى المنظر الذى ستألفه عينائى لمدة أسبوع وربما أطول!

أرى مباشرة منفذاً للهيئة العامة للكتاب أمام الشرفة على الناحية الأخرى من الشارع ورائحة البن البرازيلى تعبق الغرفة وأستنشقها بشدة طالما أقف بالشرفة، حتى سيارة الأجرة بألوانها الصفراء والسوداء أراها محببة لنفسى جداً..

عدت إلى الغرفة مرة أخرى، وضعت ملابسى على رفوف الدولاب، وألقيت بجسدى على السرير، أريحه من عناء السفر الطويل..

كانت الثامنة إلا الربع عندما استيقظت، الحمام صغير جداً، مرحاض ودش وحوض ضيق، غيرت ملابسى بعد دش بارد ونزلت إلى ردهة الفندق

..... مساكن أهل الهوى=

حيث موظفة الاستقبال الودودة...

ألقيت ابتسامة تنجح في فتح طريق للحديث بالطبع، فتأهبت لتلبية طلبى كنزىل جديد...

- أظن مفيش توقيت محدد للرجوع بعده ما ينفعش.. صح

- آه يا أستاذ براحتك جدًا، بس الوردية بتتغير الساعة 9 بيستلم هنا مكانى شاب اسمه عصام..

- أنا كنت هنا من أربع سنين وكان آخر معاد للرجوع لينا كان الساعة 11، كنا طلابًا لسه.. قلت وأنا أنظر فى ساعتى بحركة عفوية..

- الطلبة لسه ليهم نفس التعليمات دى وبتكون فى الشتا دايماً..

أومأت برأسى دلالة على الفهم وسألت: مفيش فطاطرى هنا يكون بريمو تنصحى بيه؟!

- عروس البحر بس ده بره عند الميدان، أحسن فطاطرى فى المنطقة، أحسن عنده الجمبرى..

- حلو جدًا، شكرًا لىك آنسة..

- مريم يا أستاذ على..

- على بس من فضلك وأنت مريم بس..

- اتفقنا..

جددت شكرى لها وانطلقت خارجًا إلى المطعم..

أخذت يمينى إلى شارع ضيق صنعته بنائتان متوازيتان وينتهى بكشك حراسة يجلس به شرطى وصديقه لنوبات حراسة البنك العربى الكويتى،

سألته عن المطعم فأشار إلى صف من المحلات بميدان سعد زغلول على
يمين التمثال المهيب الواقف كمنار بعيد عن الشاطئ..

فطيرة الجمبرى كانت جيدة، ذلك شىء حسن، لكنه يحتاج لكوب من
الشاي أشربه على مقهى القبطان، أقدم مقاهى شارع النبی دانيال وأزور
صديقا قديما اشتقت له كما اشتقت لكل شىء بعيد تأتى عليه الأيام فيزداد
بريقه وتزداد لوعتي له..

جلت بعيني نحو اليسار واليمين فى مستوى بصرها وفى أعلى نقاط الرؤية
من شارع لآخر إلى ميدان، أرى تلك العمارة الأثرية وذلك المبنى الضخم
العتيق فأتعجب للمطاعم التى شوهدت وجهتها عبثاً بمدخنة قاسية متوحشة
لا تدرك عن التراث شيئاً، أو اللافتة البغيضة التى حولت مبنى عبقرياً ذا
تاريخ وتصميم فريد إلى مصلحة حكومية ومقرّاً ضخماً للروتين!

لكنها المنشية.. روح إسكندرية وتاريخها، قد يكون قلبها الحقيقى فى
أغاني وألحان سيد درويش وعقلها اليقظ فى قصيدة ليرم التونسى لكن تلك
هى المنشية، هى إسكندرية القديمة من محطة الرمل للنبي دانيال، الصيادون
فى المكس والعشاق فى سان إستيفانو وعلى ستانلى!

هى إسكندرية وأنا من يجول بها، أرى شقراء فى بنطال ضيق لكن هذا
ليس بالشىء المثير، إنها قصة شعرها الأكثر جمالاً ونظرة عين صديقتها
الأشد فتنة أمام مطحن بن سيفانوبولو على ناصية شارع أديب بك إسحق،
ربما كان بك كبيراً لكنه رحل وظلت المنشية!

هى أحياء تعيش فينا، تعيش بجوارحنا، يملو عندها الغناء كما تحتوينا

عند الصراخ والألم..

أضواء المقهى تتوهج كلؤلؤة في جوف بحر، وحول أنوارها التفت الكراسى والطاولات في نهاية حارة تتفرع من شارع النبي دانيال، استقرت تلك القطعة الصغيرة، تتراقص فيها أحجار النرد مع جمرات الشيشة على أنغام زوار يتسامرون في الليل والنهار، أسرع إلى نادل من ثلاثة على ما أظن يطوفون بالقهوة حول الزبائن، حمل طاولة صغيرة دائرية القرص ومقعدًا خشبيًا ووضعها حيث أقف على يمين القهوة، طلبت حجر شيشة وكوب شاي، سألته على منزل شاب يدعى أحمد عز الدين بلال، أعلم أن منزله هنا لكنني لم آت إليه ولا مرة، كانت لقاءتنا على تلك القهوة، جاوبني النادل وهو يضع الشيشة أمامي: حضرتك تقصد أستاذ أحمد بتاع المسرح، قصير حبة كده وشعره طويل وقمحاوى شوية صح..

- بالضبط كده هو تمام، بيته فين أو مال؟! -

- بيته هنا يا باشا ورا محل الخردوات الى قدامنا ده، بس مش هتلاقيه دلوقت، بيرجع متأخر حبة..

تناولت كوب الشاي وراق لي مذاقه وقلت: ماتعرفش شغله فين طيب وبيرجع منه إمتى..؟

- آه يا باشا، بيشتغل في مسرح الترويكو جنبنا هنا في المنشية في ميدان سعد زغلول، مش عارف والله بقى بيرجع إمتى مالوش وقت معين..

شكرته ووضعت مبسم الشيشة في فمي أشد أنفائها في صمت وترو، هاهي المنشية مرة أخرى تجود علينا بعمل لفنان مسرحي ربط حياته بخشبة

المسرح وستاره..

مرت ساعة تقريباً وبدأ الملل يصل إلى رأسى ولم أكتب شيئاً بدفترى..
ناديت النادل، اسمه سعيد، أعطيته الحساب وانصرفت إلى أمرين لم
أحسم قراراً أيهما أبدأ به، مسرح الترويكو أم شارع القائد جوهر وزيارة
مفاجئة لوالدى..

أخذت قدمى القرار نيابة عنى وانطلقت إلى الميدان قاصدة المسرح
والصديق القديم..

صديقى القديم، عز الدين بلال أو بلاليو كما أطلقنا عليه، كان طالباً فى
كلية العلوم، اهتم بحركة الكواكب والأقمار لكنه أحب المسرح أكثر وعشق
الفن والتمثيل، أظنه لم يغفل مرة واحدة أثناء تدريبات فريق المسرح الخوض
بهم فى علم الأجرام السماوية والفيزياء وحركة الكون، فيقول إن المسرح هو
الكون، خشبته هى المركز أما الجمهور فهى الكواكب الصغيرة تختلف من
مجرة لأخرى ونحن النجوم نظهر لهم عند المركز ليراقبونا، يزيح شعره جانباً
ويقول ذلك التمثيل غير علمى ولكنى أميل له بصفتى الفنية أكثر، أطلقنا
عليه بلاليو، وأصبح بلاليو هو جالليو فرقنا المسرحية!

أوقفتى مسئول الأمن قبل العبور ببوابة حديدية كبيرة خلفها طريقة تصل
إلى باب خشبي يقود إلى داخل المسرح مباشرة..

- حضرتك جاى لحد معين؟!، قال فى ريب..

- آه أنا جاى لبلاليو..

- مين يا فندم، اكتسى وجهه بالريبة تماماً..

..... مساكن أهل الهوى=

تداركت الأمر وقلت موضحًا: أقصد أحمد عز الدين بلال..
هز رأسه مع ابتسامة بسيطة: آه.. هتدخل من البوابة الخشب دى بعدين
هتمشى فى الممر وتدخل يمين تانى باب، هتلاقه هناك فى قاعة البروفة..
سلكت الطريق كما وصفه تمامًا، طرقت بأصابعى بابًا ملونًا عليه لافتة
بيضاوية صغيرة «البروفة».. فتح لى الباب شاب يصغرنى بستة أعوام أو
سبعة تقريبًا أشار بالصمت وأدخلنى عندما أخبرته أنى صديق قديم لأحمد،
لكنه أجلسنى على أحد المقاعد المتراسة فى مؤخرة القاعة ونبه علىّ أن الأستاذ
- كما قال - لن يستطيع ترك البروفة الآن فالمسرحية ستعرض بعد الغد وهذه
البروفة الأخيرة قبل العرض!

لم أعارض بالطبع تعليماته بل اندمجت مع العمل المسلط عليه ضوء
القاعة، لم يتغير بلالio نهائيًا، نفس الأداء، الصوت المميز، بدا مضحكًا قليلًا
فى ملابس البهلوان تلك.. الفصل الأخير من المسرحية!

خرجت مسرعًا من القاعة وأشرت إلى الفتى، فتبعنى أخبرته عدم رغبتى
مشاهدة الفصل الأخير، فلدى رغبة قوية فى الحضور بعد غد والاستمتاع
بالعرض كاملاً، سأنتظر فى الخارج عندما ينتهى أحمد من عمله خبره أن على
عزيز سالم ينتظرك..

جاء مسرعًا ممسكًا بسيجارته يضبط ياقة قميصه ويقبل علىّ بسعادة
حقيقية ملأت عيناه وينادى بصوت عالٍ أسمع كل من فى المسرح: على عزيز
هنا.. على المؤلف ولا الصحفى ولا على اللى ماعدش بيسأل علينا..
- أنا جايلك لغاية عندك أهو وواحشنى جدًا، قلت ونحن نتعاقب..

- تعال تعال واقف بره ليه، تعال أعرفك على أفراد الفرقة..
نظر إليّ ملياً ثم أردف: ليك وحشة يا على، أنت هتسهر معايا النهاردة،
بقالنا أكثر من سنة ما قعدناش مع بعض.. والله ليك وحشة..
أمسكنى من يدي وسحبني إلى دهاليز المسرح وهو يهلهل ويرحب..
دخلت معه إلى غرفة أخرى متوسطة الاتساع تنتشر بها المقاعد بشكل
فوضوى وخزانات تغطي إحدى حوائطها ويتوسط الآخر شباك كبير
مفتوح على مصراعيه يستند عليه شاب أشقر الشعر وأبيض الوجه يدخن
بشراهة..

«يا جماعة أحب أعرفكم بمؤلف الجامعة، المؤلف والكاتب لفرق مسرح
الجامعة لمدة تلت سنين كاملين وشغال دلوقت صحفي ولسه بيكتب بس
روايات.. على عزيز سالم» قال بلال..
أحسست بلهجتة المسرحية وكأنه يعطيني دفعة معنوية أمام جمهور
جديد، وقد كان.. رحب الجميع بشغف وشعور دافئ..
«تشتغل معانا ياعم بقى ونبطل شري المسرحيات من مؤلفين بيعوا حتى
الهوا اللى بيتنفسوه» قال الشاب الساند على النافذة..

ابتسمت مرتبكاً من حديثه فأسعفنى بلاليو قائلاً: أعرفك مصطفى
العربى مثل معانا وكاتب سيناريو، أظهرت له الاحترام وبادلتة التحية
والمصافحة..

طويل القامة ذو شعر أسمر كثيف والبشرة الشمعية «يوسف شهاب»
مخرج الفرقة، وأخته ذات العينين الواسعتين والشعر الأسمر أيضاً كليل

..... مساكن أهل الهوى=

دافئ، لها جمال ساحر راوية شهاب، كلاهما من الشام، حتى ركن الدين
بدمشق، والفتاة الأخرى صاحبة الشعر الأصفر بتسريحته الكاريه الفرنسية،
سارة عثمان عازفة الكمان ومسئولة الموسيقى بالفرقة وممثلة أيضاً.. هؤلاء
الفنانون يمثلون فرقة روبايقا المسرحية..

ابتهج قلبي لهم جميعاً وبادلتهم شعوراً صادقاً بالألفة، لم تطل جلستنا
سويًا فالليل قد انتصف تقريباً وبدأ الجميع في الانصراف..

«واحد شاى سكر برة، حجرين، واحد قهوة سادة» طلب بلال بمجرد
جلوسنا على طاولة ملاصقة تمامًا لجدار القهوة هذه المرة، أسند رأسه إلى
الحائط مباشرة وأجفل عيونه، بينما أراقبه، أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول: إيه
الأخبار يا على، إيه اللي رماك علينا ياعم بعد الغيبة..

- تقدر تقول إجازة من الشغل بس إجبارى حبتين..

- انفصلت

- لا اتوقفت..

اتسعت عيناه دلالة على دهشة تبعها ارتفاع لحاجبه الأيسر: ليه يا على، أنا
كنت بتابع شغللك وكنت ببقى فرحان بيه..

- أهو.. شغلي بقى الى وقفنى ما علينا، أنا كمان عاوز أخلص الرواية
فقلت أحسن، أرتاح حبة وأقعد هنا أسبوعين أخلص فيهم الرواية..

- عاوز اقراها كاملة، أنت عارف مابحش الحلقات المتفردة..

- ماشى، قولى صحيح اسم المسرحية إيه..

- بيان هام، هنا كعبلان

- أحمد فؤاد نجم!
- آه ووعدنا كمان أنه هيحضر العرض الأول..
- حلو جدًا جدًا.. قطعنا سعيد يضع المشروبات ويذهب يأتي بالشيشة ويعود يرص حجارتها جيدًا ثم ينصرف..
- مين المؤلف.. عدت للسؤال من جديد..
- كاتب من دمنهور هنا من جنبنا عايش فى القاهرة بعهالنا بكثير وما استناش حصيلة العرض، بس إحنا غيرنا اسمها، ما تفكر فى الكلام اللى قاله العربى وتشتغل معانا..
- أنت مافضلتش فى القاهرة ليه، ورجعت إسكندرية تانى، ولما أخوك الكبير سافر عمان ماروحتش معاه ليه؟!!
- وأنت ماسافرتش إيطاليا ليه مع بنت خالك ده، صحيح هو عامل إيه؟!!
- ماهر شعراوى مقاتل سابق وشرف العسكرية المصرية!
- فاكر يلا ياعلى لما اتمسكنا آداب فى شقة عايده، وخالك طلعلك ومارضيش يطلعنا..

ارتفعت ضحكتي ومعها رشفة من كوب الشاي واستحضار للموقف، كان جمال صاحب الفكرة نذهب الليلة لشقة عايده فى المقطم، وفى نفس الليلة نقضيها بحجز قسم المقطم، وفى صباح اليوم التالى يأتى خالى ماهر ومعه سواقه الخاص يتوسط لإخراجى ويصيح ضابط الشرطة «المفروض تكون أكثر التزامًا من كده، مش معقول يكون خالك مقاتل سابق ويمثل شرف العسكرية المصرية وأنت ممسوك فى بيت دعارة»، لم يكن معروفًا عن

والدى اعتقاله أو أى شئ آخر!!!

دخلنا فى صمت لبرهة نترك الحديث لشفاها تترشف أكواب الشاى
وأنفائنا تعبث مع قارورة الشيشة..

قطع بلال الصمت: تفتكر إحنا إزاي ماسكين فى شوارعنا ومدنا كده،
ده حتى إدوارد لبيب مارضيش يهاجر لألمانيا واشتغل هنا موظفًا فى قصر
الثقافة فى سموحة.

- أقولك ليه.. إحنا المدن دى ما نقدرش نبعد عنها، إحنا مواطنين بدرجة
فنانين أو فنانين بدرجة مواطنين، أيها أصح يعنى..

أفرغت ما تبقى فى كوب الشاى جرعة واحدة وأردفت: فاكتر توفيق
الحكيم لما اتكلم عن مونبارناس..

- ومونمارتر.. قال مقاطعًا.

- مصايد لاقتناص المال من جيوب الثراء..

- حى السائحين..

- أينما ظهر وا يظهر البذخ والكذب والادعاء..

- بس ماتنساش يا صديقى إن القاهرة والإسكندرية هى مدن للسائحين..

جاوبنى بعصبية: لا يا على القاهرة وإسكندرية مدن قايمة على روح أهلها
وتاريخها ما بتخدمش على السياح، بتعتبرهم ضيوفًا بس، مابتسرقهمش،
بيسجوا هنا يشوفوا الحضارات اللى اتبنيت تحت الشمس..

إنه الصبح تمامًا ما يقوله صديقى الفنان فالمدينتان لا تلعب أي منهما دور
الغانية الساقطة التى تسهر أكثر من ثلثى الليل أو كله تسلب ما فى جييك

وتضع أناملها المصطنعة فوق يافتك وأسفل رقتك وعلى صدرك وعلى
ظهرك وتمررها فوق بطنك وتستقر بين فخذيك فترى مكامن قوتك تسرق
منها الحول والعزم وتظل وحيداً بارداً لا تراها في الصباح فروحها العميقة
انشغلت ليلاً بالكشف عن أسرار الحب المزيف للعشاق المغفلين!

إنها مدن تعرف المثل تؤمن بالفكرة والحقيقة العليا يسكنها الفن ويحج
إليها الفنانون فلا يجدون نعوت توفيق الحكيم الثلاثي الذي يهرب منه كل
عاقل صاحب قلب، البذخ والكذب والادعاء..

بدأت تواشيع الفجر ومعها جاء سعيد، بالطبع ستغلق القهوة أبوابها
الأربع أو الخمس ساعات المقبلة..

تولى بلال عنى الحساب، تأبطت ذراعه وبدأنا رحلة أخرى نطوف بها
الشوارع تبصر أعيننا المصلين يهرعون إلى المساجد يذكرون الله قياماً وقعوداً،
بهدوء ومكر أشرت لبلال وقلت: أنت غيرت رأيك وبقيت تصلى يا بلاليو..
رفع رأسه قليلاً إلى السماء: أنت مصدق؟!

- سييك منى، أنا بسألك أنت؟!

- الظاهر كده إننى هفضل مش مصدق، تعرف إنى جربت..

- بس تهت وماوصلتش برضه هو عيسى ولا موسى ولا محمد!!

- الأول آمن ياعم بعددين تتحل..

ابتسم قليلاً وهو يسحب ذراعه من ذراعى ليشعل سيجارة، وقال: حتى
دى مش عارف!

- محدش عارف يا بلاليو..

- أنت مؤمن يا على صح؟

جلسنا الكثير على الكورنيش نولى ظهورنا الأسفلت وفوقه السيارات
المسرعة وعلى جانبيه أعمدة الإضاءة ولافتات الإعلانات وإشارات المرور
وتعليقات السير..

وأمامنا البحر يموج ويموج ولا يخفى سر لديه، يوجد بما في قلبه بكل
موجة فيجعلني أكشف سرى لصديقي وأخبره أن والدى هنا في الإسكندرية
قد هرب من السجن وابتوى رفع قضية، وأيضاً صديقي يخبرني بحبه لسارة
بنت خالته، لكنه لن يخبرها الآن هي لا تزال صغيرة لم تذهب بعيداً عنه حتى
ترى غيره، لربما توافق على حبه أو تبادله نفس الحب فيحرمها من تجربة
تستحقها واختبار آخر، لم يصارحها بعدم إيمانه حتى الآن، يقسو على نفسه
كما تقسو تلك الأمواج على رمال الشاطئ وصخوره تذيبها وتتخلل ثناياها..
وبدأت ساعات النهار في السطوع وبدأ يوم جديد يعلن عن قدومه ومعه
نعلن عن انتهاء يومنا، دعاني للنوم عنده، لكن غرفتي في كليمنتس هاوس
في انتظارى..

رجعنا عبر الحارة الضيقة ومنها إلى شارع النبي دانيال..

- يعنى تبقى عايش فى شارع زى ده وملحد يا بلال، يا راجل ده التلت
ديانات قدام عينك ليل ونهار..

- تصدق.. أنا كل يوم وأنا طالع أعدى عليهم، تعرف مرة يوم عيد
الغفران كان فى حركة نسبياً فى المعبد اليهودى، معبد الياهو هانبى، قلت فى
نفسى، ليه مايكونش العهد القديم والتوراة!

..... مساكن أهل الهوى=

- اسمعنى يعنى ..

- نبيههم كلم الله وأول شعب على الأرض اتخذوا مملكة سموها مملكة الرب وكدة يعنى ..

- هو أنت أصلاً مؤمن بالرب عشان تدور مين الأقرب ليه؟!، قلت ومازالت البسمة على وجهى .

- آه منا عارف، بس تصدق ساعات كثير بكون مؤمن، يعنى أصلى فى جامع النبی دانيال، وأحضر القداس بالكنيسة المرقسية، تعرف فى يوم قریت سفر دانيال كامل كان فى 23 برمهاة بالتقويم القبطى كان يوم احتفال بنياحته.. يمكن عشان ده كله عندنا فى الشارع..

لم أشعر بالدهشة أو التعجب من صديقى الذى تدور بعقله جم الأفكار فهو القارئ والباحث الذى بحث فى الكواكب من قبل والآن يبحث فى الإيمان وربما فى الغد يبحث فى ذاته أكثر فيتحول إلى فليسوف يغالب سقراط وأفلاطون ويكتشف أنهم لا يختلفون عن فلاسفة الطبيعة فى شىء، وغفلوا أيضاً عن أهمية الإنسان..

انتصف الأسبوع الثانى كما انتصف الليل على قهوة القبطان فى تلك الساعة الليلية، زرت والدى بالأمس كما زرت إدوارد لبيب من أيام وعادوته الزيارة مرة أخرى بالأمس أيضاً...

أصبحت عضواً فى فرقة روباكيا المسرحية، ومن قبلها صديقاً لجميع أفرادها، وزادت صداقتى برواية شهاب..

سأقابلها غداً ظهراً، سنجوب شوارع الإسكندرية كلها سوياً سيراً على

..... مساكن أهل الهوى=

الأقدام وفي الليل ينتهي بنا المطاف بكورنيش سان إستيفانو أو بملهى برادلى
في المنتزه، لا أعرف تحديدًا، غدًا نقرر!

سأرحل في نهاية الأسبوع بعد عرض المسرحية على مسرح التونسى،
سأودع الأصدقاء ومعه تلك المدينة..

فإلى كورنيش المنشية أمام نصب الجندى المجهول تمامًا جلست ولكن
هذه المرة وليت البحر ظهري وأعطيت الشارع عيني!

وارتفع زئير الموج يلاطم نسائم الهواء فحركها لتلغع وجوه المارة
والجالسين، العشاق والمنبوذين لا تفرق بين صاحب المرسيدس والمترجل
دون قرش صاغ..

رأيته من بعيد يعبر الشارع حذرًا، أقبل نحوى وابتسامة فوق شفثيه
تضفى جمالاً على رأسه الصغير لكنها لا تخفى جروحًا غائرة وأخرى سطحية
وأوشام مهيئة طبعها المجتمع عليه، فجعلت من وجهه مطية لتقلبات الأمزجة
وتجبر المحتالين والنصابين، وعلى كتفه الأيمن استقر صندوق خشبي، وفي
يسراه أمسك بقماشة قديمة، لا تختلف كثيرًا عن قميصه المهلهل، الذى يظهر
أكثر مما يخفى..

لا أعلم سر ابتسامته لكنها دفعتنى للابتسام، أرخيت قدمي ووقف
فجث على ركبتيه واضعًا صندوقه بجواره، أخرج مسرعًا بعض الزجاجات
وفوطة متهاكة وقال بصوت مبحوح ممتزج بالفرحة وسط ألمه وشقائه:
ثوانى يا بيه وتكون بتلمع زى الإزاز..

سحبت رجلى مسرعًا من بين يديه وأمسكت بيده رفعتة جوارى،

فاستجاب لكنه أحكم الإمساك بقماشته، باغتنى مشهده وطلبه، ليس غريبًا بالطبع على عيني، فهم يطوفون بالمقاهى ومحطات الأتوبيس ويجلسون على الأرصفة وبين المحلات الفاخرة..

تضع قدمك على صندوقهم وتقف مدخناً سيجارة أو متصفحاً جريدة، ريثما يلمع حذاءك وتلقى له بالقليل من النقود وتغادر، هم طيبون لا ينزعجون ولا يصدر عنهم صوت، صراخهم مكتوم فى الحشا وبكاؤهم ليلي لا يسمعه النائمون والمبذرون فى الملاهى خلف الراقصات والمعربدون على أسرة الدعارة، أخذنى صوته من أفكارى مرة أخرى: فى إيه بس يا بيه، أنا عملتلك حاجة، لو مش عاوز عادى بس والله ما عملت حاجة..

وضعت يدى على رأسه فى حنو لا أعرف هل أجيده أو أشبه المجتمع وفشله، لم تغب ابتسامته وإن خفضت كثيرًا وحل خوف بعينه وترقب..
- اسمك إيه يا حبيبي. قلت متوددًا هادئًا.

رمقنى بنظرة ضعيفة: على..

- بصرة يا على، أنا كمان اسمى على.. صحت به داعيًا إياه للمرح..
- بس أنت مش على العالى! قال وعينه تبرى وأسنانه تكشف عن ابتسامة حقيقية جميلة تساوى الذهب والفضة..

- طب وأنت على العالى ليه بقى يا سيدى.. أعجبنى تغير حالته من الريبة إلى المرح..

ألقي بخرقته وجاورنى سور الكورنيش مطمئنًا مرتاحًا إلى الحديث..
- بطلع الشغل بعد المغرب وبشتغل فى الأماكن النظيفة بس، المندرة

..... مساكن أهل الهوى=

المعمورة المنتزه، كدة يعنى .. كل يوم برجع معايا فلوس أكثر من خواتى ..
تابع وهو يغيب فى ضحكة عالية أهتز لها جسمه كله، بس هما بيشتغلوا أكثر
منى بس أنا بس الى على بقى ..

- يعنى إيه الأماكن النضيضة يعنى يا على .. سألته باهتمام ..
- يعنى ناس بتدفع كتير وجزمهم أصلاً نضيضه ما تعبش فى تلميعها، أصل
شوارعهم كلها أسفلت يا باشا وبعدين، تحس إن جزمهم ريحتها حلوة ..
- والبلدية بتسييك وصحاب المحلات وكده يعنى ..
- منا بعرف أفلت من البلدية وبعدين فى كذا محل صحابه بيحبونى،
أصلى بعرف أغنى ويحبوا يسمعونى وبضحكهم كمان ..
- استنى الأول عندك كام سنة ..

- تسع سنين كده ..

- طب غنى كده ..

ابتسم فى مكر طفولى وقال: هتدفع؟

جاوبته مبتسماً موافقاً بهزة من رأسى ..

- غيرت لهجته إلى صعيدية ظريفة النطق:

«اقتد واحكيلك ع الغرام .. ع الغرام ..

تعالى وأنا أقولك على الغرام .. على الغرام ..

وكف صعيدى على الغرام على الغرام».

لم يكن يغنى وحسب بل يؤدى أيضاً بيديه رسماً للكلمات ..

تركته حتى انتهى واستمتعت به وبصوته وسألته: أنت صعيدى؟

- آه من قنا..

- لا.. من جنا، تابعت بلهجة صعيدية ككلمات الأغنية «صعيدى من جنا.. وآه آه يا بوى.. نحكيه ع المرجله وآه وآه يا بوى»
ظل يضحك وضحكت معه أخبرته أنى جائع وهو أيضاً..
أخذته معى لمطعم قريب، عبرنا الشارع واتجهنا يميناً، تناولنا عشاءنا
سويّاً وظل يسأل كثيراً..

«يعنى إيه صحفى؟! وإزاي يعنى بتكتب روايات؟!، يعنى إيه أصلاً،
وبعدين هى الروايات دى مفيدة، طب هتكتب عنى، بس أنا مبعرفش أقرأ،
بس برضه أكتب مش الناس هتعرفنى، هيقولوا على العالى، مش كل الناس
بتعرف تقرى يا باشا برضه?!»

أخذ بعض النقود بعد إصرار كبير وأخبرنى أننا أصدقاء، ولم يكن جائزاً
أن أدفع له حق ما غنى..

لكن هل حقاً تعجبك صداقتى؟!، كيف لك أن ترضى بصداقات من
ذلك المجتمع؟!

يسرق قوتك كل يوم وكل ساعة، لا يحتوى على أماكن نظيفة كما تتوهم
يا صغيرى، يحتوى على برد وفقط، ربما الشوارع نظيفة والمصاييح رحيمة
عليك فى الليل، لكن المجتمع أبعد ما يكون عن ذلك، وإن رأينا مكاناً واحداً
نظيفاً، فهو قلبك المكان الأكثر لمعاناً من الأحذية والزجاج، سأكتب عنك
وإن كنت لا تعرف القراءة، ربما غيرك يجيدها، يقرأ ما أكتبه عنك فيعرفونك
كما نحب، يقولون «على العالى»..

..... مساكن أهل الهوى=

أكتب عن ابتسامة خلفها أسنان مفرغة غير متراصة لكنها مبهجة، عن
شعر أشعث قصير لكنه يساعدك على السعادة، بشرة سمراء ولسانين،
بحرى عند الحديث، قبلى عند الغناء..

عن جسمك النحيل وكتفك الضعيف عن حذائك البلاستيكي
الردىء..

الآن قد أشكر منتصر سحاب الذى أوقفنى عن العمل لأقابلك وأراك
وتترك فى نفسى وميضاً قبل الرحيل!

تحلو الإسكندرية قبل الرحيل وتزداد فى جمالها جمالاً، تجعل شوارعها
ميادين للحب وأزقتها ساحات للحرية وإن ضاق عرضها وقصر طولها،
تحمل فى أروقتها عطراً صادقاً بمعنى تلك المرة مع «راوية»، ممشوقة القوام
حد السيف وعيناها حبتان من لوز نما شجره بالجنة، والشعر كما السحر
والروح دافئة كحلम فضى موشى بالذهب، صيغ بهاء الخفة وامتزج بالدلال،
فارتسمت على وجهها ابتسامات وضحكات عند الفرح تتوهج وعند الحزن
تحنو..

وملأت خلايا عقلها بعلم وثقافة وأضافت لروحها فناً وذوقاً لتصبح
ثورة فى صورة فناة، هل أعترف بوقوعى فى حبها، أو أنكر ذلك وبالأمس
كنت أرسمها بكلماتى وقلمى فى دفتر الملاحظات!

وأنظرها الآن فرح النفس بحلوانى «ديليسيه - delicious» على مقعد
جلدى وأحجز لها آخر جوارى، وأماننا الطريق ومن بعده البحر..
المثير للسخرية فى الأمر كله هو وجوب الشكر لمنتصر سحاب فلولا

..... مساكن أهل الهوى=

مجهوداته ما كنت هنا أنتظر تلك الحسناء رائقة الوجه، وبعد قليل نأكل
سويًا بعض الحلويات الشرقية ونخرج إلى الشوارع نجوبها ذهابا وإيابا..
حقًا وجب شكره كثيرًا!

لاح شبح خيالها في نهاية الشارع تعزف بمشيتها لونا هادئًا من الموسيقى..
جلست وبسمتها تبارك المكان وتبارك النفس، بصوتها وكأنه قيثارة تخرج
أجمل ألحانها رحبت بوجودي بعد تصافحنا وجلو سنا، أعربت عن سعادتها
وهي تنظر إليّ مباشرة قالت باسمه: تؤبرنى تؤبرنى شو بتجنن ها النظرات..
- لا كده كثير بقى.. بالشامى كمان، ده أنا بتعاكس بقى..

انفرجت شفتاها عن ضحكة واسعة ومالت برأسها إلى الخلف قليلاً:
بمعنى ممكن تتعاكس بالمصرى عادى؟

جعلها المسرح تجيد العامية المصرية، لكنى أرى سحرها في الشامية طاعيًا
فداعبتها: أنا كمان بعرف أقول تؤبرنى دى..
- شو.. بتعرف تحكى..

- كفاية كدة عليا.. قولت مبتسما ملء الوجه..

وصفت جلستنا أمام المحل يفصلنا الشارع عن البحر بالخيالية ونعتها أنا
بالمبهجة إذا ما جلست معك حسناء شامية وفي الخلفية اسم فرنسى لمطعم
أسسه يونانى يقدم حلوى مصرية!

اعترى وجهها احمرار يضيفي عليها جمالاً: دخيلك يا الله.. شو عم يحكى
ها الزلمة..

ثم بالمصرية قالت: كفاياك غزل واختارلى على ذوقك..

..... مساكن أهل الهوى=

لم أمسك بالقائمة، طلبت من الجرسون الأنيق فنجال قهوة مضبوط
وآخر سادة وقطعتين من البقلاوة وقطعتين من الكنافة النابلسية..
- نشرب قهوتنا براحتنا ونخلى الحلو بعد ساعة..

في الثالثة عصرًا كانت الشمس في أوجها تظهر بالسماء متفاخرة تلقى
بأشعتها على البحر على الطريق على السائرين والواقفين، لكنها لم ترهبها
فطلبت منى مجارة الشمس في جرأتها والسير عبر الطرقات دون مظلة أو
ستار من شارع لآخر.. فانصرفنا إلى الكورنيش..

فتحت حقيبة يدها وأخرجت صدفة من البحر ملونة، مرجاني وأزرق
أصفر متداخلة كاللوحة متناسقة كقوس قزح، قربتها من فمها وتحدثت
إليها بصوت خفيض لا تسمعه سوى تلك الصدفة، مدتها إلى يدها وقالت:
وشوش الودع يا على..

أمسكتها فرحًا بحبور كبير وأخبرتها بما في بالي وأعدتها إليها مرة أخرى،
فألقتها بكل قوة في البحر وأمسكت بيدي فسرت قشعريرة من أخص قدمي
وحتى شعر رأسي..

- تعالى نتمشى في المشية قلت وأنا أضغط على يديها بلطف..

في لقائنا الأول عرفت أنها تحضر دراسات عليا في التاريخ من جامعة
الإسكندرية، والدها مصور مشهور له ستديو كبير في دمشق وأمها تعمل
بالأمم المتحدة، جاءت أول مرة للقاهرة برفقتها كانت في الخامسة عشرة من
عمرها، تحب التاريخ والسفر والغناء...

بعد اجتيازها لمرحلة التعليم الأساسى نزلت للقاهرة أولاً وقضت سنة

بجامعة عين شمس، لكنها حولت لجامعة الإسكندرية عندما وصل أخوها إلى الإسكندرية ليعمل بالإخراج المسرحي بمسرح محمد عبد الوهاب، لم يرق له العمل، رآه مملاً خالياً من النوازع الفنية حتى قابل أحمد عز الدين بلال وكونا الفرقة سوياً فشاركتها راوية وأطلقت العنان لموهبتها..

مر سائقاً مسرعاً بجوار الرصيف يطلق آلة التنبيه، فانزونا إلى آخر الرصيف بحركة تلقائية، وأسندت جسدي إلى حائط البناية خلفي، نظرت إليّ ضاحكة وقالت: تعرف إنك لايق على شكل المبنى الى وراك... نظرت إليها متأملاً فتابعت وهي تسير ببطء لألقها: تعرف إن المباني شبه الناس.. - يعني؟! سألت باهتمام..

- المنشية مثلاً أسسها محمد على، وبنائها معاري إيطالي اسمه..

- فرانسيسكو مانشيني.. قاطعتها لأجاذبها أطراف الحديث..

- العمارات والبيوت خليط من العصر الكلاسيكي وعصر النهضة مع صبغات العصر القوطي والباروك.. أخرجت منديلاً ورقياً من جيب بلوزتها القطنية قصيرة الأكمام مسحت به جبهتها واستمرت في حديثها: هفهمك قصدي..

شرعت في شرحها تستعين بدراساتها التاريخية وحسها الفني:

البيوت تحمل صفة من شيدها وتحمل سمات العصور صاحبة الطراز والتراث، وكل يوم يمر يستقر فوق حوائطها تاريخ وعمر أخذ جلاله من السكان وعظمته من أحلامهم..

وعند بناية كبيرة أكبر من سابقتها وقفت أمامها تشبك ذراعيها أمام

..... مساكن أهل الهوى=

صدرها وتقول: الحيوية والحركة، الروكوكو، إحياء الأساطير القديمة انتهت لوصفها فأحسنت السمع كسائح في فوج يولى مرشده جل التركيز، تصف الأبنية وتقول عصر الباروك والمباني الإستقرائية والطابع الملوكى.. صفقت لها بيدى فى حركة مسرحية: شكرًا على درس التاريخ الميدانى يا أستاذة راوية، اسمحيلي بقى نتكلم فى المسرح..

- انفضل يا سياة المؤلف ..

- ويليام شكسبير مثلاً كتب معظم روائعه فى العصر ده وكان همزة وصل بين الباروك والنهضة، وكان كل الكتاب والشعراء والجهاهير كمان مقتنعين بزوال الحياة وقدرية كل شىء وعبثيته، تفتكرى نص شكسبير فى ماكبث مثلاً..

قادتنا قدمانا إلى ميدان الرصافة فعبرناه وهى ترد بصوت واثق: تقصد «ما الحياة إلا ظل يمر، ممثل مسكين يتحرك، يستعرض لساعة على المسرح، ثم لا نعود نسمعه..

استمر النقاش حتى شارع القائد الجوهر، أبى فى نهاية ذلك الشارع، لماذا لا أعرفها عليه، ليست من رجال السلطان ولا تقع فى غرام الجلادين! .. أتت الفكرة كشبح وغابت بسرعة ربما نؤجلها قليلاً إلى حين.. - ممكن تكون دى المرة الأخيرة الى هشوفك فيها الزيارة دى.. - لا..

- عارفة إن اللقاء العابر الفجائى مميز جداً، ويفضل ذكرى حلوة.. لم يكن هذا ما يدور فى قلبى، تمنيت أن أصارحها، لا أرغب فى الرحيل

..... مساكن أهل الهوى=

ولا أريده أن يكون لقاءً عابراً..

سألتني فيما أفكر فطلبت أن نقضى ما تبقى من النهار في ملهى كنت أتردد عليه قديماً، جزء من سفينة تتحرك بمحاذاة شاطئ الإسكندرية فتبدأ عند بحرى وتصل إلى المعمورة، تجوب إسكندرية بحرياً..

وافقتني وقضيت معها ما تبقى من اليوم حتى ظهر الليل وغاب النهار، حكيت للبحر الكثير عن أبى وخالى وأمى التى لم أرتو منها كما يجب، أصدقائى والرفاق، العمل السياسى الذى فضلت الأدب عنه، فتخلت عن مهامى التنظيمية، كل شىء كان واضحاً فى ذلك الركن الخالى من ظهر السفينة المليئة بالأنوار والموسيقى...

حتى أمسكت يدى بقوة ضغطت عليها كثيراً، وجالت دمعة بعينيها رأيتها تحت ضوء القمر فبدت دمعة بالغة الرومانسية..

اقتربت منها برأسى واقتربت، لفحت أنفائها وجهى وتلاعبت رائحة فمها بأنفى فزدت اقتراباً..
وكانت قبلة!

قبلة أخذتها من شفيتها على استحياء لكنها أقبلت وقبضت بشفيتها على مبسم فمى، فذبت وذبنا فى تلك القبلة، لا أعلم كم استغرقنا من الوقت..
أشعلت سيجارة لرغبة لدى، شاركتنى فى أنفائها، فتلون عُقب السيجارة بأحمر شفاهها، وكانت أول سيجارة لا ألقىها على الأرض وأدوسها بقدمى،
أخرجت المحفظة وخبأت العُقب الملون بها..
عاد اليخت إلى بحرى مرة أخرى..

..... مساكن أهل الهوى=

وعند خروجنا وقفت تعدل من بلوزتها وقالت: هلا لوين بدك تروح؟!
- أنا ما بدى أروح..

سألتها عن القبلة أهى عهد كتبه الشفاة فقالت: كرمالك نكتب عهدودا
ونغنى بالشامى والمصراوى..

لا أطلب أن يكون العهد عهد حب وارتباط فذلك قد تسمح به المرات
القادمة، يكفى أن يصبح ذلك عهداً لمرة أخرى..
أوصلتها منزلها لم أستطع توديعها..
لكنها بادرتنى: لك تؤبرنى أديش أنبسط، بتعرف شو؟
- إيه.

- ماراح أنسى ها اليوم..

- هشوفك بكرة بعد العرض؟!

- أنت هتمشى بكرة خلاص..

- آه بعد العرض فى آخر قطر بيطلع من هنا للقاهرة..

يقولون إن الرجال ثابتون عند الوداع وأقوياء، وأنا بالذات قد أكون مميزاً
فى هذا الأمر فقد اعتدت عليه كثيراً وظل أسلوباً تمرسته لأيام طوال..

لكن هذه المرة مؤلم حتى إننا لم نحدد كيف سنلتقى المرة القادمة، هل
أنتظر شهوياً أو تمر سنة كاملة، أو أراها عندما أزور أبى!

لماذا أرى فى الأمر صعوبة هى فى الإسكندرية وأنا فى القاهرة بيننا قطار
وسكة حديدية، لماذا التعقيد.. هو القلب!

القلب هو من يشعر بالوحشة الآن وهذا لا سلطان عليه!

الساعة لم تأت عقاربها إلى الحادية عشرة بعد، ولا أريد الذهاب إلى أى مكان، أريد العودة إلى غرفتى، وقبل النوم أذكر تفاصيل اليوم كاملة ثم أغط فى نوم عميق..

فى الصباح جاء نقر خفيف على باب الغرفة، أحد عمال الفندق يبلغنى باتصال أحدهم بى ..

على الخط الآخر من الهاتف أخبرنى بالالىو أن العرض قد ألغى دون سبب معلوم حتى الآن، وأخبرنى أيضًا إنهم فى انتظارى بالمقهى..

كتب القدر لقاءً آخر مع أعضاء الفرقة بعيدًا عن خشبة المسرح وعن موقعى كمتفرج، أو بالأحرى كتب القدر موعدًا آخرلى مع راوية..

كانت الجلسة ودية تبادلنا فيها الأخبار والأمنيات والمشاريع المستقبلية أخبرتهم بنيتى كتابة مسرحية تكون التعاون الأول بيننا، تحمس لها بلاليو وتمنى يوسف أن تصبح جيدة، تخلفت عن هذا اللقاء سارة فأمرها مريضة قليلًا..

استأذنت منهم فى الخامسة تقريبًا لأرتب حقيبتى فى الفندق وأكمل حسابى، وداعهم جميعًا أسهل من وداع راوية بالأمس حتى لو كانت موجودة اليوم فوداعنا الحقيقى كان ليلاً على ناصية شارعها..

هنالك ملهى قديم فى سان ستيفانو اعتدت زيارته وأنا طالب وأيضًا بعد ذلك، كنت أقضى منه بعض الخدمات بصحبة فتاة طالما جيبى يسعفى، ألحت عليّ رغبة فى الذهاب إليه ليصبح آخر شىء فى زيارتى بعد وداع أبى فى شقته، أركب سيارة أجرة وأتجه مباشرة إلى «كازينو الملكة»..

..... مساكن أهل الهوى=

يعلمها الجميع، يلقبونها الملكة ويقولون عنها الكثير، ذاع صيتها من اليمين وصداه كان في اليسار عظيم، تضمد الجراح، تشفي الآلام، تعيد الصوت لمن خرس والسمع للأصم والبصر للكفيف، كل ما في الأمر أن تروق لها طلتك فتفتح لك خزائن كانت لقارون وربما تشعر أنك سليمان، ليست غانية وتعالى عن المجون وتنزهت عن اللهو، لا ترقص أمام السكارى، ولا تصارع الأخريات زبائنهن، فراشها عرش أنت ملكه..

ترتدى الغالى والثمين المرصع بالترتر والمطعم بالحلى، تلفعت بشال كرمزى وجلست مطرقة الوجه بجسد خلق من البضاضة وبلغ في الحسن غايته، والشعر حديث مكتوم لا تملك بلاغة البوح عنه ولا يكفيك التأمل فيه دهرًا..

وهى تتحدث بالقليل العذب فيشاركها الجميع يضحكون إذا ابتسمت ويهللون إذا ضحكت..

وأنا جالس بعيداً أراقبها من مائدتى، أشرب جرعات البيرة من الزجاج المثلجة، لا أرى نفسى خليقاً بمجالستها وما أتيت إلى هنا إلا لليلة تروق قبل الرحيل أعانق فتاة دون سؤالها عن قوة ذراعى، الحساب فى جيبيها أو بحمالة صدرها، سأبحث بمقدرتى عما أشتهيه وأترك ما لا أريده، وحقها علىّ كان الحساب ومن بعده الرضا..

أما تلك الملكة فيكفينى النظر إليها واستراق بضع لحظات أرى فيها يلوک بالكلام..

يقولون إنها صاحبة ذلك الملهى كله، أهداه إياها رجل ثرى، والبعض

يقول إنه أمير قديم وقع بأحابيل غرامها..
لكنها كالدينا تظهر زاهية الألوان، مذهبة الحواشى، مطهمة الخيول
يقودها الشيطان، فيظهر وجه آخر..

وجه القوادة، تتاجر فى الأجساد وتجنّى من الفراش المال، ولا تستحى
ممارسة ذلك، فتظهره ولا تخفيه، قد تجد متعتك فى واحدة من تلك الغرف
فى الطابق الأعلى، سرير صغير وفتاة اختارتها غريزتك وراقت لشهوتك
واستصاغها حسك الماجن..

لكن قبل المرور عليك الدفع، تدفع للملكة وبعدها يُفتح لك الطريق
وتتمنى لك التوفيق.. وقد كان!

لا شك أن القانون جرم الدعارة وتجارة الهوى، ذلك بعيد عن تلك
المساحة، عن ذلك الملهى القديم، لا قانون هنا سوى قانون الملكة!
لا أنكر أننى سعيد بذلك النظام، فدائماً ما أبدى إعجابى بالأنظمة المرتبة،
معلومة الهدف مجهولة الوسيلة، لا بأس!
الأمر كنغزة من دبوس لا أكثر ولا أقل، أهم ما فى الأمر هو الرضا، لنردد
شعارها إذن برضا!

أطلقت أنفاث سيجارتى ودخانها إلى جو الغرفة، أنظر إلى الفتاة العارية
جوارى إلا من بسيط ارتدته لتوها وتارة إلى كأس الفودكا الشفاف، جيد
وغير مغشوش، أتيت على ما تبقى فى الزجاجاة عندما فرغ كأسى بعد أن
ملأت كأسها..

مر وقت ساده الصمت ارتديت على أثره ملابسى بهدوء، بينما ظلت

..... مساكن أهل الهوى=

تتلوى على سريرها، تنكمش فى ركن واحد من السرير وتنسبط أحياناً، فاردة ذراعيتها، لم يعد وجهها بالتألق الكبير فى بداية الليلة، هل انتفخت شفتاها أكثر أو زاد ذبول عينيها، أرى عبوساً بجبهتها..
ليست كفتيات بيت عايذة على كل ...

مددت كأسها وقالت بتنهيدات مثيرة وهى تعبت بشعرها المنتشر فى فراغ الغرفة: ما تعرفناش يا أستاذ ..

فى بداية اللقاء تعانقنا دونما كلمة وتجردنا من ثيابنا بالهمسات فقط دون حديث.. لم تكن هنالك فرصة للتعارف، ربما المرة القادمة!

جرعت ما فى كأسها ومدته مرة أخرى، كنت بكامل ملابسى للمرة الثانية فقط فى تلك الغرفة فقالت: إيه ده أنت لبست.. مستعجل كده ليه..

ملأت كأسها أكثر من المرة السابقة وأجبت بينما ألقى لها الزجاجة وما تبقى فيها: عندى سفر كمان ساعة.. حساب الفودكا خلصان وفى واحدة كمان حلال عليك..
ألصقت كتفيتها بالحائط جيداً وقالت: الرضا.. المهم الرضا..
أخذت ضحكاتى فى ازدياد وودعتها..

الثلاثاء - 2 أكتوبر 1972، توقف نبض الشيخ، وجف عرقه، وراحت عيناه في بياضها الأخير، وتوقفت العروق عن بث النبض، مات والدى ومعه راح الضلع الأكبر من جسدى، مات قبل أن يدرك الحرب وتبرد نيران صدره بالنار، يقول أخى حسين إن والدنا لم يخرج من غرفته طيلة ذلك اليوم، رفع صوت المذياع فوق عادته ولم يطلب الطعام ولا الشراب، وأدار بين محطات الإذاعة سمعه، إذاعة القرآن الكريم، البرنامج العربى، مساء الفن، وخفض صوت المذياع رويداً رويداً حتى تلاشي ودقت الساعة السابعة، أمسك بمسبحته العاجية، قلب بين حباتها الذكر والاستغفار، وذهب في صمته الدائم..

لم تكن مفاجأة كبيرة بالنسبة لنا - أنا وأخى - فأبانا شيخ عجوز بلغ من الكبر عتياً أصابه الربو بنوبات يضيق فيها نفسه وأمراض الشيخوخة تأتي في القلب لتتذر بالرحيل..

لكن الرحيل لم يتوقف عند هذا الحد، فساء القاهرة الباردة في يناير 1973 أعلنت عن مغادرة طائرة ركاب متجهة إلى فرنسا، كان أخى أحد ركابها، ناهياً علاقته وسيرته بما تبقي له من مصر..

هاجر وأصبحت الجوابات هى لغة حديثنا حتى انقطعت تماماً.. قبل سفره جاء إلى البيت، قلب بناظره في وجوهنا، نظر كثيراً العلي، ودار حوار أنذكره بالحرف والكلمة..

- أنا هرّج تاني..

- متأكد.. سألته بحزن..

- لم أحقق أي حلم من أحلامي هرّج.. وهيكون علي كبر وعندك غيره
كمان..

- هتكمل في الاقتصاد؟!..

حسين.. أخى الأكبر، المثقف الثورى دارس الاقتصاد، بل المقاتل الذى
حمل بندقية فى شبابه مقاوّمًا العدوان الثلاثى، لم ترّ أحلامه النور مرة، لم يرها
ثورة ولم تكن كذلك ولم يجد فى حبه شفيعًا، أخذ ما تبقى من أحلامه فى حقبة
سفره وغادر مثقلًا بهم أصاب الوطن كله..

لم يكن الوجود الذى غادر به أخى القاهرة يختلف عن الحالة المسيطرة
على الشارع وقتها، فالقاهرة المضيئة أصبحت مظلمة ساكنة لا تنوى الحراك،
يسيطر السكون على أهلها، فقد المعظم أملهم فى الحرب والثأر، أصبح على
يجيد المشى والقليل من الكلام، عندما يجوع أو يعطش إذا ما أصابه ألم، حاله
كان أفضل من بالغين كثر لا يتحدثون ولا يحسنون الإفصاح، فيغطون فى
نومهم..

تهلل وجه صفيه وزاد الإشراق فى عينها لخبر نقلته إليها أختها الصغرى
أثناء زيارتنا عصرًا، فهاهر سيتزوج من كامليا فكرى، الشقيقة الصغرى
لسراج..

يلاحقنى كابوس سراج كل وقت وكل فترة، بابتسامة ساخرة وقحة،
جهز ماهر لليلة العرس بفندق ضخم بالقرب من قهوة عبيد حنا وملهى ليالى

..... مساكن أهل الهوى=

القاهرة حيث لقاءنا الأول وتهديده السابق لى، امتلأت القاعة بضباط من الجيش والشرطة وبعض التجار أصدقاء والد العروسة، وانتشر الفرو الثمين على الأكتاف العارية وفساتين السهرة القصيرة، وساد صوت قرع الكنوس، راقبت الجميع فى هدوء باركت لماهر وعروسته كما فعلت صفية، ورأيت شبهه قريباً منى يزداد توحشاً بأسنانه البيضاء المتراسة، وضع يده على كتفى وقال بلهجة ساخرة مملوءة بالوعيد: نورت الفرخ يا عزيز، مش ناوى تبطل تروح شقة الأزبكية إياها..

- إنتوا بتعملوا تحقيقاتكم فى أى مكان يا حضرة الضابط ولا إيه؟
أخذ كأساً وناولنى الآخر وقال: إحنا بنعمل تحقيقاتنا فى أى وقت وأى مكان..

- حتى فى فرح أختك..
قاطعنى بحسم: حتى لو فرحى شخصياً..
مال نحوى برأسه وهمس فى أذى بصوت مسموع: تعالْ نخرج نتكلم بره، المزيكا هنا عالية جداً..

لم يهمه استقبال ضيوفه بقدر ما يهمه إلحاق الأذى بخصمه!
- سعد نجيب، رأفت إسكندر، الغيطى، عزت وصفى، شقة الأزبكية..
دخن سيجارته فى وجهى تقريباً وتابع: نجم، إمام، حوش قدم، الجمعية الفلسطينية ..

سكت قليلاً وأطرقنا فى صمته ملياً وعاد يقول بصوت هادئ تماماً وساخر: وريتا.. ريتا، أو نقول «نوراه جميل أبو فضة»..

..... مساكن أهل الهوى=

أقشعر بدني تمامًا وأخذت من سيجارتي أنفأًا متلاحقة وبدت علامات الدهشة على وجهي، فضابط التحريات الواقف أمامي، ماكر جدًا، ويعمل بكل ما أوتي من قوة لإيقاعى بشباكه وأنا أعلم ذلك جيدًا، وكل ما أورده لم يخفى عدا جملته الأخيرة..

«ريتا» يعرفها إذن، بل يعرف اسمها الحقيقي الذى لا أعلمه أنا نفسى، بلاشك يعلم كل شيء عنا..

قطع تفكيرى وتوجسى بضحكة مباغتة زادت من وجهه بشاعة وقال: أنت خفت ليه كده... ما تخيلنا صحاب يا على..

لم أكن أعلم ما يخفيه فى جعبته، لكنى جيد الإنصات دائمًا، أدار وجهه لباب القاعة المفتوح، تخرج منه أضواء وألحان تقيم العرس، ولكنه عاد يتمعن النظر فى وجهى وسيجارتي وقال: تطلق يا عزيز.. تطلق صفية!

كالعاصفة أو السيل، أيهما أشد تدميرًا، كالطلقة أو السهم، أيهما أشد إيلاّمًا، كالطاعون أو الكوليرا، أيهما أشد فتكًا، كوحدة القبر أو ظلام السجن أيهما أشد وحشة..

كان صوته وكلماته أشد تدميرًا وإيلاّمًا وفتكًا ووحشًا من كل ما سبق، بل ونظرة عينيه الماكرة الباردة وأمام بسمته الكلبية، تحول كل شيء داخلى لغضب عارم وكراهية تننى الحديد، ألن يقف قطيع الضباع عن المطاردة، لست الشخص المناسب للعب دور الفريسة، خاصة إذا تعلق الأمر بصفية.. أخذت نفثًا كبيرًا من سيجارتي وبعثت بكل دخانه إلى وجه سراج وقلت: أنا أعتبر نفسى ما حضرتش الفرح أو حضرت وأنت ما كنتش موجود، مجرد

تفكيرى فى كلامك تانى سبب كافٍ أنى أقتلك ..

كانت لهجتى هادئة واثقة، لكن خلفها استقر بركان لم يهدأ حتى الآن، عدت إلى الحفلة وتركته خارجاً وتحاشيت النظر إليه حتى لا يزيد تجهم وجهى وتشعر صفية بذلك فتنهال بأسئلتها ولن تكون عندى الإجابات الشافية!

أصبحت المعركة أشد وضوحاً، قابلت سعد نجيب فى نفس الأسبوع وأخبرته كل شىء عن سراج بتفاصيل أكثر، وجدت عنده أخباراً أخرى عن ذلك المعتوه!

معتوه بقوته وجبروته لأقصى درجة، تسبب العام الماضى فى إصابة طالب فى السنة الأخيرة من كلية العلوم بارتجاج فى المخ والدخول فى نوبات تشنجية نتيجة التعذيب البدنى والنفسى!

فتحنا سجلاً جديداً باسمه، نحصر به كل التعديات والمخالفات التى يقوم بها، وما أكثرها، أصبح الضابط الأكثر صيتاً فى وسطنا والأشرس فى وسطه، لم أقابله لمدة أربعة شهور بعد تلك الحادثة، لكن معلوماته كانت ترد لنا من الرفاق والمعتقلين، عمال وطلاب، لم يكن له صلة بنشاط الجماعات الإسلامية، انصب تركيزه على المجموعات اليسارية من الطلاب والعمال ومعى أنا شخصياً، لم أخبر صفية بواقعة الفرح تلك أبداً، ظلت حبيسة صدرى ..

لم يكن غريباً بالنسبة إلى مرور كل تلك الفترة من الهدنة بينى وبينه، فهى الفترة التى زاد فيها ركود القاهرة، لكن على شهد نشاطاً كبيراً فى منزلى،

..... مساكن أهل الهوى=

أصبح أكثر إجادة للكلام وأشد حبا للشرفة، وعلى مدار ستة أشهر وصلتني ثلاث رسائل فقط من حسين..

لم يستمر ركود القاهرة كثيرا في بداية أكتوبر، قطع ماهر إجازته وعاد إلى معسكره بطلب سريع من القيادة لكنه سرى، وأشيع بعد ذلك عن طلبهم في مناورات تدريبية..

لم يتعجب أحد لذلك ولم يخطر ببال الجميع شيء عن الحرب فقائد الأركان سعد الدين شاذلى لا يكف عن تنفيذ المناورات العسكرية كما لا يكف عن السفر للدول الحليفة وتكوين تحالفات عسكرية أوسع، اليوم في كوريا غداً بالعراق وبعد الغد سيكون في تونس أو الكويت، وهكذا.. كان الأنشطة بلا منازع..

على يقف على حافة كرسى ضخم بالصالة فيسقط على وجهه ومع سقوطه تسرع والدته لكنه ينهض مسرعا وعلى وجهه ضحكة مثيرة، تليق بطفل يلهو، تركته أمه ليعاود الكرة في الصعود إلى الكرسي مرة أخرى وسقط أيضا، لكنه لم يبك ولم يضحك، تابعته باهتمام كبير، لكن صوتا أجش وصل من النافذة المفتوحة يهلهل وينادى آخرين بالحى، وصوت المذياع يرتفع، أنباء عن الحرب، لم أتبين صوت المذياع المرتفع في الأسفل جيدا، لكنى ربطتها بحركة الطائرات، بسماء القاهرة، لم أبصرها، لكنى سمعت زئيرها تقريبا أو خيل إلى، انطلقت إلى المذياع، أقلب قنواته تعلن عن أنباء الحرب، وتعلن عن حاجة المستشفيات لأكياس الدم وضرورة توجه الشباب إلى مناطق الدفاع المدنى، أسرعت تاركا على وصفية في الشرفة، سألت عن أخيها كثيرا لكنى

لا أمتلك جواباً!

والشك يساورنا هل هي الحرب فعلاً، أيضاً قنوات الإذاعة العربية تذيع أنباء عن الحرب العربية على العدو الصهيوني..

وصدر بيان رسمي عن القوات المسلحة المصرية في الثانية ظهراً تقريباً يقول إن العدو تعدى بزوارقه البحرية على مناطق حيوية في خليج السويس كالزعفرانة والسخنة وأن القوات المصرية تحاول ردعه..

اتجهت إلى مدرسة الخديوى إسماعيل الثانوية، معسكر قوات الدفاع المدنى الأقرب إلىّ، كانت التعليمات عن تأمين الجهة الداخلية..

وفي الطريق وعبر مذياع الحافلة وسط صمت وانتباه من الجميع بُث إلينا بيان آخر يخبر عن نجاح القوات الجوية في تنفيذ مهامها وإصابة العدو بإصابات بالغة وعودة كل الطائرات إلى قواعدهما سالمة عدا طائرة واحدة..

عصرًا وتحديداً في الرابعة بفتاء المدرسة وعبر مذياع موصل بسماعات ضخمة كانت كلمات البيان العسكرى الذى لن أنساه..

«هنا القاهرة.. أيها الإخوة المواطنون.. بسم الله الرحمن الرحيم.. نجحت قواتنا في اقتحام قناة السويس في قطاعات عديدة، واستولت على نقاط العدو القوية بها، ورفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة».

زغردى يا بهية..

على قهوة عبيد حنا، كنا نرف الأخبار ونستمع يومياً لبيان القوات المسلحة، وانهاى الجميع على المستشفيات ومراكز التبرع بالدم، مر فوق العقد ونصفه الآن ومازلت أتذكر رأفت إسكندر عندما جاءه خبر من أخته

..... مساكن أهل الهوى=

الصغرى: مارجریت حامل یا رأفت..

كانت دهشته وفرحته كبيرة لكن ترقب الأنباء بجوار المذيع حاضراً
أيضاً..

خفض صوت المذيع وصمت كل من في الغرفة - هو وأنا وسعد وشاب
قصير والطالبة «عليه عثمان» - رفع وجهه إلى أخته مرة أخرى والتلعثم رابطاً
لسانه وقال بصوت خالطه الفرح والقلق: عرفتموا إزاي يا سيلين؟!
- إمبارح مارجریت كانت عند نانا وتعبت جداً زي دوخة ومغص
وأعراض غيرها كده..

- إمتي، إمبارح إمتي؟!!

- إمبارح یا رأفت.. أنت ماكتتش موجود إمبارح في القاهرة كلها..
أكد على ذلك رأفت بهزة من رأسه فأكملت سيلين: مارجریت باتت عند
نانا ولسه جابينلها الحكیمة من ساعتين وعرفت أنها حامل وأخوها بيشوي
لسه واصل دلوقت وهو الي قالي الخبر..
اعتدل في جلسته جيداً وقال بصوت مبسوح: بهیة.. تبقى بهیة.. لو بنت
تبقى بهیة..

هلل جميعنا وأقبلنا عليه نعانقه ونقبله ونبارك مولوده متمنين له سلامة
الوصول إلى ديانا المنتصرة في تلك الأثناء..
لم يترك المذيع ويذهب إلى زوجته رغم إصرارنا إلا بعد سماع بيان الحرب
اليوم...

وأصبح يوم التاسع من أكتوبر - ثالث أيام الحرب - يوماً له تميزه لدينا،

يوم الإعلان عن بهية..

وعلى طاولة الإفطار، لم تكن وجبات الصائمين من الطعام وفقط؛
أخبار عن الجنود، عن الضباط، سلاح الطيران، المدفعية، الجبهتين المصرية
والسورية، سلاح المشاة وفي بيتي بالأخص كان الحديث عن ذلك السلاح
طويلاً، نتابع أخباره ومن خلالها أخبار ماهر..

وتناوبت القوى العالمية حول دراسة ميزان القوى ومساندة حليفها،
السوفيت والكوريون من ناحية والولايات المتحدة من ناحية أخرى..
تمتت كثيرًا أن يكون حسين موجودًا يشهد بعينه آيات النصر في أيام
الحرب الأولى وزحف الجنود لاسترداد الأرض والثأر..

لكن الهفوات والأخطاء قد تكلف أحيانًا الكثير، وفي وجود مدد
عسكري لا ينقطع من أمريكا لفتاتها الصغرى، شكلت ثغرة الدفرسوار
خطرًا على الجيش الثالث الميداني، انسل منها جيش العدو وحاصره.. هذا
لم يعكر النصر لكنه أوقف التقدم العسكري فتلك إشارة واضحة بالمساندة
الأمريكية تبعثها إشارة أخرى على الجبهة السورية تم رد القوات السورية
المتقدمة إلى هضبة الجولان..

رفعت القوات المسلحة درجة استعدادها إلى ديفكون 3 لقواتها البحرية
والجوية..

جعلت صواريخها وطائراتها المقاتلة في وضع استعداد خلال 15 دقيقة
تكون قادرة على الهجوم ومثل الأسطول السادس بمياه البحر المتوسط تهديدًا
كبيرًا..

..... مساكن أهل الهوى=

لكن الحرب سارت في خندق التهدة، وجمعت مائدة الدول الكبرى الجميع فوق صحافها وجادت تلك الدول بكلمتها في 22 أكتوبر بالقرار رقم 338 الصادر عن مجلس الأمن بإيقاف الأعمال العسكرية برًا وبحرًا وجوًا بين جميع الأطراف، لكنها لم تكن النهاية الفعلية للحرب فالمناوشات ظلت قائمة بين الجيشين العربيين والعدو، بل شهدت الجبهة السورية اعتداءات أكبر وبالطبع تحركاتها العسكرية كانت أوسع، بإمكاننا اعتبار اتفاقية فض الاشتباك الموقعة في جنيف 31 مايو 1974 هي النهاية الفعلية للحرب وبموجبها تم تبادل الأسري والجرحى وتراجع قوات العدو الإسرائيلي خارج مدينة القنيطرة السورية...

حاربنا فانتصرنا، ذلك قد يلخص الرؤية كاملة لدى الحكومة والجيش ومن بعده الشعب..

ماذا بعد النصر؟!

هل نرضى بنصر مشروط؟!

نرضخ لاتفاقيات أقرتها قوى غيرنا؟!

عاد ماهر منتصرًا، أحببته في تلك اللحظات، لا أنكر حسدي وغبطيني له، شهد النصر بنفسه، فقد ساقين من العظم واللحم ووضع آخرين من الشرف والكرامة..

للمرة الأولى أجد في عينيه نظرة ود اتجاهي وهي المرة الأولى أيضًا التي خلا قلبي فيها من ذرة عدااء له، وكأن ماضيه معي قد تحي تمامًا، بتر مع ساقيه تقريبًا..

ظهر في زيه العسكري الكامل المرصع بنيشان الشجاعة ووسام الحرب من الدرجة الأولى، لم تقلل جلسته على الكرسي المتحرك من هيئته، بل زادت شأنه علوًا، رأيته مقاتلاً نبيلًا، أسيرًا في النكسة، بطلًا في النصر..
لم أذهب معهم إلى مراسم التكريم، لكنني كرمته بصدق في قلبي؛ تركت له رسالة مكتوبة بخط يدي سلمتها لصفية تعطيه إياها قبل دخوله الممر الشرقي أمام الحشد العسكري والأهالي..
كانت كلمات صادقة لأقصى درجة..

«عزيزي المحارب البطل - أسمح لي بقول عزيزي فهي عزة لي - هل في إمكانني منحك إحدى ساقّي، فيصيبها الشرف وتكفلها الكرامة»..
قالت صفية عندما عادت إلى المنزل وكنت في انتظارها شغوفًا: أنت كتبت إليه؟!!

أكملت دون انتظار لإجابتي: ماهر ابتسم بعدين دمع وفضل يبص في الورقة ويردد اسمك..
طوى الورقة وخبأها بجيب داخلي في بدلته، ثبت بيده الباريه ونظر إليها مبتسمًا وقال: مبروك يا صفية..

هكذا أخبرتني صفية بتلك اللحظة، ربما لو كنت موجودًا لأفسدتها إن أبى غروره التصديق فآثرت البقاء بعيدًا..
صرفت له القوات المسلحة معاشًا جيدًا وشارك أخوه الأصغر تجارة القطن ونقل مسكنه إلى فيلا شعراوى بالزمالك.. أشد ما أراحه هو المقال الأسبوعي بجريدة الجمهورية، يكتب فيه عن الحرب وآيات البطولة..

..... مساكن أهل الهوى=

بالطبع تلك المزايا لم يحظ بها كل الجرحى والمصابين والضحايا..
هذا ماهر شعراوى، المنحدر من عائلة كبيرة منها سفراء بالخارج
ومناصب بالحكومة وقيادات بالجيش والشرطة..
فالحرب أيضًا لا يجنى مجدها وثمارها سوى القادرين، حتى لو ظهرت
تلك الثمار كبرت في الساق أو اليد وغيرها، لا تتساوى كل السيقان المبتورة ولا
الأيادى المفقودة..

فالعسكري والمجند وسواد الأرض وعامة المقاتلين يتذكرهم أهل
شارعهم وبالوقت أهل العمارة وبعد فترة أهل البيت وبعد فترة أخرى
المصاب فقط، وإن جاءت لحظة احتضاره ربما يتساءل البعض عن الإصابة
الخطيرة، أكان مخمورًا وهو يعبر الشارع فدهست قدميه سيارة مسرعة، أم
أصابه السكرى وربما كان لصًا سقط من سطح بناية فتحطمت ساقيه فتاب،
ويظل القليل يعلم الحقيقة وعندما يموتون يميت معهم كل شيء..
هى الحرب، عند النصر لها ضريريتها أيضًا..

أصبحنا أصدقاء بل أكثر من ذلك، لكن هذا لم يمنع أن ندخل فى شجار
كثير يصل أحيانًا لمغادرتى منزله أو مغادرته بيتى وفى اليوم التالى يذهب
أحدنا للآخر، رغب يومًا مشاركتى السهرة بقهوة عبيد حنا، ولم تمنعنا هذه
الصدقة من تذكر ليلة سابقة كانت بنفس المكان من أعوام، ارتعدت لها
فرائصى وقتها..

فى الواحدة بعد انتصاف الليل جاءه السائق فغادر وذهبت أنا لشقة
الأزبكية..

وكان الطير على رءوسهم جلسوا مطرقين يسمعون لا يتحدثون، لا تنبس أفواههم بكلمة، ألقى عليهم ما حدث فيجدونه ثقيلاً غليظاً، يحترقون غضباً يحفه الخوف من كل جانب فيخمد البركان وتضيع ثورته، يمصمص والدى شفثيه ويقول بصوت الغاضب المنكسر:

— كان مستنينا فين كل ده يا بنتى!

الحقيقة يا أبى المسكين أنا لا أعرف، أكان مستترًا خلف سحب بنطاله وتحت جلباب غرائزه، أم استتر وراء عقائدى وإيائى فجسدى ملكى لا يمسسه مغتصب سارق، ولا يتعدى عليه جبان حقير..

زادت أُمى من عبوستها بوجوم وضجر ولمعت مسحة الحزن على جبينها تضع خديها بين راحتها وتقول مطرقة التفكير هائمة العينين: والحل يا بنتى.. هنسيبك تضيعى مننا؟!

الحل فى المواجهة يا أُمى العزيزة، مواجهة الظلم والفقر والجهل، اعتراض على أى فرض يرى أجسادنا سائغة لكل مطمع، فيكون لمسها حلالاً والعبث بمفاتنها سنة والمرور بفروجها إيماناً وشكراً، لسنا عرايا فى سوق للنخاسة مهذبن الشعر، محلقين العانات وتخط الإبط نتنظر فارساً يلوح بسيفه وخوذته الفضية يضجع بنا ليلة أو اثنتين بفراشه الوثير..

الأستاذ محمد مهنى.. قفز الاسم إلى رأسى بغتة ورأيت فيه الخلاص،

..... مساكن أهل الهوى=

قلت لأبى مسرعة: أنا هسلم نفسى بس محتاجة الأول أروح مشوارًا صغيرًا
للأستاذ مهنى..

تركتهم فى حالتهم من تخطيط وحيرة، قلق وخوف، غضب وانتقام..
ارتديت ملابسى مسرعة وتوجهت إلى شارع الملك العادل وبالأدق
جمعية البداية..

ساعدنى الحظ ووجدته هناك، رحب بقدمى ولم يخف ربيته من تلك
الزيارة المفاجئة..

اغرورقت عيناي بالدمع وأخبرته بكل شىء وكأنه الإفصاح الأخير عن
كل ما فى قلبى..

فتاة صغيرة خرجت للعمل فى الحادية عشرة، والدها الطبيب رفض
تدجينها وتسليمها صغيرة للزواج، فكان مشوارها للجامعة مرهق للجميع
ولها أخت تحمل جزءًا من أحلامها وأُمها سيدة مخلصه للبيت والأسرة،
تدبر الكثير وتوفر من قوت اليوم لليوم الذى يليه، أخبرته عن فتاة مثلت
لها صيحات الموضة موضعًا للتندر، وألعاب الأطفال من صنعها لا تعرض
بفاترينات ولا تتصدر المعروضات، تحلم بالصحافة ولا تكف عن القراءة،
علمها رجل نبيل صاحب مكتبة صغيرة أمام مدرستها الثانوية أن القراءة
أداة مشروعة لنيل ثروات العقل، استعارت من مكتبته فى الأدب والاقتصاد
والفكر، فقرأت لنجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وشعرت بقوتها مع طه
حسين، وعلمت عن الديمقراطية وتحرر المرأة وحق العمل والسكن، لكن
الواقع صادم قاتل فتصدت له بعملها فى مطبعة أتقنت النقر على الآلة الكاتبة

فزادت درجة في عملها وظلت تقرأ أكثر وأكثر، ورأت في نفسها صحفية المستقبل ..

وأبى أن يمر قطار الأمنيات بمحطاته حتى لو امتلأ خزانة بوقود الكد، فهناك من يستحل جسدها يراه مرتعاً لنذواته .. فقاومته وعند المقاومة يزداد عنف المعركة، فتحال لسارقة على صفحة محضر ويحال مغتصبها لضحية حاولت قتله عندما داهمها تفتح خزانة مكتبه! ليغدو الجاني مجنياً عليه ويقفل البلاغ في ساعته وتاريخه، والأجدر بها أن تسلم نفسها..

بعد صمت ليس بقليل ودورات من عيني المتعبة هنا وهناك قال الأستاذ مهني: دلوقت هتصل بالمحامى وتهكيله كل حاجة وهنشوف هيقولنا إيه.. ما تقلقيش يا بنتى ..

أغلقت جفوني وأخذت نفساً عميقاً وبعده رشفة من عصير الليمون وانتظرت...

ظل الأستاذ يطمئننى ويبعث الأمل في صدرى بإغلاق المحضر لصالحنا وسرعة الانتقام من مدير المطبعة..

مرت نصف ساعة تقريباً حتى دخل علينا شاب متوسط القامة، غامق البشرة، يرتدى نظارات طبية ويمسك بحقيبة سوداء، محام يدعى عصام خليل، أخرج دفترًا وقلماً ودون ما حكيته وظل يسأل بعض الأسئلة فجأوبته..

قال موجهاً كلامه لكالنا- أنا والأستاذ مهني- بعد إغلاقه الدفتر: الأفضل

..... مساكن أهل الهوى=

إنك تسلمى نفسك لسبيين، قبل ما يتحول المحضر للنيابة ويطلع أمر ضبط وإحضار وساعتها هتكون فيها تشويه ولو بسيط لسمعتك، عربيات شرطة هتوصل البيت وقلق وشوشرة من دى.. السبب التانى إننا نلحق نقدم بلاغاً فى المدعو نشأت وما يكونش مجرد بلاغ كيدي ردًا على المحضر..

تواجهت لى رغبة مفاجئة فى توديع الجميع قبل ذلك، سميرة وحسن، نجلاء وهناء، وعلى.. هل يفخر بما فعلته ويساندنى، أو عالمه مكتظ بالأحاجى لا مكان فيه لأحجية جديدة تأخذ من عقله حيزاً للتفكير ومن باله وقتاً للانفعال!

لم تستمر تخميناتى فى هذا الشأن طويلاً فصوت الأستاذ مهنى قاطعها قائلاً: قبل ما تسلمى نفسك لازم تقابلى على عزيز، عشان ياخذ معلومات عن قضيتك ونكتب عنها ونفصح نشأت، أنا كمان هشوف الجرايد اللى بتتعامل مع المطبعة دى وأرفع شكاوى ليهم وهتكون معركة صحفية، مش قانونية بس..

تسلل وميض الفرح إلى قلبى بل وتباشرت بالخير فها هو القدر يرتب لقاءً جديداً مع على لكنه قد يكون أخيراً لفترة طويلة..

الساعة تقترب من الثانية ظهرًا وعلى فى طريقه إلى الجمعية بعد إجازة طويلة قضاها فى الإسكندرية كما أخبرنى الأستاذ مهنى..

فى الثانية وعشرين دقيقة كان الباب ينقره بلطف، ظهر فى قميصه قصير الأكمام زهرى اللون وبنطال جينز أسود، اعترت وجهه ظلمة وكدره كبيرة حين أخبرته بالحادثة وتبدل حاله من مرح عند اللقاء يصفاح الأستاذ مهنى

ويعانقه ويسلم علىّ بحرارة إلى ذلك الحزن والضيق..
ظهر شهماً فقال بصوت رجولي ونبرة صادقة: ما تقلقش نفسك من
ناحية أهلك دول في عنيّا وإحنا وراكى لحد ما تطلعى وننتقم من الحيوان
ده..

أكد على كلامه الأستاذ مهنى، شكرتهما كثيراً وخرجت متوجهة إلى
منزلى ومعنوياتى مرتفعة بعض الشىء..
لم تتغير وجوههم ولا جلستهم انضم إليهم أخى الصغير، أخبرتهم ما
قاله المحامى وما سيقدمه الأستاذ مهنى، دارى والدى عجزه وضعفه وهم
قائماً وهو يقول: الى فيه الخير يقدمه ربنا يا بنتى، وفلوس المحامى أنا هقدر
أوفرهالك..

قاطعت بصوت يغلب عليه اللطف والحنو: الأستاذ مهنى هيتكفل
بمصاريفه، المحامى شاب..
أوماً برأسه وأخذ خلفه أخى الأصغر ليذهب إلى غرفته يصلى فرض
العصر وينام، أما أمى فظلت بتجهم وجهها تنظر إلىّ ولا تجد كلمة تعبر بها
عن تلك المأساة وكذلك ميادة، شقيقتى التى لم تكف عن البكاء مهما حاولت
طمأنتهم أن الله لا يترك عباده فى الضيق وهلم جرا من ذلك الكلام الذى
يثلج صدورهم أحياناً..

فى الصباح وفى التاسعة تقريباً قابلت المحامى بقسم شرطة قصر النيل،
كان فى انتظارى قبل الدخول، سلمت نفسى وأخذ الضابط أقوالى فى
حضوره..

..... مساكن أهل الهوى=

غاص الضابط في كرسيه الوثير وقال للمحامى: أمر الضبط والإحضار
لسه واصل حالاً يا أستاذ عصام..

- الساعة لسه ما بقيتش عشرة.. إزاي!

- أظن المحامى الى مقدم البلاغ ليه نفوذه فى النيابة أو نشيط بالقدر
الكافى..

- عموماً تقدر تعمل بلاغك بالتعدى وده يبقى محضر تانى ويمشى
لوحده ومهمتك ما يتحولش لمحضر كيدى..

هز عصام خليل رأسه وقال: مفيش مشكلة، نقدر نربط القضيتين
ببعض..

اطلعت على نسخة من المحضر ورأيت إمضاء ذلك القذر تحت أقواله
«نشأت الداوودى» وأسفله فى الثلث الأخير من آخر صفحة بالمحضر
«محضر رقم 3231 جنايات قسم قصر النيل لسنة 1990»..

تم ترحيلى إلى نيابة قصر النيل يوم الأحد 21 أكتوبر عبر سيارة كبيرة
ورافقتنى مجرمات تمرسن السرقة والدعارة ومنهن من احترفت البلطجة
وجعلت من وجهها خريطة لإنجازاتها فى تلك المرحلة..

لم يرهبنى المنظر ولم أشعر بالضعف، كل ما أزعجنى، تلك الأصفاذ
بيدى وهذه السيدة التى تشاركنى إياها..

فى الواحدة ظهراً كنت بمكتب وكيل النيابة أواجه التهم المنسوبة إلى،
بجوار وكيل النيابة كاتبه، رجل ممتلىء الجسد يسترق نظراته إلى من حين
لآخر ثم يعود إلى ورقه يسجل ما يقال بالنص، أمامهم جلس الأستاذ عصام

خليل، يتابع الأقوال ويتدخل عند اللزوم..
لا تفصح نظرات وكيل النيابة عن شيء، لا تعاطف ولا هجوم حتى
الآن وعند الانتهاء أمر بتجديد الحبس أربعة أيام على ذمة التحقيق..
لم تكن الأربعة الأخيرة، تم تجديد الحبس أربعة أيام أخرى وهكذا على
ثلاث مرات من العرض على النيابة..

ارتديت ثوب أهل السجن الأبيض، جلباباً واسعاً، وإشارب خفيفاً..
تعددت زيارات أسرتي، الأستاذ مهني وعلى، وجميعهم يقدمون الدعم
مادياً ومعنوياً، تعرفت على كريمة السبع، هكذا ينادونها، سيدة في منتصف
الأربعينيات معروفة لدى الجميع بجبروتها وبطشها ترتدى خاتماً عظيم
الحجم في خصرها، يريدوها من أصحاب المصلحة وأغراض البلطجة تقول
بفم ممتلئ واثق: «أنا واحدة ربنا إداني صحة عشان أرجع الحق لصحابه»،
أول جريمة ارتكبتها كانت تشويه وجه جاريتها حين ضبطتها تغازل زوجها
وعندما أبدت تعجبي قالت: «الرجالة زى الحمام، بينزلوا على الغية اللي فيها
فول أكثر، وأنا قبل ما أملئ غيتي فول، أكسر كل غية على نافوخ صحبتها»..
أما شريكها نعمات غزال لا تظهر عليها معالم الفتونة، تهتم بنفسها
بشكل كبير، متمصة الحاجبين، تكثر من مساحيق التجميل لكنها لا تفلح
في تقليل ضخامة أنفها، لا تخرج العلكة من تحت أسنانها حتى لو وقفت أمام
القاضي، ترغب في النساء عن الرجال، ذلك ما جعل كريمة السبع تخبرها
بالابتعاد عني وعدم التعرض لي بسوء، فكريمة أصبحت صديقتي لحد ما،
حكيت لها ما حدث معي فأقسمت بمساعدتي في الانتقام عند خروجهما،

..... مساكن أهل الهوى=

تعلم أنها ستقضى شهراً بالكثير هنا، ثم تأخذ إخلاء سبيل عندما يتصالح الخصمان في الخارج..

نعمات مربية جداً فنظراتها شهوانية لدرجة غير عادية أكثر من الرجال، عندما ترى فتاة لها جسد يحرك غرائزها، تراقبها جيداً وتظل في محاولات للتقرب منها، مرة رأيته تضع يدها بين ساقها واليد الأخرى على فخذ سجينته تهتمتها ممارسة الرذيلة بسيارة في المقطم، صاحت فتاة الليل بصوت عالٍ جعل الزنانة تنتفض ضحكاً: قولتلك يا نعمات ماليش في النسوان.. اوعي إيدك دي..

لم تستكن نعمات لصوت نانا - فتاة الليل - العالى وصرخت: وحية مقصوصى ده لأجيبك وأدوقك ولو مش بمزاجك هيبقى غصب يا بت.. هن حقاً ضحايا المجتمع، ورثن أمراضه ولم يجدن فرصة سوى امتهانا وظيفة وأسلوباً في التعامل.. أيام مربية حقاً!

في اليوم الثالث عشر زارتني نجلاء وكانت زيارة غير متوقعة في شكلها ومحتواها..

غابت في بكاء صادق وأحضان بعيدة عن النفاق وتهدج صوتها وهى تقول: وحشتينى أوى.. والله حاولت.. حاولت معاه لكنه كلب..

ابتسمت بدورى وربت على كتفها وقلت: عارفة يا نوجا.. هو هيتنازل بس أروحله ويعمل اللي كان عاوزه..

ثبتت ناظرها أرضاً وقالت: أنا عندي حل..

أحسنست الإنصات إليها وتابعتها بتركيز، ورأيت في كلامها طاقة أمل

حقيقية، لكن هذا الحل لا يكتمل إلا بمساعدة الأستاذ مهني وعلى.
أعطيتها عنوان الجريدة والجمعية وطلبت منها التوجه إليها والحديث
معهما، فهما الأقرب إلى الآن..
قبل أن تغادر سألتها عن سميرة فقالت: لبست النقاب..
لم أتعجب عدم زيارتها حتى الآن ولم أرَ في ارتدائها النقاب خطوة
فجائية.. أتمنى أن تجد راحتها فيما ارتدت وألا تحال حياتها لفروض وإجبار..
طلبت من نجلاء أن تحمل سلامي لأهلي..
قبلتها على وجنتيها وأكدت لها الاسمين مجدداً؛ الأستاذ محمد مهني
والأستاذ على عزيز سالم..

وقف منتصر سحاب بزهو وفخر أمام جميع الصحفيين والموظفين وأمام الأستاذة سوزى بالطبع وقال بصوت جهورى: أنا اتوسطت لعلى ومنصور عند الإدارة ورجعتهما للشغل تانى وده لازم يكون درسًا لهما، للالتزام بسياسة الجريدة واحترام مبادئها..

صفق الجميع ومعهم منصور، يصفق بشكل مسرحى ساخر.. عدت إلى مكتبى، الغائب عنه لأكثر من شهر، لم أفكر به كثيرًا طيلة هذا الوقت، هنأنى الزملاء منهم من تغامز باللفظ أو بالحركة ومنهم من جعل الأمر دبلوماسيا، وجاءت سوزى لتقول بصوتها النحيف: مبروك رجوعك يا أستاذ على..

عبر منصور بباب الغرفة الخارجى وهو يغنى بصوت مرتفع أجش، كلمات الأغنية سيئة والأسوأ منها صوته، استقر بمكتبه وقال موجهاً كلامه ناحيتى: نورت مكتبك يا أستاذ على، أتمنى أبارك لحضرتك على رئاسة التحرير فى القريب العاجل..

- أو رئاسة الجمهورية.. أستاذ منصور.

انهمكنا فى ضحكات متقطعة ودخلنا فى حوار طويل، فالיום لا عمل لنا..

- الإجازة فى إسكندرية ليها طعم مختلف يا صديقى..

- آه يبقى شكلك غطست يا ابن الناس الطيبة..
ضحكت كثيرًا وضربت كفًا بالآخر ونظرت إليه قائلاً: الغطس هنا وفي
إسكندرية ياعم مش ده المختلف..
حكيت له قليلاً عن إجازتي كعناوين أخبار دون تفاصيل، التفاصيل لها
طعم لا يجوز للغرباء تذوقه..
أما هو فقد وجد عمل بمجلة الوعي، مجلة مختصة بالفلسفة قليلاً وهذا
الشيء جديد من نوعه لكنه رائع..
أنهيت العمل بالجريدة وتوجهت بعد تناول الغداء بمطعم أسماك
فاروس إلى جمعية البداية في الرابعة والنصف عصرًا تقريباً..
الطريق مزدحم، فالיום ينعقد سوق الكانتو الأسبوعي بمنطقة عين
شمس، دخلت بين أزقة هذا السوق حيث تغوص الأجساد في زحام البيع
والشراء وتصطف عربات اليد على الجانبين محملة بالبضائع الخفيفة من
أوعية وأوانٍ وأدوات قديمة ومستعملة وملابس جديدة ومن الباله..
تابعت السير وسط صراخ البائعين ومساومة الزبائن وسباب الخوذي
ونعيق حماره..
أكتوبر محمل بالرطوبة والغبار، يتوسط الخريف فيجعل الحلق جافاً
خشناً معظم الوقت..
صعدت إلى أفكاري قضية نجاة مع صعودي درج السلم إلى مقر
الجمعية، مر على حبسها قرابة الأسبوعين الآن، لم أكتب مقالاً واحداً عن
هذا الأمر فأنياني براءتها وتعرضها للظلم والاعتداء القذر عليها لا يحمل

..... مساكن أهل الهوى=

معه دليلاً أشاركه القارئ وهذا ما يحيرني، لا أستطيع حتى التنويه بالقرب أو البعيد عن هذا الموضوع، كل ما أملكه من مواطن القوة، قلم وها هو مدحور السن لا يقوى على الحراك..

تلك كانت أفكارى طيلة مدة الحبس وقبل أن أجد في الانتظار بمكتب الأستاذ محمد مهني، أنسة حسنة المظهر تدعى نجلاء..

صديقة نجاة في العمل بالمطبعة، ألقيت بسلامي على الأستاذ وشكرت قدومها معرباً عن سعادتي..

بنبرة واثقة تحدث الأستاذ مهني: الآنسة نجلاء معها حاجات هتفيدنا في القضية..

- قضية نجاة.. سألت للتأكيد..

- بالضبط يا علي.. هي حكتلي واطلعت على المستندات اللي معها.. وهسييكم مع بعض تتناقشوا وتوصل للاستخدام الأفضل للورق ده..

ارتدى جاك بدلته وتابع: ولو احتجت عصام خليل كلمه ينضم ليكم، الشق القانوني مفيد طبعاً..

تهز رأسها الآنسة موافقة على ما يقوله ولا تنطق لكنها تحرك أصابعها علامة على توتر بداخلها..

سألته عن وجهته، فقال إنه بصدد موعد بمجلس إدارة المجلة لوضع خطة الشهر المقبل..

شرعت في الحديث بهدوء جيد وأفكار مرتبة عندما سألت عما بجعبتها.. عرفتني بنفسها أولاً وأخرجت ورقة مصورة تبين معاملات بنكية مزيلة

بتوقيع نشأت وجواره ختم النسر..

قرأت بتركيز كبير ما شمله ذلك المستند، طلب من نشأت بصفته مدير المطبعة لمؤسسة حكومية للدعايا والإعلان بتمويل كبير لسد احتياج المطبعة من الأوراق بمقاساتها المختلفة ومستلزمات الطباعة طبقاً لاتفاق موقع بين المطبعة والمؤسسة من قبل وعليه في الأسفل موافقة رئيس مجلس إدارة المؤسسة بصفته ومسئولها المالي، مما يخول لنشأت صرف هذا المبلغ مباشرة من البنك بعد كتابة شيك من مدير المؤسسة بالمبلغ..

لم أفهم ما المريب في هذا التعامل المصرفي أو ما يعنيه قانونياً، حتى أخرجت الأنسة ورقة أخرى لها نفس الصيغة والتوقيع بل والتاريخ لكن المبلغ أقل بكثير من المطلوب في الورقة الأولى..
ثم ورقة ثالثة تفيد بدخول خزانة المطبعة مبلغ مماثل بالضبط للمبلغ في الورقة الثانية..

بدأت المعالم تظهر رويداً، وأصبحت أكثر وضوحاً عندما أخرجت نجلاء صورة من شيك موقع من مدير المؤسسة الحكومية بصفته وعليه المبلغ الأول..

عملية اختلاس وتعدٍ على مال عام مكتملة الأركان، اشترك فيها نشأت مع مدير المؤسسة «جلال عوض سعيد»، قرأت المستندات مرة أخرى وتيقنت من الرقم المدون على الشيك المصرفي وقارنته بالرقم الداخلى إلى خزانة المطبعة..

نظرت إلى نجلاء بتمعن وقلت: حضرتك وصلت للمستندات دى

إزاي..

- حضرتك صحفى وعندكم حاجة دايمًا بتقول: «لا تسأل عن المصدر»..
هزرت رأسى موافقًا، معرفة المصدر فى هذه الأوقات غير مهم..
اعتدلت الآنسة فى جلستها وفتحت حقيبتها وأخرجت مظروفًا أصفر
كبيرًا وضعته أمامى وقالت: حضرتك كده معاك نسخة كاملة من كل
المستندات الى عندى، شوف حضرتك هتستعملها إزاي..

نظرت إلى مباشرة وقالت بصوت أعلى من سابقه: أنا يهمنى نجاة تخرج،
بعدين ننتقم من نشأت وتكون فضيحتة قدام البلد كلها ويتشال من منصبه..
الفتاة تعانى من جبروت ذلك المدير أيضًا لربما هى إحدى ضحاياها
الكثر بلاشك..

استأذنت وتأهبت للمغادرة ووصتنى كثيرًا، بعدم البوح باسمها أو
التعريض بها، فهى تمتلك ما تخشى عليه،طمأنتها وأكدت لها أنه لا فائدة
حتى من إدراج اسمها أو الإشارة لها من قريب أو بعيد..
أشعلت سيجارة وطلبت من الساعى فنجال قهوة بن غامق ثقيل،
وجلست بكرسى الأستاذ مهنى، طلبت من السكرتيرة عدم دخول أحد
فالأستاذ غير موجود وأنا مشغول..

درست المستندات جيدًا، شيكات من نشأت لآخرين تورطوا فى قضايا
رشوة أو عمولات مشبوهه، وكشوفات مالية تؤكد اختلاسه وتعيده على
المال العام، جراب نشأت ممتلىء بالأفاعى حقًا وحان الوقت لتحكم قبضتها
على رقبته الملوثة..

رفعت سماعة التليفون وطلبت من السكرتيرة الاتصال بالأستاذ مهني
بالمجلة وتحويل المكالمات لهاتف المكتب..

دقائق وكان الأستاذ على الجانب الآخر من الهاتف، بنبرة سريعة تدل على
انشغاله، سأل عن سبب الاتصال..

- محتاج أقعد مع عصام خليل ويأريت لو تكون معانا.. أجبت مسرعاً..

- النهاردة هخلص الاجتماع متأخر ويدوب أروح..

- يبقى بكرة.. سألته متمللاً..

- آه ممكن بكرة الساعة 3 في الجمعة..

وافقت على ذلك وهاتف عصام خليل أكدت عليه المعاد..

أخذت الورق معي المنزل وفي الطريق توجهت إلى مطبعة قديمة أعرفها،
وصنعت نسخة خاصة لى من تلك المستندات..

علا عبد الهادي شحاتة.. قابلتها وجهًا لوجه، جمعنا السلم القديم لكنه
دون العهد والوعد مفرغ من الأمنيات، تشويه رائحة الظلم والخيانة.. كلها
تنبعث منى وتزداد انتشاراً، إذا وقفت أمامي، لم أكن شخصاً يتلذذ بالمواقع
ولا أنا هذا الشخص من الأساس، لست الإنسان المغرور النرجسى الذى
يرى فى الناس أواني فارغة تشبع حاجاته وفقط، هل أستطيع إبداء أسفى
وندمى وهى الآن تمرق على السلم أمامى مسرعة وخلفها زوجها، شريكها
الحقيقى..

لن تساعننى ولا يجوز أن تساعننى، أعطتنى حبها وتوجت عطاءها
بجسدها الصغير فكنت فارساً خائناً، حرقت العش والقش وتركتها فى

الخلاء وحيدة.

لكنها ظلت الأبل وتفردت بدور البطولة، الدور القاسى الذى عانيت منه، شخص مثلى لا يفترض معه النبل، ليتها قست على وانتقمت حين كان الانتقام متاحاً..

لماذا ظل حبى بقلبها يحركها، فلم تأخذ بثأرها، تركلنى بعيداً وتقذف بى فى ظلمات أعانى منها..

ما هى القوة التى حملتها فى صدرها لتصبر على ذلى لها وامتهانى لكرامتها والآن تبسم!

تبسم وكأن الأمر كان كابوساً فى ساعات ليلية متأخرة، إنه لألم فظيع أن أراها متمسكة بدور البطولة فتضعنى أمام مرآة الضمير فى صورة الوضع، سبى المعاشرة..

قبل وداعنا تركت لى رسالة من صفحة واحدة، بللتها دموعها ومعها انفطر قلبى لنصفين وحكم الضمير على بالاستهتار والخيانة..

وإلى الآن أحفظ بتلك الرسالة فى صندوق صغير فوق دولابى به شريط من شعرها أعطتنى إياه..

توالدت لدى رغبة فى قراءة هذه الرسالة مرة أخرى، صعدت إليها وأتيت بها، وارتفع صوتى عند الجزء الأكثر صدقاً وألماً..

«لا أستطيع أن أكرهك، وإن كانت دماء عذرتى فى نظرك هو الشىء المؤلم فصدقتى لا تساوى عندي جناح بعوضة كالحياة بدونك تماماً، ما بال هذا القلب يحفظ اسمك، هل أغلقت أبوابه وضائق حاراته وهجر ساكنوه

..... مساكن أهل الهوى=

شوارعهم الحبيبة وأصبح خرابًا، لا يحمل سوى شارع طويل غدونا به ذهابًا وإيابًا وحملنا عن بعضنا الأحلام والأمنيات فسميته باسمك وكلما مررت به تذكرتك، ووضعت الفل في أوله ونبتة القرنفل في آخره ورائحتك تعبق ما بينهما..

لماذا تركتني؟!

لا تملك إجابة، ولا أنا، تلك القلوب حالها غريب، موحشة دائمًا، تمرض أكثر مما تشفى، أترك لك الذاكرة عقابًا وإن كان في صميم قلبي أتمنى حمل ذاك العقاب عنك..

شعرت بضيق في صدري وكأن الغرفة أطبقت جدرانها، وأمامي بسمتها الأخيرة تجلت واضحة أمامي، ارتدبت قميصي مرة أخرى وأسهرت للخروج من الغرفة والشقة كلها، أهرب من هذا الجواب وتلك البسمة وفيض الذكريات..

قادتني قدمي إلى مسافات بعيدة أبحث عن الهواء الطلق في الأماكن الواسعة وعلى الطرق الأسفلتية بين السيارات ووسط المارة، حتى وصلت إلى قهوة أعرفها ملجأ جيدًا «بورصة الشرق»، المكان الذي يتردد عليه جمال دومًا..

جالسًا وأمامه نار جيلة مشتعلة جمراتها وكوب من الشاي ممتلئ إلى ثلثيه وكأس من الماء لم تتبقَ بها سوى قطرات، وجواره صديقان، انهمك ثلاثتهم في الحديث، فلم يفتن إلى قدومي حتى وقفت أمامه مباشرة، رفع رأسه ورمى بخرطوم الشيشة جانبًا وعانقني بشدة، سأل عن موعد عودتي، عن

..... مساكن أهل الهوى=

صحتى، عن أحوالى كلها، وعاتبنى لعدم مهاتفته ولو مرة واحدة طيلة هذه الفترة..

جلسنا وتحدثنا عن كل شىء، وخصوصاً عمله الذى يعانى من الخصومات المتكررة بمرتبته، آخرها للتحريض على التجمهر بساحة المصنع! طلب دومينو وهو يتحدث وكأنه لا يبالي بخصومات ولا يحمل للمرتب عبئاً بل قال بلهجة مرحة: تعال نلعب عشرة دومينو وسيلك..

- قولى صحيح، ماشوفتش حد من صحابنا الفترة اللى فاتت، أنا شوفت بلال.. بلاليو..

- شلة المسرح ياعم.. تفتكر أنت بقى أنا شوفت مين وشوفته إزاي..

- عبد الرحيم..

- لا.. رشدى.

- بيت الست عايده؟

- لا.. لا..

اتسعت عينى على آخرهما ولم أمنع نفسى من الضحك، فرشدى تقدم لخطبة أخت جمال الصغرى..

- عبشية هذه الدنيا بعلاقاتها الغير منطقية رفض جمال بالطبع هازئاً من رغبة رشدى الغريبة كما قال..

حرك فؤاد الدعوى، وطلب رسمياً إعادة التحقيق بعد تقديم الطلب
بنيابة السيدة زينب، أخبرنى بتلك الخطوات عند زيارته الأخيرة منذ يومين..
كمسجون هارب؛ فى البداية يجب تسليم نفسى لىتم اتخاذ الإجراءات
القانونية، هكذا رجح إذا كان هناك قضايا أخرى غير معلومة لدينا حتى
الآن..

أما عن حكم المحكمة فيدور حول عدم تنفيذ الدعوى، وبخصوص
القضية الأخرى لإعادة التحقيق فيها من بدايتها شىء جيد..
اقترح فؤاد عودتى للقاهرة، فقد وفر سكناً آمناً بشقة فى مساكن المقطم،
استأجرها من شقيق زوجته، ذلك سيكون أفضل عند الذهاب إلى النيابة
والقيام بالإجراءات القانونية، ربما لا يحتاج الأمر لتسليم نفسى وقضاء أيام
أخرى بالحبس إذا اقتصر الأمر على القضيتين السابقتين، حاولت أن أفهم
الأبعاد القانونية من فؤاد لكنى أقف أمام هذه الطلاسم عاجزاً عن حسن
الإدراك..

نهضت إلى قهوتى قبل أن تفور براكينها وتسقط ومعها حشرات على
رائحة البن ونكهته مرة المذاق حلوة الأثر، غادر على الإسكندرية منذ أسبوع
أو أكثر تقريباً واحتسى معى فنجان قهوته قبل الرحيل، رأيت فيه شاباً
مختلفاً قليلاً عن مراحل شبابى، هو أكثر اندفاعاً وطاقة يحمل أحلاماً عريضة

..... مساكن أهل الهوى=

وجيد في التأمل، قلبه لا يعرف الحب الخالص، لكنه يعرف الحب وهذا قد يكفى لفترات بعيدة!

لم يخلق موظفًا، هو كاتب وفنان وزوج مستقبلي فاشل يهوى السفر ويجب الانطلاق، لا يحمل أحدًا فوق جناحيه سوى أحلامه لن يصبح مركبًا للآخرين، سيظل طائرًا، وهذا له ضريبته!

تحدثنا كثيرًا عن خاله - ماهر شعراوي - انقطعت العلاقة بينهما منذ سنتين عندما دعاه للسفر مع ابنته إلى إيطاليا، وفتحته خالته في الزواج من تلك الفتاة فرفض، وبذلك أنت العلاقات بنهايتها..

الجيد في الأمر هو مراسلته لابنة خاله في إيطاليا باستمرار، فهم أصدقاء جيدون على حد قوله، ولا يجذب أن تصبح العلاقة أكثر من ذلك، حياتها مختلفة وثقافتها مغايرة تمامًا..

أما ماهر فقد كان محاضرًا عسكريًا بعدة دول عربية وآسيوية.. اهتمام ماهر بعد التقاعد بالجانب الأكاديمي جعل نجمه يبرز من جديد، لم أجد في حياتي كلها شخصًا أشد صلابة وإصرارًا من هذا المقاتل، لا يستطيع أن يمكث ولو ساعة واحدة بعيدًا عن الأضواء..

قد تكون هذه المرة الأخيرة لكتابة مذكراتي بهذه الشقة، فلم يعد طائرًا وراء بقائي هنا وينبغي عليّ المغادرة في الغد أو بعد الغد على الأكثر..

لم يكن سراج فكري في هذه الفترة موجودًا، كان خاملاً كجهاز أمن الدولة، هي لحظة انتشاء بالنصر، بمجرد أن تزول تظهر الغربان مرة أخرى.. الغربان طيور ضعيفة تجرى وراء الجيفات النتنة، لكنها تنعق بنذير

الشؤم، أما الجوارح الأشد ضراوة فلا تنتظر الميت والفاسد، تأخذ مكاسبها مما ينبض بالروح، عطر الرائحة، جيد اللحم!
فتكون الفريسة دسمة كغنائم الحرب، ظهر نوع جديد من السماسرة واشتهروا كشمس الظهيرة وقمر ليلة التمام، تقربوا من السلطة وكونوا الثروات ومعها أعلنت الحكومة عن سياسة الانفتاح..

وأصبح الصعود بين الطبقات هو سنة تلك المرحلة، وفتحت الأبواب أمام المهجرة لتسود أنماط من الاستهلاك المظهري وتواجد داخل كل واحد منا بإيعاز من الحكومة «على بابا» جديد، يذهب إلى مغارات الذهب فيملاً منها جيوبه وعمته وقفطانه ويعود مسرعاً إلى بيته لكنه لا يعود بالذهب وحسب، بل تلتصق به قوانين أخرى تأخذه إلى الاغتراب عن أفكاره وعاداته فإذا كانت الوجهة هي بلاد النفط وذلك السائد فأهلاً ومرحباً بحضارة البادية وأهلها!

بدأت معالم جديدة تظهر وأنماط مختلفة من الحيوات تطفو على السطح وتهبط أخرى بدلاً منها، والشعب متفرج ومشارك، يصيبه من يده ما تريده الحكومة وهذه هي أصعب المعادلات التي لم أجد لها تفسيراً..

تغير مفهوم أفراح الزفاف، والمصيف، والمهجرة والموسيقى والسينما، كل شيء...٤

وأصبحت السمة الرئيسية هي الازدواجية الاجتماعية، فعلى سبيل المثال، الزواج لم يعد تكليلاً للحب أو بادئةً للارتبط أو حتى تقارب بين عائلتين ونسب منتظر وخلافه نتحول من نظام اجتماعي لإعلان اقتصادي

..... مساكن أهل الهوى=

بحث، فرصة عظيمة تخبر بها الناس عن نجاحاتك وتمكنك من بلوغ ثروة جيدة سواء لك أو لابنك أو للعائلة كلها، ويتخطى الإعلان ذلك إلى توقيع الصفقة بين العائلتين، ربما بين عائلة من الطبقة الثرية أصابها الحراك الاجتماعي فاقتربت من الطبقة الأدنى كوضع مالى لكنها مازالت تحتفظ بالرونق الاجتماعي أو ما نقوله «ذا برستيج - the prestige»، والعائلة الأخرى من الطبقات الصاعدة مالياً فتحتاج لمشهد صريح تبرز من خلاله قدرتها على مواكبة ومقارعة الطبقة الثرية، لم يعد مهمًا ممارسة الإتيكيت والسلوك ولا تعلم الإنجليزية ولم يعد يعنى شيئاً الاهتمام بالمعسكر الشرقي أو الغربي، المهم هو جمع الثروة..

صاحب جمع الثروة مرض آخر وهو الحصول على الترقيات بشكل سريع بإلقاء عوامل الخبرة والكفاءة جانباً واستعمال أدوات أخرى كالتجويد والتملق لصاحب العمل أو المدير..

كنت مهندساً بمصنع كبير لتصنيع هياكل السيارات وكان مديري المباشر شاباً صغيراً لم تتجاوز خبرته الثلاث سنوات لكنه بارع في المداينة وحيد في التملق وكلل مجهوده بالزواج من ابنة مدير المصنع فأصبح مسؤولاً عن قطاع الإنتاج بالمصنع!

الجيد في الأمر أن صديقي الذي يتابعني كظلي وينظر إلى كفرية لا بد أن تأخذ نصيبها من الأسر أو القتل، أصابه جانباً كبيراً من الحظ، ليتحول سراج فكري من ضابط صغير بأمن الدولة إلى مقدم وهو لم يبلغ الخامسة والثلاثين تقريباً وكاحتفال بذلك الترقى، طلبني في مكتبه بمقر أمن الدولة، ولا أحد

..... مساكن أهل الهوى=

يستطيع التأخر عن ذلك النداء..

كان الحديث الشائع بيننا عن وصوله إلى هذه الرتبة بتلك السرعة؟!
توترت العلاقة بينه وبين ماهر قليلاً، وتحسن العلاقة بينى وبين ماهر
أصاب علاقتها السوء..

العام الثانى لعلى فى المدرسة هو العام الثانى لمصر بعد الحرب وهو العام
الذى أعلن فيه السادات بكل وضوح عن توجهه الاقتصادى والسياسى فى
5 يونية 1975 فتح السادات قناة السويس، معلناً عن إطلاق ذلك الشريان
الحوى أمام الملاحة العالمية، وامتلات الجرائد وبرامج المذيع والتلفزيون
بتصريحاته وخطبه الكبيرة عن التنمية والتقدم والانفتاح على العالم وتشجيع
الاستثمار، ولم تمض شهور حتى غرقت البلد كلها فى قروض لتشجيع
الاستثمار الداخلى كما ادعوا، وشهور أخرى وظهرت بوادر من البنك الدولى
بإشهار إفلاس مصر!

أحجيات ذلك العصر كثيرة ولا تفسير لها سوى التفرد، التفرد بالسلطة
والقرار لا شىء أخطر من ذلك فى المطلق..

وبدلاً من تحقيق نمو اقتصادى محسوس داخل الشارع المصرى، انتشر
الكساد وتبعه التضخم مما أدى لبطالة عصفت بالشباب ليلزموا المقاهى
والحانات..

فى رسالة من أخى حسين أخبرنى بزواجه من فتاة فرنسية لأصول
مغربية، تم تعيينه بكلية الاقتصاد جامعة موبيليه، مرت ثلاثة أشهر بعد
ذلك الخطاب، ونزل إلى القاهرة..

..... مساكن أهل الهوى=

استقبلته بالمطار، لم يصبه التغير الكبير سوى شعر أبيض خطب القليل من رأسه وانتشر بشاربه..

تحدثنا كثيرًا في الاقتصاد، أذكر جملة قالها ظلت معي دليلًا واضحًا لكثير من الوقت: «بات زمن التسوق معتمدًا على التسويق»، لا تشتري ما تحتاجه بل ما تفرضه عليك وسائل الإعلام والانتشار..

وطبقًا لذلك المبدأ غرقت البلاد في الاستهلاك، وقل إنتاج السلع والمواد الغذائية والأساسية لقلة عائدها في نظر المستثمرين فكان القدر على موعد جديد للمظاهرات في الجامعات ورفع شعارات اشتراكية، وارتفعت قوة المباحث وأجنتحتها السرية ونشط سراج فكرى مرة أخرى وأصبحت أنفه في كل الاتجاهات تشمشم يمينًا ويسارًا..

الطلاب صادقون دائمًا رفعوا في جامعاتهم وبكل وضوح في بداية 1976 مطالبهم بخفض الأسعار وتحسين مستوى القطاع العام واتساع مظلة الدعم ودعوا السادات وحكومته بالرجوع يسارًا..

السادات شخص يجذب اللعب بجميع أوراقه ويجد متعته في ألعاب القط والفأر فكان الرد بتقوية فصيل الإسلام السياسى ولم يكن مفاجئًا أيضًا، فسادات 1971 صاحب شعار دولة العلم والإيمان ومواد الدستور التى زجت بالدين فى الحكم هو نفسه من استهدف بالقتل فى حادث الفنية العسكرية فى 1974 على يد تنظيم صالح سرية ورفاقه من تيار الإسلام السياسى..

فى ساحة مصنعنا علق أحد العمال الذى لا أستطيع تذكر اسمه لافتة

كبيرة دون عليها « كيلو اللحمه بقى بجنيه .. أومال الفقرا ياكلوا إيه » ..
ماهر كان يرى فى عبد الناصر الأب الروحى وكان يجد فى السادات
انحرافاً لعلم عبد الناصر الكبير، فكان النقاش معه تغلبه العاطفة، عاطفة
الكره للسادات، أما سعد نجيب وقد لقبته رهبان الفكر، فهو لم يتزوج
وكرس حياته للقراءة والتحليل، رأى فى السادات الحاكم صاحب الهوى،
لا غير وعندما سألته عن مقصده قال: « السادات فاكِر نفسه أحسن واحد
يسوق العربية دى، الغربية إنه أصلاً مامعهوش مفتاحها ولما اتزقت معاه
فكر إنه كده شغلها » ..

صفية كانت من أسعد الناس بتحسن علاقتي بهما لكنها كانت
متوجسة وقلقة من النشاط السياسى مع رأفت إسكندر ومجموعته، وقتها
كان تعرفى بصحفى شاب يدعى شكرى الطوخى، أصبح من زبائن قهوة
عبيد حنا الدائمين يكتب فى جريدة اللواء ومقالاته تصيب أركان النظام فى
نقاط الضعف وتشهر بفساده وفساد الوزراء ورجال الأعمال ..

تجمعنا فى ليلة عند الشاعر أحمد فؤاد نجم، وكانت لياليه وأمسياته ذائعة
الصيت عند الجميع وألقى قصيدته الجديدة وغناها الشيخ إمام، كل من
حضر تلك الأمسية حضر تحقيق أمن الدولة فى صباح اليوم التالى إن لم يكن
بعد الندوة ..

حفظت القصيدة عن ظهر قلب .. « بيان هام » .. ومن كثر ما رددتها فى
البيت حفظها معى على، وظلت صفية تضحك وتصيح الولد سيصبح
مشاغباً كأبيه ..

..... مساكن أهل الهوى=

«هنا شقيلان محطة إذاعه حلاوة زمان .. يسر الإذاعه وما يسر كوش ..
بهذي المناسبه وما بندعكوش .. نقدم إليكم ولا تقرفوش .. شحاته المعسل
بدون الرتوش»

وظل الرماد تحت الأرض حتى وصلنا 1977 وجاءت انتفاضة من
الصعيد والريف والشارع والحارة إلى الميدان ومن مصنع الحديد والصلب
إلى الغزل والنسيج من حلوان للمحلة، من باب الجامعة إلى باب المستشفى،
جاءت بسبب زيادة الأسعار ورفع الدعم عن بعض السلع الأساسية..
18 و 19 يناير 1977، الشوارع تعج بالمتظاهرين يقتحمون الميادين
ويطوفون بالشوارع واللافتات: «إحنا الشعب مع العمال ضد حكومة
الاستغلال»..

وقوات الأمن تترقب واستعداد لأقصى درجاته ومسؤولو الحكومة
والرئيس في المؤتمرات والتصريحات يتهمون المتظاهرين بالتمويل الخارجي
والعمل على إفساد مكتسبات الدولة، وفي خطاب امتاز بالعنجهية، نعتها
السادات وسط نوابه بانتفاضة الحرامية..

قصير الفهم ومغرور ظهر في تصريحاته في اليوم الأول من الانتفاضة
عندما قال: إن العمال والطلبة هما وقود ثورى يستغله أصحاب المصلحة
لتحقيق مآربهم، ومعه الثلاث صحف القومية بعناوين في الصفحات
الأولى، مخطط شيوعى لحرق مصر وإثارة الفوضى..

أمام عيني تمت مهاجمة قسم شرطة السيدة زينب وإحراقه ولم يتحرك
ناشط سياسي أو عضو في أى حركة لتوجيه المتظاهرين، الجوع وحده

..... مساكن أهل الهوى=

حركاتهم والظلم أرشدهم لتلك الفوضى .. فوضى الحق !
نزلت قوات الجيش إلى القاهرة والإسكندرية والمنصورة وأماكن أخرى
بالجمهورية للحد من انتشار الانتفاضة ودأبت الشرطة في اعتقال المتظاهرين
واعتقال النشطاء السياسيين وأعضاء الحركات ومآكينة الإعلام دارت
موجهة تهم بالخيانة والتمويل ..

ونصبي لم يكن مختلفاً، زنزانة بسجن طرة قضيت فيها أربعة أيام وتم
نقل لي لباب الخلق وهناك انتظرتني سراج فكرى ..
لم يضع الشاويش غمامة على عيني دفعني بقوة عبر الممر الفاصل بين
الزنازين وغرف التحقيق، أوقفني عند الغرفة الثانية ودق الباب بأدب جاءه
الصوت بإذن الدخول ..

- كنت عارف إن رجلك هتجيبك هنا .. قال سراج وهو ينفث دخان
سيجارته ويرسم على وجهه ابتسامة كبيرة، تابع بلهجة أشد قسوة من
سابقتها: «اللي زيك ما يعرفش حاجة اسمها مسئولية ومكانه لازم يكون
ورا باب زنزانة» ..

أثار حديثه سخطي، لكنني اكتفيت بضحكة غير مبالية اشتاط لها غيظاً
وغضباً فقال آمراً: انزل على ركبتك .. انزل ..
لم أملك قراراً فركلة الشاويش خلفي جعلتني أجتو على ركبتى، بدأ
التحقيق بسرعة دون حوار شخصي كعادته ولأول مرة سيجرى التحقيق
بنفسه ..

س: ما علاقتك بالتنظيمات الشيوعية التي تضر بمصلحة البلد؟!

ج: مصلحة بلاد إيه يا سراج.. قلت باسمًا..
خلع معطفه ونزع ساعته وأقبل نحوى فى هدوء سبق عاصفة تمثلت فى
لكمة قوية من يده أصابت فكى وقال فيما يشبه الصراخ: تجاوب من غير
فلسفة وعلى أد السؤال.. اسمى سراج باشا يا حيوان..
غاصت كلماته فى عقلى كما تمكنت لكتمته من فكى وشعرت بمهانة
سيطرت على مشاعرى، تمنيت أن أقتله، أمزق عنقه..
لم أجابوه واستمررت فى سخريتى من كل أسئلته، بصق لعابه فى وجهى
وركلنى فى وجهى وفى الصدر والمعدة فصرخت بكل ما أوتيت من قوة:
صفية زى مصر اختارت الى يحافظ عليها مش الى بيدور على مصلحته من
غير لازمة ولا شرف..

احمرت عيناه وملأ وجهه الدم، طلب من الشاويش الوقوف بعيدًا، خلع
سلاحه الميرى ووضع على مكتبه، وقتها أدركت أن رصاصة ستنتهى حياتى
بذلك المكان ولن يعلم عنى القريب أو البعيد شيئًا، أين أنت يا صفية؟!
كان السؤال الذى سبق هجوم سراج علىّ، هو أيضًا، سأل نفس السؤال
لكنه تهكم به، كنت جادًا، وكان ساخرًا..

كسر بلكياته فكى وبركلاته ضلوع صدرى ولم أستطع مقاومة الألم
فسقطت مغشيًا علىّ، لا أعلم كم المدة التى استغرقتها حتى ارتطم بجسدى
ماء مثلج من دلو صفيح، فتنبّهت وأصابنى برد يناير، وضعت بززانة لا
ضوء بها سوى مصباح صغير لا ترى تحت ضوءه قدميك، وكل ليلة يأتى
سراج يفتح باب الززانة يلعننى ويسب نسبى ويغرق فى ضحكاته..

وأصاب اليأس قلبي، لن أخرج من هنا حيًّا!
مرقابة الأسبوع على ذلك الحال، والطعام مر والشراب علقم!
وأذنى أصابها العطب كعيني فلا أسمع أغنياتى القديمة ولا أبصر
لوحات الحب والسعادة ولا أستطيع التعرف على لون الثورة إن شابهه لون
الدم..

فى الرابع والعشرين من فبراير، فتح باب الزنزانة ودخل ضابط صغير
ومعه سراج واثنان من الجنود اقتادونى إلى سيارة الترحيلات ومنها إلى سجن
أبو زعبل!

وقضيت شهرًا آخر بسجن أبو زعبل، لم يظهر فيه سراج مرة واحدة،
فمكيدته أعدت من قبل ولا تحتاج لظهوره الآن..

زارتنى صفية فى هذا الشهر وجاءت معها ريتا، كنت مكسور اليد
وعظام صدرى لم تشفَ بعد، عندما رأيتها سويًّا انخلع فؤادى، هل باحت
ريتا بالسر المكنون فى صدرنا لصفية فجرحت قلبها، أو علمت صفية ما
بين ريتا وبينى لكنها لن تعاتبنى أو تتركنى الآن، ستتظر خروجى، دارت
برأسى أفكار أكثر وأكثر ولم أعرف كيف أوقفها، حتى بادرتنى صفية
بابتسامه ودودة وأمسكت بى وبثت دفتها بين أناملى ووقفت ريتا تبتسم
وعيونها تنطق بالكثير أفهمه وأعياه، ريتا ستسافر إلى بلدها ذلك الأسبوع
وهذا السبب الذى جعل صفية تصطحبها لزيارتى بعد طلب وإلحاح من
ريتا..

لم أعلم هذه المرة أيضًا، هل تدرى صفية ما كان بينى وبين ريتا؟!

..... مساكن أهل الهوى=

أما على فيردد «بيان هام» كل صباح وينتظر وصولي في أى وقت لناخذ صنارتنا ونذهب للصيد، وصفية تخبره بقرب هذا اليوم للمرة الأولى والأخيرة، جمعتنى زنزانة واحدة برأفت إسكندر وشكرى الطوخى وسعد نجيب ومعنا شخصان آخران، رجحنا أن يكون بينهما مخبر أو كلاهما، فكانت أحاديثنا فارغة المحتوى..

في 23 مارس أطلق سراحنا بضمّان محل الإقامة وكتبنا بخط يدنا تعهداً بعدم المساس بأمن البلاد أو محاولة زعزعة الاستقرار! لم أسأل عن ضلوعى المكسرة ولا عن أسناني التى أسقطها سراج ولم أتطرق لصراخى فى الزنزانة ليلاً، كل هذا لا يهمنى، طالما سأخرج إلى الهواء، إلى على وصفية..

وشعرت بعمر يضع بين أزقة الزنازين وفي ظلامها الدامس، تذكرت المهر ووجوب دفعه فطردت عن نفسى تلك الفكرة وقلت فى داخلى، إن صفية فتاة حوراء لها من الجمال ما يخجل الشمس والقمر، مخضبة الأظافر والأهداب، مهرها من العمر والمال وصيغتها من الصحة وهدوء البال، وكله رخيص.. يذهب فداكى يا حلوتى وإن ابتغيتى عيشة القصر وأعرضت عنا السبيل..

يكفى هذا القدر من مذكراتى اليوم، فأمامى يوم طويل أجهز فيه حقائبى وأودع فيه تلك الشقة وهذه المنطقة، فغداً أشد الرحال إلى القاهرة بعد الاتصال بفؤاد لينتظرنى بمحطة رمسيس، وأرى المسكن الجديد بمدينتى الأولى..

ترامت حشجة نبرات صوتها الصارخة فى الطرقة الضيقة من خلف الباب الحديدى وعندما انبرى المزلاج وظهرت بهيئتها القاسية، سيدة ثابتة الملامح، محكمة الحجاب فى بدلة شرطية قالت وهى تنظر فى أروقة الزنانة وخلفها شرطية أخرى أقل فى الرتبة: نجاة رأفت المصرى.. زيارة..

انفضت من مجلسى وتبعتهما ونظرات أهل الزنانة تشيعنى منها البارد ومنها المتلهف بخبر العودة وهنالك من يرى فى الزيارة فرصة جيدة لغسل الجوف من طعام السجن وشرابه..

فى غرفة الضابط المسئول، كان فى انتظارى عصام خليل المحامى والأستاذ مهنى وعلى، طمأنتهم على حالى بتلك الكلمات الرتيبة المحفوظة، بدأ عصام خليل الكلام بشكل جدى بصوت خفيض مسموع لأربعتنا ولا يخرج عنا: المستندات الى صاحبتك جابتهالنا هى عبارة عن صور، مش أصول، النيابة ما بتاخذش بيها كدلائل..

- أو مال إيه؟! سأل على وهو ينفث دخان سيجارته بعيدًا..

- بتكون قرائن..

هزرت رأسى دلالة على عدم الفهم فتابع: النيابة بتفتح تحقيق عليها وبتبدأ تطلب الأصول من الجهة الى أصدرتها..

أصبحت الصورة واضحة لدى الجميع الآن، لكن الأستاذ مهنى تدخل

..... مساكن أهل الهوى=

وهو يربت على رقبتيه وقال: في حل ثانى أنا معرضه عليكم بس أنا عندى فيه رأى شخصى، هقوله بعد ما أسمع آراءكم..
امتد الجدل والنقاش حتى انتهاء وقت الزيارة ولم نتخذ قرارًا، اتفقنا على التفكير واتخاذ القرار اللازم في الزيارة المقبلة، أى بعد الغد وسيأتى الأستاذ عصام فقط بصفته المحامى..

تلقتنى كريمة السبع بلهفة، تسأل عن جديد فى القضية فكانت إجابتى بالنفى، أفسحت لى مكانًا لجوارها وقالت: لا عليك..
قدمت لى قدحًا من الشاى وأخذت تسب وتلعن فى الرجال وأصنافهم، أصابتها الخيانة من الرجال أكثر من أى شىء آخر، زوجها القديم والذى تلاه ورقيقها الحالى، جميعهم لم يصونوا العشرة كما قالت..
نظرت إلى المساحة الخالية من الزنزانة وغمغمت بنبرة هادئة تخالف طبيعتها: بس عارفة يا بت ليهم طعم كده حلو أوى يا بت، ماينفعش نعيش من غيرهم..

تمايلت برأسى وقلت: زى الطير.

- آه يا نجاة.. كلنا بنحب الطير، والطير بيعحب الفول الأكثر وما يصونش عشرة الغية..

ضحكت قليلًا وتذكرت المرة الأولى لى تعارفنا عندما تباht بجريميتها مع الجارة التى حاولت عبثًا إمالة زوجها قبل أن يصيبها نصيب من البلطجة والبطش، هاهى الآن «السبع» تصل إلى الدفء فى قلبها وتذكر مغامراتها الرومانسية وإن كان المشهد مخالفًا للندب بوجهها

والخاتم الضخم بخنصرها وغلاظة صوتها..

كل يوم يمر مع بقائى هنا أكتشف عوالم أخرى فى نفوس أولئك المسجونات، نبذهن المجتمع وتحلى عنهن ومع ذلك يبنى وجوده على الأمراض التى نالت منهن، ما الفرق بين نائب برلمانى يستولى على الحقوق مستغلاً حصانته مشاركاً ضابط شرطة أو مسئول بالنيابة الوليمة، وبين كريمة السبع، لربما كريمة السبع تناصر الحق أحياناً..

وكيف نطلق على الأخريات عاهرات، وأشكال العهر هى الأكثر فى مجتمعنا بين سياسى لرجل قانون وصولاً لرجل دولة لتنتهى وصلة العهر بمباركة مسبحة رجل الدين..

إذا كانت سمة رجال الأعمال والوزراء وشركات توظيف الأموال هى السرقة، وشرعهم هو النهب وستتهم النصب والتهرب، كيف تأنيهم الجرة بمحاكمة من اقترب من الفتات ليسد جوعه!

فقراء يسرقون قوت فقراء ويصدر الأحكام أثرياء، حتى لا تعم الفوضى!

تركت أفكارى وتوجهت لصوت الشجار فى الجانب الأيسر من الزنزانة، هرعنا إلى محل الواقعة، وانتشر السباب واللعن كقنابل تسقط من كل آن فوق الصفوف، لعن للآباء والأمهات وسب للأجداد وذكر لأعضاء الجسد بالفاحش والبذىء وحركات بالأصابع وبالخنصر انتهت بصراخ من كريمة السبع وتبعته نعمات غزال فسيطرت على كل حركة بالسجن لتجلس وسط المشاغبات وتسئ قوانينها وعلى الجميع الاحترام

خوفًا من تهشم أنف أو كسر فك!

هنا أيضًا قانون يلتزمون به، قانون كريمة السبع ونعمات غزال، لا يهم من المخطئ، المهم الالتزام والسكوت عند احتدام الأمر...

تلك المشاهد سينمائية بامتياز يبحث عنها المؤلفون والمخرجون وكتاب السيناريو، كذلك هى الحياة شاشة سينما واسعة تأتينا بممثلين من الطبيعة والإخراج تلقائى فجائى والعرض مفتوح دون تذكرة وبلا معاد مسبق أو دعاية..

عم الهدوء الزنزانة من جديد وأخذت اللقاءات الثنائية والثلاثية تدور فى الأروقة والجنابات، تلك تغنى وتلك تتمخط والأخرى تدخن بشراهة ونعمات غزال تراقب فربما تظفر بلبلة جيدة مع إحداهن، مددت ساقى وعدت برأسى إلى الخلف أفكر فيما أورده الأستاذ مهنى كحل، رفضه الجميع ورفضه هو - أيضًا- قانونيًا كما وضع المحامى الموضوع معقد، مساومة نشأت بسحب الدعوى والتنازل مقابل عدم تقديم تلك الأوراق للنيابة، لن يوقع بشخص مثل نشأت فى شرك، الجهات المنوط بها إصدار تلك المستندات ملك يده ومتورطة معه فلا شك بمراعاتهم الوضع القانونى وهذا الطريق سكتته أطول من ليل يناير..

أما تهديده بفضحه فى الجرائد ونشر تلك المستندات فهو أمر لن تهتز له خصلة من شعر رأسه، هو أيضًا يمتلك مجموعة من الأقلام الصحفية الفاسدة تستطيع الكتابة والتشويه وستربط تلك الأخبار المنشورة بقضيتى وعندها تحاك القصص الملفقة بعلاقة بينى وبين الصحفى الفولانى ويضر

بسمعتي أكثر!

فتح باب الزنانة على مصراعيه وقذفت فتاة بقوة إلى داخل الزنانة لكنها لم تسقط فقط تمايلت وشيعتها تمنيات من الشرطية في الخارج بقصف العمر والهلاك، لكنها لم تكثرث، عدلت من وقفاتها وأدارت العلكة بين أسنانها ووجهت حديثها إلى الشرطية: بعد الشر يا أختي..

أزاحت بطريقتها دلوًا مقلوبًا واتجهت إلى الجزء الفارغ من الطوار، جلست بينما الأنظار تتجه إليها، إلى وجهها المغطى بمساحيق التجميل وبنطالها الضيق وبلوزتها عارية الذراعين وشعرها الأصفر الفاقع، أخرجت من حمالة صدرها علبة سجائر وأشعلتها في لامبالاة، وتمت بصوت وصل لأذني «إيه الهم ده هما هيفضلوا مبحلقين!..»

في سرعة البرق كانت نعمات غزال تلاصقها المجلس وبدأت الوشوشة والغمغمة بينهما، حتى قالت المسجونة الجديدة بصوت مسموع: كل شيء وليه تمنه يا..

قاطعتها نعمات: اللي أنتِ عاوزاه..

انتشرت الضحكات والغمزات هنا وهناك وتهامس الجميع عن العلاقة الجديدة بين نعمات والفتاة..

شرعت نعمات في تغطية جزء من الزنانة بملاءات وجعلته مهجعًا لليالها المقبلة مع الفتاة، عملت بسرعة كبيرة وعاونتها أخريات ممن تحاشين بلطجتها وبطشها، لا أحد يسأل عن قضية الفتاة ذات النهود المنتصبة والشعر الأصفر، خلية نعمات الجديدة، المهنة معلومة سلفًا

للجميع!

ومضى اليوم والذي يليه في الحبس والتحقيقات في النيابة لا تفعل شيئاً
سوى التأجيل..

خرجت كريمة السبع وأوردتها رسالة تبلغها لنشأت، وأعطيتها عنوان
المطبعة حيث تجده..

مرت ثلاثة أيام أخرى حتى فتح باب الزنزانة ونادت الشرطة فقامت
إليها لتقول: باينه إفراج!

وقتها عرفت ما قامت به كريمة السبع على أحسن وجه..
بمكتب الضابط وجدت نشأت يجلس على الكرسي نافخاً صدره وعلى
رقبته شريط طبي لا يمنعه من الحركة أو الخروج، تعافت صحته بشكل
كبير..

قال الضابط وهو يرمق إلى نشأت بنظرات تحتقره: الأستاذ نشأت
سحب بلاغه بالتعدي وكده أنت هتتحول للنيابة ممكن يتم الإفراج عنك
بضمان محل إقامتك لحد ما يخلص التحقيق في قضية السرقة..

ابتسمت دون تعليق وحركت رأسي، بينما زاد نشأت من رفع رقبته
كصاحب للفضل والمنة..

امتلاً صدرى بالسخرية من هذا البرميل، حركته غرائزه فلم يتأخر عن
سحب الدعوى ضدى، رجعت إلى الزنزانة لانتهاج الإجراءات والتحويل
إلى النيابة لإكمال خطوات الإفراج..

توقفت الفولفو الزرقاء ونزلت منها بعدما فتح لها الباب بأدب مسرحي، سارت معه متأبطة ذراعه تميل برأسها على كتفه، وفستانها القصير يزيد من جمالها وبدلته الأنيقة ذات البيون الصغير تضعه في مصاف الفنانين والوجهاء، صورة فاتنة وجذابة لأفلام الكتاب وألسنة الشعراء وريشة الرسامين، لكنها غادرة، تنزع الفؤاد من الصدر، وتلوك بالذكريات كالعلكة فتلقيها أسفل حذاءها ذي الكعب العالي الرنان..

لم أكن أعلم بقدوم ماجي نظمي وخطيبها - فتى التنس - إلى الحفل، تلك الحياة إذن يكون الفراق متعمداً وتجمعنا الصدف غير المأمونة هل مهتم هذا الرجل بحفلات الموسيقى، أو يجد فيها واجهة تبرز ثقافته وتحضره!
تجنبت النظر إليهما، لكن القدر لم يكتفِ بصدف لقاء عابر، بل جعلنا نلتقى وجهاً لوجه والمسافة بيننا لا تزيد على مترين في ممر القاعة، مدت يدها مصافحة بحركة عفوية وقالت بابتسامة تملأ ما بين الخدين: على إزيك.. فينك.. من زمان جداً ماجتش النادي.. أخبراك إيه؟!

كيف لها أن تتحدث بذلك البرود وتلك اللهجة، يا لها من فتاة حقاً، ألا تعلم أنها فطرت قلبي وقطعت منه جزءاً ألقته على ملعب التنس لتدهسه قدم الواقف جوارها..

ظهر الرد كابتسامة فاترة ورقة شجر أجهدتها الهواء الشديد فوقعت على الأرض ذابلة متعبة: أنا موجود.. كنت مسافراً.. آسف نسيت أبارك..

..... مساكن أهل الهوى=

قاطعني الشاب بلهجة أحسستها فيها بانتصاره وقال: الله يبارك فيك،
شكرًا لكرمك وذوقك..

ربما فهمت سؤالى، فبادرتنى بمثله، سألت عن سبب وجودى بالحفلة،
أخبرتني بولعى وشغفى القديم بالموسيقى الشرقية، يا الله لقد نسيت ذلك
أيضًا وأنا من حدثتها كثيرًا عن العود والكمان والقانون والناى..

أعدت السؤال عليهما فجوابت عن خطيبها: أخو سامح الصغير عضو فى
الفرقة والنهاردة أول ظهور ليه وحابين نشجعه ونكون معاه..

- بالتوفيق أكيد وفى انتظار عرض ممتع، هو بيعزف إيه؟!

لا أعلم سبب السؤال لكنه وصلة لحديث تورطت به ويجب عليّ مجاراته،
رد وهو ينهى الحديث وكأنه تأخر عن موعد أو فاتته اجتماع: أرغول ونائى..
بس النهاردة عرضه على الأرغول..

- بالتوفيق.. سعيد جدًا لرؤيتكم..

توجهت إلى مقعدى، استقر عليه جسدى لكن عقلى غاب كثيرًا، منذ
رؤيتها على الباب وحتى الحديث المنقضى من دقائق ومعه فيض الذكريات
بنادى فلورال!!

فى اليوم التالى، حاولت الاتصال ببلال، فتوجهت إلى وظيفة الاستقبال
بالجريدة وطلبت منها أن تدير قرص هاتفها قاصدة المسرح بالإسكندرية، لم
يجب أحد فى المحاولة الأولى..

عاودت الاتصال فى الواحدة ظهرًا، فأجاب أحد الموظفين، طلبت منه أن
يوصلنى بأحمد عز الدين بلال، الممثل بفرقة روبايكيا، انتظرت دقائق حتى

..... مساكن أهل الهوى=

جاء صوته مفعماً بالحيوية..

- ألو.. إزيك يا علوة عامل إيه..

- أنا كويس إيه أخباركم..

استمر الحديث سجالاً، اطمئنان على الصحة والحال حتى أخبرني أن مسرحيتهم «بيان هام» التي حضرت عرضها تم إيقافها بتهمة ازدراء الأديان والتعدى على المعتقدات الدينية..

حاول جاهداً أن يخفى حزنه لكنني شعرت بصوته بهتز ويخفت كغريق في عرض البحر، حاولت تجاوز ذلك الأمر وسؤاله عن باقي أعضاء الفرقة..

- كلهم بخير يا على.. راوية ويوسف والعربي وسارة كلهم بخير..

- سلمى عليهم كلهم.. كلها أسبوعين ثلاثة وهتلاقيني عندك ومعايا حاجة حلوة من اللي قدمنها على مسرح الجامعة، نعيد كتابتها ونقول فيها اللي عاوزينه ولا تزعل نفسك..

وصلت ضحكته لأذني عبر ساعة الهاتف فارتاح قلبي قليلاً، أفتلت الخط بعد تحميله أمانة السلام لباقي الزملاء، ثم صعدت إلى مكتبي في الطابق العلوى..

راودني التفكير في قضية نجاة المصري، فطلبت قده قهوة، هو الثالث حتى الآن..

اتخذت قرارى وسأخبره للأستاذ مهني، لن أصبح قلمًا لتلك القضية فهذا لا أجيده، لا أستطيع الدخول في حملات لكشف فلان أو تشويهه علان، عندما يأتي يوسف منصور سافأتحه في الموضوع ويصبح التنسيق بينه وبين الأستاذ

..... مساكن أهل الهوى=

مهني، ذلك أفيد للجميع، منصور شخص صدامي يعشق تلك الموضوعات، أما أنا فأحبذ كتابة القصص والروايات وأجد لذتي حين أكتب مقالاً أدبيّاً، ربما طبيعة عملي في هذه الجريدة أدخلتني المجال السياسي، لكنني أكتفى منه بالتحليل والمتابعة وكتابة التقارير..

جاءتني دعوة على المكتب قبل المغادرة في الثالثة تقريباً، لحضور أمسية أدبية في دار الفن بميدان عبد المنعم سراج تقام غداً في السابعة مساءً.. ظهرت في هيئة جيدة، وتقويماً حسناً، باسممة الثغر، موردة الوجنتين، رائقة البشرة، وأضاف لتألّفها لون البلوزة الكرمزية التي ارتدتها، بيتها مرتب نظيف، أثاثه متواضع لكنه يظهر في أفضل حال، ورائحة البخور جيدة تختلط برائحة منظف الأرضيات، وضع الأستاذ مهني علبة الشيكولاته على الطاولة وقال بنبرة ملؤها السعادة: حمداً لله على سلامتكم يا نجاة..

رحبت بنا في بشاشة وأقبلت أمها ترحب أكثر وأكثر وتشكرنا على وقوفنا جوار ابنتها، دق الباب وفتحت الصغرى ليدخل رب البيت - والدها- عائق كل واحد منا وشكره وأكمل انسياب وصلات العرفان والمجاملات.. شخص متواضع، جيد الجلسة، لا ينفر منه أحد..

لم نساعد نجاة كما كنا نتوقع، هي من تولت تدبير أمرها ولم تفصح لأحد عما يدور في خبايا عقلها..

تناولنا أقداح الشاي ومكثنا قليلاً بعدها، حتى تذكر الأستاذ مهني مواعده، فاستأذن للانصراف، أصرّوا بكرمهم على تناول العشاء وما إلى ذلك من أصول الضيافة المصرية لكننا رفضنا بشكل مهذب وشكرناهم..

قبل الانصراف وعلى باب المنزل قال الأستاذ مهني لنجاة: خدى إجازتك براحتك وانزلي الشغل تعالي على الجمعية، أنا وصلت لشغل يعوضلك دخل المطبعة وأكثر..

أومأت برأسها بالإيجاب وأخبرته بامتنانها الكبير، سبقتني إلى الأسفل مما أتاح لي فرصة الحديث معها لدقيقة أو دقيقتين..

- أنا معرفش تفكيرك إيه، أو طريقتك في الانتقام شكلها إزاي بس أتمني ما بكونش ضرر تاني على نفسك..

- ما تقلقش يا على.. قالت ثم صمتت قليلاً واستدركت.. أقصد أستاذ على..

- على.. على بس.. إحنا بقينا أصدقاء..

- شرف كبير لي.. قالت بابتسامة واسعة..

- خلى بالك من نفسك.. لما ترتاحي هعرفك على صحفي زميلنا اسمه منصور عيسى، هيتولى ملف المطابع والفساد اللي فيها سواء هيكذب في جريدتنا أو جريدة تانية..

تبع الأستاذ مهني بسرعة وودعتنا نجاة وأسرتها طالبين الخير والسلامة..

ركبت مع الأستاذ مهني سيارته حتى وصلنا لميدان التحرير وعندها افترقنا، أخذت شارع محمود بسيوني لأصل لميدان عبد المنعم قاصداً دار الفن..

الحضور من كتاب وصحفيين تتراوح أعمارهم من الثلاثين إلى منتصف

..... مساكن أهل الهوى=

الأربعين بينهم كاتب فلسطيني ذائع الصيت يدعى «سلامة الحاج»، كاتب وناقد أدبي مخضرم، قبل بدء كلمته على منصة الندوة، رفع رأسه وحي شهداء المقاومة الفلسطينية وأسرى الحركة النضالية، أثنى وأبدى اعتزازه الكبير بالمقاتلين المرابضين على الجبهة الفلسطينية الأردنية وعلى رأسهم سالم أبو غليون وسليمان العجلوني الذي نجح في اختراق الحدود وتمكن من قتل الرائد الصهيوني بنحاس ليفي في الثالث عشر من هذا الشهر، وبذلك تكون المهمة الفدائية الثالثة التي تنفذ في شهر نوفمبر هذا العام، انتصبت قامته وطلب دقيقة نقفها حدادًا على تلك الأرواح الذكية..

انتهت الأمسية في العاشرة وقررت بعدها العودة إلى البيت فهناك كتاب أعمل على تلخيصه ومسرحية أحاول إكمالها إلى جانب روايتي التي لم أستقر على نهاية فصولها وهذا لا يمنع القليل من التمشية وسط أجواء المدينة الليلية وابتياح بعض الحلوى!

نوفمبر وبعده أشهر الشتاء، من أقمص طويلة الأكماء إلى معاطف ثقيلة، تصبح الشمس ضيفًا والقمر ساكنًا ليل طویل، لكن المدينة الكبيرة لا تسكن ولا تهدأ، لا تعرف الصمت في نوفمبر أو يناير، تنفض النعاس عن قاطنيها وتركهم يأتون ويرحلون، يتقابلون فتدنو النظرات وينقطعون عن المسير إلى المقاهي والأزقة وأبواب الحوانيت، حوانيت كتلك المنتشرة بشارع طلعت حرب متلاحمة وضيقة الأبواب دقت أبوابها العوملة فغيرت من طبائعها، لكنها احتفظت ببعض من الروح وتقاسيم التراث خلف لافتات مضئية لماركات عطور وملابس عالمية..

..... مساكن أهل الهوى=

رجعت إلى شارع قصر النيل ونويت السير إلى السيدة زينب لا أحتاج للركوب فالجو يعبق بنسمات جيدة وخيالي في حاجة للتشيط بين وجوه الناس والشوارع المزدحمة..

ما بال هذا العالم يكتظ كل يوم بالبشر ولا يبالى، ألن ينفجر يوماً ويصدر عنه ضجيج عالٍ، يصينا بالصم!
ما أسوأ تلك الأفكار!

لا تقسيم عادل للثروة ولا سبل عمل ولا مناح للإنتاج، ولكننا نزيد وندخل في هذا النفق ولا وجهة معلومة، يتحدثون في وكالات الأنباء العالمية عن قفزة في شرق آسيا لأربع دول وصفوها بالنمو الآسيوية، بدأت نهضتها من عقد أو اثنين لتصبح الآن دولاً صناعية وعلى مشارف القرن الواحد والعشرين ستصبح من مصاف الدول الكبرى..

لم يهتمم التزاحم والزيادة بقدر ما وجدوا سياسة للتصنيع انتهجوها ووضعوا فلسفة تجعل من اقتصادهم اقتصاداً صناعياً يطور نفسه لا اقتصاد يقوم على الريع وتأجير ممتلكاته لا هو صناعي ولا زراعي!

ميدان لاظوغي، أكملت المسير حتى المخرج الثاني، إلى اتجاه عمر خيرت ومنه إلى الشيخ محمد رفعت مروراً بشارع يوسف السباعي، حتى وصلت إلى درب البهلوان، حارة الفتونة، والنبوت،

وفتح عينك تأكل من الملبن، ومن خاف سلم، واتجمعوا الحرافيش..
كان السائد بحارات القاهرة أن تتسم برجل قوى يحكمها والجميع يدين بالولاء أو بالخوف في الحاليتين ستدفع مقابل العيش!

..... مساكن أهل الهوى=

ربما اختفى فتوة الحارة الصغير منذ عقود بعيدة، لكنه استبدل بفتوات أخرى، ضخمة تمارس الفتونة أمام الجميع والدفع إجباري أيضًا.. لا يرتدون الجلباب الواسع ولا يمسكون بالنبوت والخنجر، يلبسون بدلات ويحشرون في أفواههم سيجار نفيس، ويتحدثون بكلام براق لامع، لا نفهمه، إذا ما اعترضت عليه نجد جدران السجن ومعها سيل من الاتهامات وترسم على قفاك عشرات الأصابع!

لن تخلو مصر من الفتوة والنبوت! تراءى أمامي ميدان السيدة، ألقيت سلامي على جيراني الأعزاء وصعدت إلى شقتي متحاشيًا النظر إلى باب عبد الهادي شحاتة كما تمنيت أن لا أرى علا..

أريد ليلة دون ذنب ومحكمة من ضمير لا يهدأ.. هاهي الشمس لا تستحي الدخول إلى غرفتي ومداعبة سريري ومكتبي بل وإيقاظي، نهضت وأغلقت الستائر جيدًا، اليوم عطلة ولا حاجة لي في الاستيقاظ مبكرًا..

كنت أحسب ذلك قبل أن يدق جرس الباب بعدها بنصف ساعة لأجد شخصًا عزيزًا على قلبي أفسحت له ممر الدخول ورحبت به كثيرًا وبداخلتي تنامت الأسئلة وكان أولها: والدي بخير؟

أراح قدميه من حذائه الجلدي وقال: آه بخير، وأنا جايلك عشان كده.. ذلك جيد، قطع فضولي وتساؤلاتي وتابع: والدك هيوصل القاهرة بكرة، بدأنا في تحريك القضية والإجراءات القانونية، وفي الغالب مفيش داعي

..... مساكن أهل الهوى=

لاختبائه أكثر من كده..

تهلل وجهى وظهرت عليه علامات السعادة فلم أسأل من تلهفى عن المكان الذي يؤويه وهذا أثار ضحكة عند الأستاذ فؤاد فقال: طيب مش هتعرف هيقعد فين!

- هنا طبعاً.. كانت الإجابة تلقائية لم أفكر قبل النطق بها..

- لاده ممكن برضه يكون صعباً فى الوقت الحالى، هحتاج لترتيب ليه، من الأولى فى الفترة دى إنه يقعد فى شقة فى المقطم جهزتها ليه..

تفهمت الموقف بشكل منطقى، أستطيع كل ليلة أن أذهب إليه ونتحدث كثيراً وتندبر أمور المستقبل سوياً، فلا شك هنالك مستقبل يربطنا، بعدما سلب الماضى!

حاولت أن أثنى الأستاذ فؤاد عن انصرافه المبكر لكنه مرتبط بمواعيد، قبل أن يغادر نظر إلى مكتبى وهو يعدل ياقة قميصه وقال بصوت ينم عن المعرفة: العقد الاجتماعى - روسو..

أمسك الكتاب بيده وقلب فى صفحاته وهو يكمل حديثه: الكتاب أول مرة قريرته أثار تساؤلاتى بداية من فصله الأول.. اختيار مميز..

حركت رأسى موافقاً، وأعطيته انتباهى وهو يقرأ فى تمعن وبصوت مسموع..

أعاد الكتاب لموضعه واستأذن بالانصراف وأعدت على نفسى سؤاله أوسؤال روسو بالأحرى، ما الذى يمكن أن يجعل حرية الإنسان شيئاً شرعياً؟!

كل شيء يسرع إلى الوراء ولا يمكث معك في الرحلة سوى صخب
الباعة والركاب وأنين الديزل، على اليمين من وراء تلك النافذة ذات
الزجاج التالف تنبرى الحقول والمزارع والبيوت الصغيرة، وتلتهم
عجلات القطار ظهر القضيب الحديدي تمر بأعمدة البرق والجداول
وقطعان البقر والجاموس، رحلتى المؤجلة منذ أشهر بدأت عبر ذلك
القطار من الإسكندرية إلى القاهرة دون خوف، أحمل دفتر مذكراتى
وترافقنى حقيبتى الصغيرة..

مرتدياً سترة مخملية وقميصاً وردياً، أتابع الأحاديث فى الجوار، لا
يتوقفون عن جدلهم حول قرار أو خبر، أعبر مع القطار إلى محطاته فينزل
ركاب ويصعد آخرون وأظل إلى شباكى الصغير متونساً بما تجلبه إلى
ناظرى فتحته..

والشمس على مد البصر تغمر الخلاء بضياؤها وترسل دفئها عبر
الأديم، سألتى الكمسرى عن التذكرة وهو يأخذنى من تأملى، أعطيته
إياها فسار بقلمه عليها علامتين متتاليتين، واستمر فى سؤال الجميع من
حولى عن التذكرة ويسبقه شاربه النائر الغليظ ذو الشعيرات النحاسية!
مر بعدها بائع الجرائد، نحيل الجسد فى جلباب زيتى غامق وعلى
رأسه قبعة صغيرة، صاحب لهجة ريفية قليلة، أخذت منه «الأهرام»

ونسخة أخرى من جريدة «العهد»..

لم أطلع الأخبار بقدر ما ألقيت أذنى لأحاديث لا تنقطع جواري،
فتزيدني علماً، بأسعار السلع والخضروات، بل وكيفية عمل «طاجن
أم على بالمسكرات» والأهم هي سيرة بنت الأخت العطرة التي يتوافد
إليها العرسان من كل صوب وحذب وسيرة طليقة شقيق السيدة ذات
الإيشارب الأزرق وطمع أهلها، والمحاكم المعقودة بينهما..

نزلت السيدتان - ذات الإيشارب وصديقتها - بمحطة طنطا،
وتذكرت شيخ المسجد وفتاة القطار..

صعد شيخ كبير ومعه فتى صغير فى السن يمسك يده جيداً، جلس
على مقعد والفتى على المقعد المجاور..

كان الحديث بينهما هامساً، الشيخ فى هيئته وهدوئه يحمل من صورة
أبى الكثير وهذا جعلنى أتمعن فيه وأطيل النظر إليه وإن كان ذلك ملفتاً..
يستمر القطار فى التحرك وتقترب القاهرة أكثر وأكثر يصل إلى قلوب
ثم شبراوها هو الآن يضع عجلاته بالمحطة الأخيرة..

رفعت حقيتى من مكمنها وملتتها يسراى حتى الخروج، بالردهة
الكبيرة الخارجية وجدت صديقى فؤاد فى الانتظار وعلى وجهه ارتسمت
ضحكة كبيرة حين لوحته له بىدى وأصبحت تحت أسهم عينيه..

أخذنا سيارة أجرة إلى المقطم وهى مسافة عظيمة، سمحت لى بالتعرف
على ملامح القاهرة من جديد..

عجوز حقاً تلك العاصمة، شمطاء وفاتنة فى آن واحد!

..... مساكن أهل الهوى=

لا تختلف شقة المقطم فى مساحتها كثيرًا عن شقة المنشية، لكنها تطل على خلاء واسع يمتد إلى أفق البصر حينها تجد المقابر قائمة وحيدة، تنعى حظ قاطنيها وتتمنى لهم الرحمة والهدوء وعلى يسارها هضبة عظيمة، ربما يتخذها أهل العشق مسكنًا ليليًا..

أفرغت محتويات حقيبتي؛ ملابس القليلة، ورقًا وأقلامًا، دفتر مذكراتي، أكياس البن، وما تبقى من الشاي.. أصبحت حقيبة يدى فارغة، لكن بعضًا من حقائب أيامى لا تزال مصفوفة على رفوف الذاكرة ممتلئة، وما تبقى منها هو الأشد والأكثر إيلا..

لا تساورنى رغبة فى النوم بعد عناء السفر كما اقترح فؤاد قبل مغادرته، بل تنمو لدى حاجة للكتابة وهذا دائمًا ما ألبيه بكوب من الشاي والبدء بصفحة جديدة عليها تاريخ اليوم..

20 نوفمبر - المقطم.. القاهرة

ودخل على عامه الثالث فى المدرسة، وصفية يتكون بأحشائها المولود الجديد، أضع يدى على بطنها مداعبًا فتقول: لو ولد.. ماهر، أبتمسم سائلًا: لو بنت؟

- لا سميتها أنت..

وفى نزوة فاجرة لشخص جعل من غايته إنهاك قوتى وكسر قامتى، أمر بجرة من قلمه وتوجيه من شفتيه مداهمة بيتى والقبض علىّ، ومصادرة الكتب والصحف والتهمة شيوعى لا شك!

دُهِس المنزل ليلاً، كُسر بابه، وخطت على أرضيته أقدام جنود وضباط
وتقدمهم إلى غرف البيت الصغير مخبران لصوص، نهبوا ما وجدوه
أمامهم، تحت الفراش، فوق الصوان، ما في الأدراج والمكتبة، وصفية
مبهمة العينين تمسك بعلى ويهولها المنظر!
لم تمر على خروجي من المعقل ستة أشهر وها هي يدك تقترب من
متعلقات بيتي!

ربما أسامحه إن تعلق الأمر بكتبي أو جرائدي ومجلاتي أو حتى وسادتي
ومتعلقاتي الشخصية.. لكنها أشياء لا يحسن تعويضها..
بقوة جذبي الشرطي إلى الباب ثم السلم قاذفاً بي عبر الدرج ومن
خلفي على ييكي وأمه تصرخ، تحاول عابثة، أن تمسك بتلابيب الضابط
فتوقفه عن همجيته، لكن أقدامها ضعيفة تنزلق من على الدرج فتسقط!
تسقط فاغرة فيها، مثبتة العينين وأنيها يلاحقني، لم تكن بقدرتي
التفاتة إلى الوراء فالجنود قذفوا بي أخيراً إلى سيارة الشرطة بصندوقها
الضيق، لكنني سمعت الأنين، أنين الجريمة!
وتعلق الصراخ بأذني فلم ترهبنى الزنانة الصغيرة ولا الحبس
الانفرادي، وبلاهة المحقق..

سأل ذو الوجه المربع والشارب الخفيف تحت مصباح خفيض اللون
كعادته عن اسمي وعنواني فتيقنت بلاهته، لكنه تابع استجوابه ليقول
بصوت عثي: أنت ليه مش عاوز تهدى وتسكت!
عندها ابتسمت وأجبت: قول أنت للى باعتك تحقق معايا واللى

باعتهم يجبونى من البيت يهدى ..

طرحت سؤالى : ليه المرة دى كانت بالوحشية والحقارة دى ، أنا زوجتى وقعت من على السلم ، أنا ما قاومتش عشان يبقى بالوحشية دى !
راح فى ضحكات كانت فى أذنى لا تقل دناءة عما حدث ..

خرجت بعد ستة أيام ، لم أجد صفيّة بالمنزل ، كانت عند رئيسة - أختها- التى أشفقت عليّ من استجواب ماهر وغضبه ، أفسحت لى الطريق لأجدها بغرفة النوم ، مثقلة الجفنين ، مسطحة على السرير ، ذابلة الوجه شعرها ينساب على الوسادة ، وفى يدها « كانيولا » تتصل بالمحلول المعلق ، وابنى على مقعد جوارها ناعس العينين ، انتفض حين رأتى وأقبل عليّ يعانقنى فأحدث صوتًا ، أوقظ أمه ، لتفتح عينها ببطء ، تنطق اسمى وتجرى دمعة من عينيها فتنسأب إلى فمها ذى البسمة ، أترك على وأسرع نحوها ، أقبل يدها وأرى فى عينيها الحنو ، فينفتح ثغرها الصغير لحديث مكتوم ، تغلق رئيسة باب الغرفة وتتركنا وتأخذ معها على ..

أجهشت فى بكائها ، فحاولت جاهدًا ، احتواء حزنها لكنى فشلت ، فبكيت معها ، قالت وهى تنهار : كل حاجة ضاعت ..

لم أكن أعلم قصدها ، فوضعت رأسها فوق صدرى وجلست جوارها ، اهدئ من روعها ، صاحت بصوت مجروح : بتتنا ماتت !
كتمت دمعتى للمرة الأولى ووضعتها بين أحضانى حركت يدى على ظهرها واعتصرت حزنها ، أخنقه بيدي ..

لكن لسانها لم يلذ بالصمت ، جنينها مات ورحمها لم يعد صالحًا لجنين

آخر..

ظلت تصرخ، وتبرز عظام كتفيها، وتجري الدموع من عينيها، فتزل
في قلبي موضع الطعنات، وسيفي مكسور، مغبر الجبين والجوارح،
كقلب صفية وجرحه الكبير..

وبدت شفتاها من الحزن أقداحا مكسورة الخواف، إذا لثمتها يسقط
الدم من كل اتجاه، بحثت عن سحائب من الدخان نحتمي بها ونختبيء
أداوى بها قلبها، أخبرها أن عينيها شمس صغيرة تشرق عند الصباح
وتسقط في رداء النوم ليلاً لا يجدر بها البكاء، لكن وقفني العزلاء بين
السيف والجدار لم تشفع لي!

لم تخبرها أن وجودها في حياتي رحمة لا نحتاج لرحم ولا جنين، هو
ثقب في الكرامة لكننا سنتنقم سوياً..

وهنا ولد الثأر، ثأر لا يجوز معه التصالح، ثأر مثقل بالدماء والأحقاد..
العين بالعين!

نامت صفية على صدرى وأحسست بهمها يزول رويداً رويداً،
لكن نار صدرى لم تهدأ ولم تبرد، قبلتها على وجنتيها وتركتها، أحست
بخروجي فطمأنتها على عودتي قريباً جداً..

خرجت مسرعاً، لا لشيء سوى منزل سراج فكرى، وجدته في حديقته
الواسعة، لم يتركني حارس الفيلا أدخل قبل الاستئذان من سيده..

المرّة الثانية التي أهدده بها، لكن تلك المرّة هي الأصدق، أمام ضحكته
وسخريته وهو يقف واضعاً يده على خصره ويمد الأخرى قائلاً: إيه

..... مساكن أهل الهوى=

الشجاعة دى كلها.. رجلك وصلتك لغاية بيتى..
أصبح بيننا ثأر ولن يطول الوقت حتى تحرق نيران انتقامى هكذا
قلت وبشجاعة كبيرة جعلته يقف دون حراك، تدهشه المفاجأة، غادرت
منزله وشيعتنى ضحكات ساخرة تردد صداها فى أذنى كثيرًا، حتى الآن
أتذكرها وأتذكر عينيه الثلجية جيدًا..

عادت صفية إلى المنزل وحاولت أن أعيد الأمور إلى نصابها، نخرج مع
على إلى السينما والكورنيش ونعبر الشوارع والطرق معًا..

17 سبتمبر 1978 وقع السادات اتفاقية كامب ديفيد، وهنا سقطت
ورقة التوت وأصبح كل شىء لا طعم له أو لون وبعدها سيفتح المجال
أمام التطبيع وتضيق القضية الفلسطينية وتهون كما هان كل شىء،
شاركت فى المظاهرات الراضية للقرار ولم يمسنى سوء وذلك ما لم
أتوقعه..

فى 28 أكتوبر من نفس العام سافر ماهر إلى رومانيا، محاضرًا عسكريًا..
- تعرف إيه عن تنظيم «عبيد حنا».

- تنظيم إيه يا فندم دى قهوة بنقعد عليها..

- وخلية القلعة؟

- خلية إيه؟!

- أنت سمعت كويس.. جاب من غير لف ودوران!

قابلت كريمة السبع للمرة الأولى خارج أسوار السجن، لم تختلف إلا
في ثوبها النظيف، أثارت دهشتي فقالت وهى تضحك: دى مش هدموم
الشغل..

ربما ساء القاهرة صافية رائقة، وجو النيل حسن بين الدفء ونسيم
الهواء وذلك المركب الصغير فى النيل بأغانيه القديمة وهيئته المنهكة
تناسب جلسة شاعرية لا وقت لها الآن، جالت عيناي فى أركانه فقالت
كريمة: إيه رأيك.. أهى دى بقى الحطة الحلوة اللى فى قلبى.. كل ما أكون
تعبانة والزمن حاطط علىّ أجيب نفسى وآجى على هنا وأقعد ألف فى
النيل ولا أقعد حبة أجيب وأودى فى عمرى..

قاطعتها مسرعة، مشيرة إلى شاب يمسك بدفة القيادة فى كايينة مغلقة
مرتفعة قليلاً عن مكان جلستنا فابتسمت وقالت: جاد.. لا ما تقلقيش..
جاد أمان.. ومش هيسمعنا ما تقلقيش.. الكايينة بعيدة..

هدأت نفسى قليلاً، وارتحت ساقاي، أعطتنى كوب الشاي وتناولت
الآخر ومعه «جوزتها» الصغيرة ببرطمانها الزجاجى وجمراتها الموقدة،
تبعث أنفاثاً وتستقبل أخرى عبر أنبوبة من الخوص.

- جهزتى اللى اتفقنا عليه..

أومأت برأسها وأخرجت من حقيبة جوارها ورقة مطوية أعطتنى

إياها..

بدأت في قراءتها بصوت خفيض ارتفع عند قراءة أهم الأسطر..
إنه في يوم الخميس الموافق 12 نوفمبر 1990، قد أجر السيد «حسام
محمد السبع»، التابع لدولة «جمهورية مصر العربية»، المقيم بإمبابة -
الجيزة..

إلى السيدة «نجاة محمد المصرى» التابعة لدولة «جمهورية مصر
العربية»، ماهو شقة بالدور الثالث بقصد استعمالها سكناً بالعقار رقم 7
شارع مراد، حى الكيت كات..
وقد قرر... إلخ .

في نهاية العقد كان إمضاء السيد «حسام» كطرف أول وجواره الطرف
الثانى متروك له مساحة فارغة وفي الأسفل وقع شاهدان..
قلبت فى النسخة الثانية من العقد لأجدها متناهلة تماماً، نظرت إلى
كريمة فقالت وهى تمد شديقيها: حسام يبقى أخويا والشهود تبعى، أنت
هتتمضى على نسخة من العقد تبقى معاكى والنسخة الثانية مع حسام زى
أى عقد إيجار عادى، امضى على الاتنين وهاتى نسخة..

قمت بما طلبته وسلمته لها شاكرة، قبل أن تأخذ نفثاً كبيراً وتتبعه
بكوب الشاى قالت: أنا كدة عملت اللى عليّ.. الباقي عليك..
ابتسمت وجددت شكرى لها، طلبت منها الرجوع فنزعتها النيلية لا
تستهوينى فى ذلك الوقت...

خرجت من مرسى النيل وتوجهت لبيت نجلاء، وتمر أمام عيني

أحداث العشرين يومًا السابقة، أصبحت أرتاب الرجال بشكل تلقائي، أتوجس منهم خيفة حين يصعدون الأتوبيس، يملأون الدكاكين ينتشرون هنا وهنا، أتحمّل أدمغتهم جزءًا من شهوتهم يذهبون بها ويجيئون، وعند الفرصة ينقضون كمن وجد فريسته، لا.. لا، هناك آخرون.. الأستاذ مهني.. على.. عصام خليل، الكثيرون لهم ضمائر ونفوس راقية، لا يحركهم المستر تحت بنطالهم وفقط!

الجرس لا يعمل، طرقت الباب مرتين حتى فتحت لي، استقبلتني في الصالة ناعسة العينين، كسولة الهمة، سألتها في مرح..

- أروح تانى وتكلمى نوم..

- هتتغدى معايا..

قابلتني والدتها ببشاشة ولم تثقل عليها الحديث، خرجت إلى الصالة مرة أخرى وتبعتنى نجلاء، اتفقنا على الخطوة الثانية في خطتنا واقتنعت نجلاء بها، قالت في لهجة واثقة «سببى ده علي»..

كنت بالمنزل في السادسة مساءً، قبل أن أصعد سلم البيت وجدت هاشم يهبطه، عندها نظر بين قدميه ونطق بصوت مهذب خضبه الحياء: إزيك يا آنسة، حمد الله على سلامتك..

انصرف مسرعًا وعلى وجهه ابتسامة باهتة، شخص مهذب له قلب ناصع البياض، وجدت والدى فى الصالة وأمامه جلست ميادة وأمى، ألقيت بالسلام وجلست وسطهم، وجالت النظرات حولي عبرت بعيني وبالأرض وبالسقف وطلأ الحائط البالى، حتى قطع والدى الصمت:

هاشم يتقدملى للمرة الثانية...

دبت فى جسدى هزة وقشعريرة من المفاجأة، وصعد إلى رأسى حديثنا القديم، لقد تحدثت معه فى ذلك من قبل!

نظرت إلى أمى التى أضافت إلى حديث أبى: الراجل جدع ومايتعايش وجه فى وسط الظروف اللى بنمر بيها دى ومخافش!

ظروف وخوف، أهذه حقيقة الأمر، أنظرة عطوفة وتصرف شههم ما يحرك الأمر، ما يجعل والدى يوافق عليه هذه المرة ويتحدث ملء فمه ويبدى استحسانه..

طلبت منهم أن أقابله غداً هنا فى منزلنا ونكون وحدنا لا ثالث معنا، تهللت أسارير أمى وتسلل الفرح إليها، بينما ربت أبى على كتفى وقال فى وقار: هقابلة فى صلاة العشاء وأبلغه..

مرت ساعات الليل بطيئة مثقلة بانتظار لقاء الغد، تعصف بها أفكار وتلوذ بها لحظات الملل، وأختى الصغرى لا أعطى لحديثها بالاً، ولا أدخل فى جدالها، أنظر إلى السقف وتراءى أمامى أشباح صنعها الضوء النافذ من مصرعى الشباك المغلق، لا يهدأ لى جنب فى النوم، على اليسار قليلاً ثم اليمين..

أعلم أن «على» بعيد بل أشد ما يكون بعده عنى، نحن مختلفون تماماً، أظن قلبه مشغول، تسكنه إحداهن، والأجدر بى ألا أترك مساحة أخرى فى قلبى يحتلها حبه، إن قلبى أخضر يانع، لن أقطف زهراته بيدى، ولن ألقى بمفتاح حديقته لبستانى بعيد غائب..

ظلت أفكاري في تواردها حتى أجفلت جفوني وغابت أعيني في نومها..

أوقظتني يد ميادة ورافقها صوت المؤذن يقيم شعائر الظهر، ثاءبت من النعاس، وتمطغت يداي عن كسل، طردت الدوار عن رأسي وقمت إلى الحمام..

وفي المساء ظهرت في زينة جيدة، بعض مساحيق التجميل وأحمر الشفاه في انتظار هاشم ولقائه المرتقب..

في الخامسة بالضبط كانت يدها على الباب تطرقه في لطف وأدب، ساورتني ابتسامة ورقت ذبابة في فراغ الغرفة، تابعتها حتى وقفت على حافة الشباك وجاورتها أخرى..

أنهى والدى جلسته مع هاشم بسرعة ودخلت أمي إلى غرفتي، تخبرني أن هاشم في الصلاة، خرجت واستأذن والدى ليركنا نتحدث في أمرنا.. يرتدى قميصاً ناصع البياض، يشمر عن ساعديه ويتألق في جلسته ورائحته، بما يليق بشاب يتقدم لعروس...

صافحته وجلست بالكرسی المواجه له، نظر إليّ وسألني عن صحتي، مرت رسميات اللقاء سريعاً...

رمقته بطرف حائر وقلت: أنت بتتقدم المرة دى وعارف إن مفيش حل غير إني أوافق عليك عشان اللي حصل الفترة اللي فاتت صح..

ابتسم عن طاقم نضيد ونظر إلى طبق الفاكهة فوق الطاولة ولم ينبس، فعدت إلى حديثي مرة أخرى: أنا عارفة إنك شهم ونبل وإن تفكيرك

أرقى من كده، بس محتارة..

أمام هدوءه ونظراته المهدبة لم يكن أمامي بد من الاعتذار عن قساوة لهجتي وسيئ حديثي، لكنني جددت عليه سؤال «لماذا الآن؟»

عاد ينظر إليّ وانطلقت من بين شفتيه كلمة كالسهم صادقة لا يعترىها غبار الرسميات والكلام المعسول: عشان بحبك.. ده مش كفاية..

أحسست بحرارة إجابته تلفح وجهي وترسم خطوطها على ملامحي، توردت وجنتاي وشعرت برغبة ملحّة في الاستماع إلى ما يقوله، أردف وهو يهز قدميه: أنا اتقدمت تاني عشان أقدر أكون واقف جنبك في كل المشاكل اللى أنت فيها وأقدر أساعدك وماتكونيش لوحذك، حسيت إن لازم أكون سندك..

عادت القشعريرة إلى بدني، ذلك ما يقال عنه الحب، هو يخلص في حبه جدًّا ولم ينتظر مني سوى فرصة، أفتح له الباب فيجمعنا قلبه.. صارعتني أفكار أخرى وردتني إلى واقعي المشوش، فأمامي أمور يجب تسويتها، أصبح بعدها حرة الفكر والعقل وقادرة على تحديد موافقي واتخاذ قراراتي..

هذه المرة لم أنه الحوار بما يغضبه وينهى على رجائه، تركت باب الأمل مفتوحًا وأخبرته أن الأمر لا يتعلق به، بل بما يجول في صدري الآن، فأمهلتني الوقت الذي أريده فطلب التريث في القرار، مؤكّدًا احترامه في الحاليتين..

لست كالأب البار الذى يحسن تربية ابنه ويضيع من عمره الكثير لتربيته، قد ينطبق ذلك الشئ على والدى «عزيز سالم» حتى وإن حرّمته الزنازين الحق الكامل فى هذا، فسنوات عمره الباقية قبل حبسه الطويل كنت أراه عطوفًا بارًّا وبطلًا أسطوريًّا يتردد فى خيالى أن أصبح مثله يومًا ما..

ربما لست الآن أبا بالمعنى الحرفى للكلمة لكنى مسئول تمامًا كأى أب، على رفوف مكتبتى صفحات كثيرة من كتب لم تكتمل وعلى مكتبتى روايات مسرحيات لم يكملها قلمي، فهجرتها تعج بأشخاص وأحداث ناقصة، أتركها بين الأموات والأحياء وأنصاف الأحياء، وإن استعطفنى شخصها لنفخ بعض الروح فيها..

المؤمنون يرون عظمة الخالق فى قدرته على نسج الحياة دون إلهاء من شئ أو غفو عن شئ وفى الكتب المقدسة يقول الخالق عن نفسه ذلك ففى القرآن «لا تأخذه سنة ولا نوم»..

أما أنا فلست خالقًا، لكن يجدر بى أن أصبح صانعًا وخالقًا بقلمي فوق الصفح، تحرّكنى غريزة داخلية تدفعنى لإنهاء مؤلفاتى وإكمال نسيج شخصياتى..

فلا يأخذنى الهوى بعيدًا، ويتحول معجمى اللغوى إلى تسويق

..... مساكن أهل الهوى=

وتأجيل، لهذا قررت ألا أسلم نفسي للهوى، لن أقطن مساكن الهوى بعد اليوم، أتم عملي جيداً بعدها سيأتى الهوى حلو المذاق كعادته..

هكذا نويت، لكنى أعلم فى قرارة نفسى، أنى مائل لهوى من نوع آخر، هوى الأجساد العارية والضحكات الماجنة والنهود البضة،

هوى لا أجده إلا فى بيت عايده.. حتى ذلك سأحرم نفسى منه ولن أحلق ذقنى وأقص شعرى حتى أنهى روايتى، فكلما نظرت فى المرأة وجدت الشعر أشعث والشنب مديباً وشعيرات الذقن تتطاير فى غير هواده، أرجع إلى مكتبى وأعود إلى شخصيات روايتى من جديد..

فتحت باب الشرفة طامعاً فى هواء نقى أبدأ به يومى ومشهد من وحي الشارع أجده قائماً فألصقه بأحد أبطالى صابغاً عليه العبرة والعظة، فأرى الحركة متنوعة بين بيع وشراء، شحاذين وتجار ومصلين خاشعين يهرعون إلى المساجد ومسابح تنطق بالإيمان وأخرى تعبدت بنفاق أصحابها، ومأذنة المسجد شامخة يأتى منها النداء «حى على الصلاة»، هل ينتعش صندوق نذور السيدة الآن؟!

عدت إلى غرفتى وأوقدت النار على إبريق الشاى وجهزت فطارى ومعه كتاب وارسو، أنجز ما تبقى فيه وأبدأ بعدها فى إعادة الروح لفصول روايتى..

يدق جرس الباب ويأتى ضيف زارنى من يومين «الأستاذ فؤاد»، أدخله إلى الصالة لكنه لا يمتلك الوقت للمضايقة، أعطانى ورقة فيها عنوان أبى واستأذن..

لم تمر ساعة ووجدت الحاج حامد الصعيدى ينادى بأعلى صوته، نظرت له من الشباك فقال «تليفون يا على»..

هبطت مسرعاً إليه، ربما الاتصال من الإسكندرية، لكنه لم يكن كذلك، كان من القاهرة، الناحية الأخرى منها «المعادي»..

السيدة «سحر شعراوى» زوجة خالى ماهر، طلبت منى فى حديث مختصر القدوم إلى فيلا شعراوى فى المعادي..

يعلم جيداً أفراد هذه العائلة أن سليلهم وابن ابنتهم الراحلة، يحبذ حياة الصعلكة عن حياتهم المرسومة بأقلام الزينة تلك، فما الأمر الذى جعلهم يطلبونى إذن؟!

عاد خالى من إيطاليا، ذلك المحاضر العسكرى الفذ، عاد إلى وطنه من جديد محملاً بالأوسمة كعادته، أيضاً هناك شىء آخر يريد أن يحدثنى فيه ولكنه اشترط أن نفتح حوارنا بعد الغداء..

خمنت فى البداية أن يكون الأمر متعلقاً بزواجى من ابنته لكنه قطع عنى ذلك الخيط من الأفكار، شیرين تزوجت من شهر ونصف، آخر رسالة وصلتنى منها كانت من ثلاث شهور تقريباً، طلبت أن أرسل لها برقية تهنئة، فوسائل الاتصال بينهما أسرع..

أشار باتباعه إلى غرفة المكتب وعند دخولنا طلب من الخادم إغلاق الباب خلفه..

تقدم بكرسيه المتحرك إلى الصالون الجلدى وقال بصوته الشامخ: أظن أنك كبرت وقدرت تشوف ملامح مستقبلك شكلها إيه..

..... مساكن أهل الهوى=

أومأت له برأسى دلالة على الفهم فتابع: أبوك كان شخصاً غالياً
عندى على الرغم من اختلافنا، أنت تعرف كويس أوى العلاقة الى بينا
عاملة إزاي..

بابتسامة خبيثة نمت على شفתי بادلته الحديث: أبوك يا على مستهتر
وأناى ببجرى ورا أهدافه وقناعاته وبس ما يعرفش يعنى إيه أسرة وبيت
وهو السبب فى بيتكم الى ما اتكتبلوش استقرار..

على الرغم من ذلك الكلام الذى قاله دائماً خالى إلا أننى فى كل مرة
كنت أشعر به يخفى شيئاً ما، وحديث أصدقاء والدى ورفاقه عن حياته
كانت تؤكدلى هذا..

قهقهه خالى قليلاً ومال بيده لالتقاط إحدى حبات الفاكهة المرسومة
على طبق موضوع أمامنا: كنت خايف عليك ولغاية دلوقتى خايف
عليك، إن مصيرك يبقى زيه..

يراودنى لسانى أن أخبره: «والدى أصبح حرّاً، قريباً سيرد كرامته
وشرفه»، طارت الفكرة عنى وردنى إليه بجملة اعتراضية مفادها ضرورة
التركيز فيما سيلقيه..

عاود الكرة بكرسيه حتى وصل إلى درج المكتب أخرج منه ملفاً أبيض
كبيراً، فتحه برفق أخرج منه رسالة وجواباً بخط اليد..
قبل أن تفتن عيني لسطور ذلك الجواب، قال: ده نصيبك من ثروة
والدتك..

«ثروة والدتى» أغرب جملة سمعتها فى حياتى، لم أفكر فيها أبداً، ولم

تخطر لى على بال فى حلم أو واقع، أعلم أن أمى تنحدر من أسرة ثرية لكنى لم أربط يوماً أن يكون لى منها نصيب، ولم أطلب حتى بتحسين أوضاعى المالية، لم تشكل عندى المادة يوماً ما عائقاً..

رفعت حاجبى فى دهشة واستولت على وجهى علامات التعجب، مما دفع بخالى أن يقول: أنت آه عمرك ما طلبت حاجة مننا ولا قلت فى الميراث أو حاجة من دى، حتى إنك رفضت إننا نساعدك فى مجال شغلك تشتغل فى جريدة أكبر، لكن ده حقك واللى ما ينفعش إنه يضيع..

لم أفهم ما يقوله ولكنى أحسنت الإنصات، حديث عن أملاك زراعية ونسب فى محالج القطن وأخرى فى فيلا المعادى تلك، وحساب فى البنك لى منه نصيب أيضاً، كل هذا يعنى شيئاً واحداً سأكون من أصحاب الأملاك والأموال، أصحاب الحسابات النقدية والياقات المنمقة! تلك المفاجأة جيدة، لكنى لا أعرف كيف أستقبلها..

لا أعلم أيضاً كيف لى أن أشكر خالى، فتح لى باباً من ذهب وأوردنى مفتاحه ووقف يحثنى على الدخول!
ماهذا.. ماذا يحدث؟!

كيف للقاء لم يدم فوق الساعتين أن يغير حالى؟!
ينقلنى إلى مصاف رجال المال والأغنياء؟!
حقاً لا أهتم بجمع الثروة والمال، لكنى شاب ولى مشاريع ولى حياة قادمة أريد تلوينها، أن يحدث ذلك فى ساعة واحدة، لهُ تدبير السماء!
تناول خالى المظروف مرة أخرى من يدى وجمع ورقه من جديد وقال:

..... مساكن أهل الهوى=

دلوقت أنت عرفت إيه حقك وإيه اللي ليك..
عاد إلى لهجته الحاسمة قائلاً: تيجى المرة الجاية محدد اتجاهك، محتاج
إيه بالضبط..

عدد اختيارات كثيرة، منها ترك نصيبى فى تجارتهم واستثماراتهم وما
يعود منه يضاف إلى حسابى البنكى، أو المشاركة بنفسى فى تلك التجارة
وذلك ما استبعدته وأخيراً أن أقيم أعمدة مشروعى الخاص، فى كل
الاختيارات التى ذكرها ولم يذكرها سيصبح ناصحاً لى..
انطلقت من عنده على عجل، استقلت سيارة أجرة وأعطيته عنوان
شقة المقطم.. حيث والدى.

تسود حالة من العبث سائقى الأجرة ويعيشون فى ضجيج المذياع
والأغنية صاحبة الموسيقى، هذا لم يكن موضع نقاشى ولا اهتمامى الآن
بقدر ما أردت أن يصل بى إلى العنوان مسرعاً..

الرشفة الأولى من كوب الشاي ذات نكهة خاصة وكذا الرشفة الأخيرة كمطلع الكونشير تو ونهايته، أكلت كحكة صغيرة من كيس الطعام الذى جلبه فؤاد وجلست لحظات متأملًا، ذلك العمر الذى حمل الكثير وأنا الآن فى أواخر مطافه، ولى فرصة للحكم على جدواه.. التحقيق فى هذه القضية شهد تحولاً آخر للاتهامات، تخطت مفرداته العقل..

«جاوب من غير لف ودوران»، قالها المحقق وهو من الضيق فى غايته.. أى لف وأى دوران، أنا شخص مسالم، لا أحمل سلاحًا، كل ما أملكه لسانًا لا أكثر ولا أقل وعقلًا يفكر إن كانت تلك التهمة، لم أنضم لتنظيم سرى أو علنى، كل ما فى الأمر أن لى أصدقاء نجلس سويًا نتشاور فى معتقداتنا وتوجهاتنا السياسية وما تقودنا له سياسة النظام العامة، وعند الغضب من شىء والاعتراض عليه، ننظم أنفسنا وسط آلاف المتظاهرين، إن كان ذلك التنظيم الذى تقصده وتلك هى التهمة فلماذا لا ترعى عملك وتقبض على تلك الآلاف المتظاهرة!

كنت حقًا فى دهشة ربما شخص غيرى تعرض لفترات الاعتقال تلك لا يجب عليه الدهشة، لكن ذلك كان حالى، ربما لتهمة حمل السلاح، والتخطيط لأعمال إرهابية!

..... مساكن أهل الهوى=

نفذ المحقق عن نفسه دخان سيجارته واقترب من الكرسي الجالس عليه وقال: أنت متوصى عليك من فوق أوى أوى أوى.. اعتدل عنى وتابع: س - إيه علاقتك بخلية القلعة واجتماعاتكم الى كانت بتحصل فى شقة رأفت إسكندر؟

ج - ليه سمتوها خلية القلعة، الشقة فى الأزبكية!
«أنت بتستظرف» يظهر الضابط غضبه وتنتفخ شفتاه وتنصب من عينه حمم البراكين..

- لا يا فندم أبداً ، أنا فعلاً ماعنديش علم، شقة رأفت الفاضية فى الأزبكية، والشقة الى هو ساكن فيها مع مراته فى طلعت حرب، يبقى جه منين اسم القلعة!

فيما بعد علمت من الضابط، أن تلك الخلية نشأت فى سجن القلعة أثناء فترة اعتقالنا وأصبحت جزءاً من تنظيم شيوعى كبير يسعر لحرق البلد وقلب نظام الحكم، أما التنظيم نفسه فميلاده كان على طاولة فى مقهى عبيد حنا!

علمت تلك المعلومات على شكل أسئلة ألقاها المحقق على..
دام التحقيق لثلاث ليالٍ وأربعة أيام حسوماً وكل مرة بضابط آخر حتى رأيت فى اليوم الأخير «سراج فكرى» يدلف لغرفة التحقيقات وينصرف المحقق بإشارة منه، أشعل ضوء المصباح وقال: أنت بترتب تقتلنى!

تمنيت فى هذا الوقت أن أقتله فعلاً دونما حاجة للترتيب أو التخطيط،

..... مساكن أهل الهوى=

طلقة في ناصيته تنهى الأمر..

- لا.. أجبت باقتضاب

ضرب بيده المكورة على الطاولة وقال بصوت لم يغير لأجله ملامحه:
قتل ضابط شرطة يا عزيز..

ما هذه الثقة التي يتحدث بها، هل خدعته تقاريره وضلته أعين مخبريه،
أو يعلم في قرارة نفسه أنني لم أفكر أو أخطط لهذا الأمر..

قبل ذلك التحقيق وقبل أن يلقي بالقبض علينا، شحنت ثنانيا صدرى
بالغضب والحقد اتجاهه لكنى لم أتوصل لطريقة معينة للثأر، حتى عقلى
استبعد فكرة القتل وماشابهها وهذا يحيرنى، أمستأنس تفكيرى إلى هذا
الحد، جالت بخاطرى أشياء أخرى كفضح أساليبه القدرة فى التعذيب
والتجسس وانتهاك الخصوصية..

- بتراقبنى يا عزيز أنت وصاحبك!

صرخ فى قوة كادت معه عيناه أن تنخلع من محجريهما، فأحنيت رأسى
ناظراً للأرضية فى استهانة..

راقبته وهذا صحيح، ورأيته يتردد على مكانين، أحدهما لراقصة
مشهورة ذائعة الصيت، قريبة من السلطة، والآخر مقر لشركة حراسات
خاصة..

وشممت رائحة مشبوهة فى الحالة الثانية أكثر منها فى الأولى، «سراج»
ضابط ذكى يعلم تمام العلم أنى لن أقتله، لكن علمى بأشياء كنتك ربما
يؤرقه، اعتاد أن يراقب لا أن يراقب، أن يضع أعينه تتجسس ولا أحد

..... مساكن أهل الهوى=

يتجسس عليه، يجمع المعلومات عن الجميع ولا يطلع أحد على معلومة تخصه!!

رفعت رأسى وبصوت واثق أجبت: التهم الى متوجهة لي أنا أبعد ما أكون عنها، حتى إنى مش ناشط ولا كادر سياسى كبير أنا مجرد عضو فى حركة انحلت ولا حتى ممكن أبقى عضو فى حركة لسه بتبدأ زى أى واحد عادى مهتم بالسياسة، الى بينا مشاكل شخصية من سنين، وأنت.. قاطعنى بحدّة: أنا الى برمى اسمك فى كل تحقيق وكل حملة اعتقال، أنت بتعمل الصغيرة وأنا بكبرها، لو ينفع كنت أحقق معاك على إنك من التكفير والهجرة كمان بس ملفك متصنف شيوعى!

أشعل سيجارته وتابع: أنت شخص بتحب البلد.. آه، بتخلص ليها، بتنزل مظاهرات شايف إنها هتغير، شايف إنكوا على حق، شايف كثير، غرورك مصورلك إنكوا تقدروا وإنكوا أقوياء، أديكوا هنا بتتفعصوا تحت إيدينا، أنت وغيرك، من أصغر معارض لأكبر معارض.. كلكوا هنا..

أشار بقبضة يده فى وجهى وحركها بعصبية، وانطلق بعدها ضاحكاً.. دون نيابة أو محام تم تحويل قضيتنا للمحكمة! آسف.. كانت هناك نيابة، لكن «وكيل النيابة» مجرد كومبارس والمحامى لا حول له ولا قوة انتظر المرافعة أمام القاضى..

ظلت القضية معلقة بالمحاكم لمدة سنة كاملة وبرز معها نجم محام شاب اسمه سعيد عرابى، من الصعيد له بشرة سمراء، تولى الدفاع عنى

وعن المجموعة في هذه القضية..

صفية غادرت شقتنا بالسيدة زينب وذهبت لشقة ملاصقة لأختها
رئيسة بإحدى عمارات المعادي، أراحني ذلك قليلاً، فهناك ستجد من
يهتم بها ومن يقتل الوقت عنها، ستجد ملاذاً للراحة حتى لو قليلاً،
وماهر عندما يرسل جواباً يذكرني فيه، تهوّل صفية عند الزيارة وتقرأه
وتقول بلهجة باكية: لو ماهر كان موجوداً ماكنش كل ده جراك..

الجرائد التي نقرأها هي ما يريدونها أن تقع في أيدينا ومعظمها قومية
وعناوينها تختلف في الصياغة تتشابه في المضمون..

«القبض على خلية القلعة أحد أضلع التنظيم القوية»، «انهيار المخطط
الشيوعي لخراب مصر»، «أصابع من نار لنيل سلامة الوطن» وهلم جرا..
في البداية نالت من نفسيتنا ورأينا أنفسنا مشوهي السمعة، فالطبيب
لن يفتح عيادته بعد اليوم وكذلك الصيدلي والصحفي لن يجد من يصدق
قلمه بعد الآن، ثم اعتدنا وأصبح كل شيء طبيعياً لدينا، هناك جرائد
أخرى تقول الحقيقة بالتأكيد..

أعلن جرس الباب عن ضرورة إغلاق مذكراتي الآن ومعرفة من
الطارق وما حاجاته..

على في وجه ضاحك وبشوش وعناق متوج بحرارة الابن لأبيه
وكلمات تفرزها مشاعر اشتياق وحب، أدخلته إلى غرفتي وأغلقت
الباب، تبدو على وجهه سعادة كأول مرة التقينا..

يدير عينيه بجدران الغرفة، القلم، دفتر المذكرات وإبريق الشاي ثم

ينظر إلى عيني ويسأل: عامل إيه يا بابا..
جيد، جيد بما يكفي لأبدلك الحديث، أكتب مذكراتي، نحكي حول
مستقبلك، وتناقشني في قضيتي..

سأل عن المسكن الجديد، عن حاجتي لشيء..
لم يشرب كثيرًا من قدح الشاي، حيدته الفرحة عن شهيته، وبجعبته
أخبار كثيرة، أظنه قادم خصيصًا ليطلعني عليها..
الوجه فضاح كشاف لا تخفيه ملابس كالصدر والقلب فلا نرى ما
يخبأه، سألته متوددًا: أنت أخبارك.. خير؟!
- خير جدًا جدًا..

قال وقد بدا متحمسًا: صفيه ما رضيتش تخليني أقف في الدنيا
لوحدي...

على ينطق بلسانه صفيه، ويصيني الحنين، فأنقطع عن كلامه وأمسك
في تلايبه الوجود أسأل عن صفيه، فيجيب ملكه أو سلطانه وربما
حارسه الأمين، هاهو على ابنها يحمل منها الصفة والهبة ولسانه عذب
يردد اسمها..

اتسعت حدقتي وبلغتني دهشة وشعور آخر مغلف بالسعادة وباطنه
القلق لكنني تخليت عن كل هذا وركزت جدًّا في كلامه، أصبح ذا مال،
أشفقت عليه الدنيا أم أخذته لدروب الشقاء بمكرها؟!
لكنني سعيد وفرح، إن ولدي الصغير لمحظوظ في هذه الحياة حقًا، قد
تعوضه الآن عما رآه في الصغر..

سألته عن مشاريعه، عما يريده من خلف تلك الثروة، تلثم وكأن السؤال من حروف غير مفهومة وقال: لسه معرفش!
نظرت إليه أهدئ روعه فأردف: الموضوع ظهر فجأة أكيد محتاج أرتب نفسي، أشوف مشاريعى وإمكانية استكمالها.. لازم هنقعد نتكلم صح؟!

أشرت له برأسى موافقاً، ورحبت جداً بذلك، نقلت دفعة الحديث لشاطئ آخر، سألته عن ماهر..
ابتسم وتدلّت شفته السفلى وقال: حياته عبارة عن سفر، بنته هتتجوز فى إيطاليا وابنه الصغير فى الكلية الحربية..
- عاوزك تكلمه، تقوله العنوان ولو يعرف يجيلى بكرة، أو نتقابل فى أى مكان..

أكد على قدرته القيام بهذه المهمة فى هدوء ودون شوشرة..
حدثنى عن روايته واقترح نهاية وأعجبتنى لكنه لم يكن متحمساً يراها رومانسية، يريد تغيير اسم روايته، عند تجميع حلقاتها وطبعها كاملة، لم يعد يروقه اسم «المحروسة»..
فى الصباح دق جرس الباب بصوته العالى ومن فتحة فى وسط الباب رأيت رجلاً داكن البشرة قليلاً ينظر فى ورقة يمسكها بيد والأخرى تضغط زر الجرس..
- مين؟

- صالح، سواق ماهر بيه..

..... مساكن أهل الهوى=

فتحت له مسرعاً لكنه لم يدخل قال متعجلاً: ماهر بيه تحت في العربية،
في انتظار حضرتك..

طلبت منه الدخول مرة أخرى لكنه تأسف واستأذن لينتظر في السيارة
مع ماهر..

ومن الشرفة وجدت سيارة تويوتا بيضاء، من شباكها الخلفى لوح
ماهر بيده..

ارتديت قميص كتانى بأكمام طويلة وبنطال أسود من الجينز ونزلت
مسرعاً..

تعانقنا ورحب كل منا بالآخر كما ينبغي لشخصين مر على فراقهما
فوق العشر سنوات، ومعها أسئلة بصدق عن الحال والصحة..

توقفت السيارة أمام مطعم فخم الطلة والديكورات من الزجاج
والرخام ولافتة لامعة براقه دون عليها «دي لا بيانكا» بالعربية ومثلها
بالفرنسية..

لم يتغير صوت ماهر زاد عليه وقار، ونمت بشعره شيبة تتحدث عن
الأعوام الكثيرة الماضية، جسده أصبح أكثر امتلاءً، امتد حديثنا لبعيد،
للأيام الخوالى ووصل إلى على وصفية والمحبس، القضية والخروج بل امتد
إلى سراج فكرى...

- خلى بالك من على، الفلوس بتقلب كيان الإنسان، إديله اللي محتاجه
بس والباقي شغله في مشاريعكم، المستقبل مش مضمون..
- على ما عدش قاصر.. قال ماهر.

- بس أنت تقدر..

صمت لثوانٍ ليلوك بعض المكسرات على المائدة ثم هز رأسه متفهمًا..
سألني عما أنتويه فجأوبت: هرفع قضية على سراج فكرى وعلى
مصلحة السجون ويمكن أكثر..

- سراج طلع على المعاش..

- لسه ما وصلش ستين سنة.. قلت متعجبًا..

هز ماهر رأسه مؤكدًا ليوضح؛ طلب إحالته للمعاش ليتولى إدارة
شركة الحراسات الخاصة «بلاك تايجرز»، تذكرتها وربطت علاقته بها منذ
زمن طويل، أصبح مشاركًا بها الآن وهناك أقاويل - كما يقول ماهر -
توشى بامتلاكه ذلك الكيان المسلح العملاق ..
أما عن علاقتها سوىًا قال ماهر: انقطعت تمامًا!

حرى به أن يصبح كالذبابة، يسقط بين خيوط عنكبوتى، أقطع جناحيه ويراه الجميع معلقاً ضعيفاً مذلول النفس، مكسور العين، ليحاق به ما كان يهزأ ويراه بعيداً..

قابلت نجلاء فى التاسعة قبل توجهها للمطبعة واتفقنا اليوم على إنهاء الأمر، وكريمة السبع التقيتها بعدها بساعة تنتظرنا فى الشقة المقابلة لشقتى المؤجرة..

كنت فى حاجة لدعوة أمى التى ودعتنى بها وهى معتقدة بأننى فى مقابلة للوظيفة الجديدة، العقار رقم 7، صعدت بسرعة إلى الدور الثالث أدرت المفتاح بباب الشقة فافتح بعد دفعة قوية من ساعدى.. كل شىء يقترب، الموعد والانتقام، غروب الشمس وبعدها ظلام الليل، وفى الخارج سيمتد السكون حتى تسقط قنبلتى وتضيء تلك العتمة وعندها نرى الليل نهراً وتنجلي لحظات الكذب والادعاء وتجرى عناوين الصحف فيخوض الناس بألستهم غمار الحقيقة..

من أكون؟!

الآن حقاً من أنا؟!

راودنى السؤال وأنا أغير ملابسى، أرتدى جلباباً منزلياً، من نجاة؟! تلك الفتاة التى تخلو صحيفتها من الفل والياسمين ويتنشر بها الشوك، أبتسم وقلبى مغارة، حقيقة أنا فى خصومة..

خصومة مع المجتمع، الشارع، الحارة، الأهل..
خصومة مع الأولياء والصالحين..
خصومة مع نفسى!

أين باقات الورد ورسائل المراهقة وغمزات الحب وذكريات القبلية الأولى وتشابك الأصابع حين تبدأ بالتردد وتنتهى بالتشبث، غاب كل شىء خلف أحبار المطبعة ودزائن الورق!
ضعيفة، هذا اعتراف بنفسى لنفسى.. نصيبى من الورد ذابلة، ومن الحياة شوارعها الصاخبة أعبر بها كالغرباء!

لست ناقصة عقل، فعلى لا يكف عن التفكير، بل يرسم أحلامًا وأمانى لمئات السنين وحين تدور تروسه للقراءة يبحر لآلاف السنين، ما الأمر إذن؟!
البكاء، تعرف جفونى طعم الدمع وصدري يعرف انقباض الألم وها أنا أبكى وأجهش فى بكاء لا ينقطع..

لا أعلم كم من الوقت ظلت كريمة السبع تدق الباب حتى طفح بها الكيل فزادت من دقائقها بشكل قوى ومريب أيقظنى من بكائى، أسرع إلى الباب فتحته ودخلت وهى تسأل أين كنت!

رأت دموعى فأخذتنى فى حضن لم أتوقعه طلبت أن أمسح دموعى وأتمسك بشجعاتى فالיום فاصل ولا يجب إفساده بنوبات الضعف والخوف، ماذا تعرف كريمة عن الخوف أو الضعف؟!

أشعلت سيجارة وقالت: أنا هستنى قدامك هنا خلى بالك من نفسك، وأول ما صاحبتك تيجى تقوليلى عشان أعمل حسابى..

..... مساكن أهل الهوى=

ساعة ووصلت نجلاء نظرت إلى أثاث الشقة وسألت عن مصدره
فقلت: كريمة السبع اتكفلت بكل ده، المهم أنت متأكدة إنه هيشرف!
- ده راجل واطى.. ما يضيعش فرصة.. قالت بعصبية، ثم بلهجة مغايرة
تضفى على الجو دعابة أكملت: أنت مش واثقة فى نوجا ولا إيه..

لم يسحب نشأت شكواه إلا بعد موافقتى على طلبه أن أسلم له نفسى
وأخذ بذلك ضمناً، بتعليق محضر السرقة عند الجرد الشهرى، يقدم أوراقاً
تثبت عدم فقدان الخزينة لأى مبالغ مما يزيل عنى تهمة السرقة، قبل ذلك
يأخذ ما يريده من جسدى!

سعى فى خروجى بكفالة حتى يتسنى له الأمر برمته، يقدم أمثلة فى
القدارة تتخطى المعقول، لكنها موجودة!
أقنعت نجلاء أن الليلة ستصبح رائعة كما يود فى شقة الكيت كات تلك،
وسينول ما يريده..

أشارت الساعة للسابعة وبدأ شيخ الانتظار يزعجنا، حتى هبت رياحه
وبالباب وقفت، طرق الباب بنقر خفيف، فتحت نجلاء..
انفجر صراخه عالياً من الأعماق، تصاعد حاراً مليئاً بالألم، يقذف بفتات
الرئة والحلق، ويطوى ضلوع الصدر، ومن فمه تسرب ينبوع رفيع من الدم
أخذ من ملتقى الشفتين مساراً وانسال إلى أسفل الذقن وسقط الجسد..
سقط كمنبنى تهدم لتوه فأحدث صوتاً وضجيجاً، تأوه مرتفع كبير ما
لبث أن هبط إلى درجة الأنين ثم انداح فى الصمت...

رسمت جثته بقعة من الدم، وجهه يلتصق بالأرض ورأسه مهشم وفى

ظهره استقرت السكين الحادة وجواره وقع المسدس الصغير وإن قبضت يده عليه، لكنها ضعيفة الآن، متراخية..

كريمة شاغرة الفم، مبهمة الملامح، ونجلاء في ضحكات هستيرية ونحيب، وأنا ينتابني الغضب ولا أعلم لماذا تبكى مدامعى، وفي يدي المطرقة الثقيلة وأثار الدم تعتيها..

جذب صوت الصرير والشجار العشرات من السكان جميعهم وقفوا ذاهلين بالغرفة حول الشباك وأمام الجثة وجوارى، وكريمة تصرخ: عاوز يتعدى عليهم الكلب ابن الكلب، اطلبوا الشرطة..

أقبلت إلى جوارى نجلاء ترتجف، وعلى جبينها آثار الضرب وفوق حاجبها جرح، وعقلى لا يفكر ولا يستوعب ما يحدث، لكنى أرى كريمة تنتشر في كل مكان وتتحدث إلى الجميع وتروج لتهجمه علينا، وتعطف علينا فيتبعها أكثر الموجودين بالعطف، وهناك من يسكت ومن تشكك عيناه في الواقعة ومن يسب صاحب الجثة ويلعنه، وأنا..

أنا لا أحرك ذراعاً ولا ساعدًا، أتشبث بنجلاء الملتصقة بى بدورها، والبكاء كثير بين أعيننا، هل يمنحنا الرب فرصة أخرى للحياة؟!

أو ذلك سيكون عنوان حياتنا الأبدى؟!

عاودت نجلاء الصراخ مرة أخرى وانهارت، أصابها الكثير من الضرر، وصرخت أكثر، حاول الجميع تهدئتها، لكنها غابت في تشنجات وارتفعت شفتاها، وثبتت عينها في محجرهما وغابت فاقدة الوعي، نظرت إليها ولم أنطق، وتناوبت عيناى بين الجثة والمطرقة والسكين والمسدس الصغير!

..... مساكن أهل الهوى=

صوت سيارات الشرطة والإسعاف تقترب من البيت وتدوى في أذنى
والناس ينظرون من الشرفة والنوافذ وكريمة لا تزال على حالها ثابتة قوية،
بينما قدماى لا أشعر بهما وأنا جالسة بأرضية الغرفة وحولى من يقدم العزاء،
ملابسى مقطوعة من الصدر أعطى نهودى وصدرى بشال أعطتنى إياه
كريمة..

أول من صعد إلى الغرفة وأمر الجميع بالنزول ضابط شاب قوى البنية
له عينان ضيقتان، انصاع الجميع حتى كريمة، صعد خلفه رجال الإسعاف
حملوا الجثة على محفة صفراء، وأخذوا نجلاء بعد إفاتها إلى سيارة الإسعاف..
أمر الشرطى بأخذى أيضًا إلى المستشفى لتهدئة أعصابى وبعدها يتم فتح
التحقيق..

أقبل مسئول الطب الشرعى والبحث الجنائى إلى المكان ليمارسا عملهما،
تركت الحارة بسيارة الإسعاف والجميع ينظر ويضرب كفًا بالآخر..
لم أعد أرى كريمة..

أغمضت عيني ولم أنظر لأحد أو لشيء..
بغرفة ذات سريرين متقابلين بالمستشفى نامت أمامى نجلاء وفى يدها
كانيو لا تسحب من محلول معلق فوق رأسها..
دخل ضابط ومعه محقق لأخذ أقوالنا، وصفنا له ما حدث، أمام باب
الغرفة يقف عسكرى فى حالة انتباه..
ولا وجود لكريمة حتى الآن..
مرت نصف الساعة وأنا لا أفكر سوى فى ثأرى وماذا سيحدث الآن

ونجلاء تغرق في صمتها لا حركة ولا كلمة..
فُتِح باب الغرفة وولج طبيب سأل عن قدرتي على التحدث مع محامٍ
يدعى عصام خليل، فأشرت له بسرعة دخوله..
تيقظت نجلاء قليلاً، دخل عصام ومعه الصحفي منصور عيسى..
جلس بمقعد موضوع بين السريرين، بينما أخرج الصحفي ورقة وكتب
ما قلناه، طلب عصام بشكل مهذب من منصور الخروج..
قال وهو ينظر إلى بعين فيها من الرحمة والشفقة الكثير: هي دى الترتيبات
الى كانت في دماغك..
- جاوبت مطرقة العينين دون النظر إليه: قتلناه دفاعاً عن الشرف..
وقعت الكلمة في موضع غريب في صدري، «قتلناه» ما هذا؟!
من أين لى بتلك الجرأة، أأنت ضعيفة بئسة؟!
سأل عصام عن الكثير ولم أجب، جاوبت عنى نجلاء قليلاً..
- المعمل الجنائى خد كل الأدوات الى استخدمت أثناء الواقعة وكم ان
ملايسكم، ملايسك كانت متقطعة يا نجلاء..
جاوبته دون أن يكمل..
ابتسم ولم ينبس بينت شفة وظل يكتب قليلاً في دفتره رفع وجهه وقال:
كريمة بره.. كنت عارف على فكرة..
تأهب للخروج، أخبرنا قبل المغادرة أن أهلنا في الخارج طمأنهم على
وضعنا في القضية كضحايا، أما عما ستقوله الجرائد في الغد فهذه مهمة
منصور عيسى، الأستاذ مهني وعلى أيضاً في الخارج!

بين أروقة النفاق والكآبة وبين جدران المحسوبة والواسطة عاشت
جريدتنا الموقرة أيامها الفاتئة ليتوج كل ذلك بتعيين منتصر سحاب رئيسًا
للتحرير، أصبح اللص أمينًا على الخزانة..

خزانة الفكر والرأى ملك مفتاحها ذيل السلطة، لم تعد أقلامنا ذات نفع
سوى للإمضاء في دفتر الحضور والانصراف..

نبارك له خطايا النظام، التى جعلته ربًّا لأقلامنا ونزعت القلم عن شيخ
كحلمى عطا وعاقبته بسجن فلذة كبده عامين، الشيخ لم يطلب رحمة آلهة
النظام، سار فى طريقه تاركًا خلفه كهفًا صنعه أصحاب المصلحة، من أرادوا
لنا التخلف ورسموا لنا طريقًا معتمًا فاحتكروا الدين والدنيا وجرت أموالهم
فوق الرقاب وتحت أسنان الأقلام، فلا هداية ولا تنوير!
وما تبقى إلا العمة والمسبحة!

وشيوخ مثكول القلب يكتب مقالًا بعنوان «إن كانت عينك شمعتين فلا
تحشى الاحتراق»..

تملئ منصور من صمتنا فقطعه بصوت فاتر: ما إحنا كنا عارفين ياعم
إنه هيجى رئيس تحرير فى يوم..
- بفكر فى الشيخ حلمى..
- عمار كان صديقى بالمناسبة.. هو شخص قوى وصلب زى والده..

أنا أيضاً أبى قوى وصلب لكنى لا أجد نفسى كذلك، أنا أبعد ما أكون
عن الصدام، دائم الاختباء خلف شخصيات روايتى التى لا أعرضها،
أدسها فى ظلام الأدراج وأسند رأسى إلى الحائط عائداً إلى مساكن الهوى،
بالأمس ثارت فتاتان من قاطنى تلك المساكن فأخذتا بين يديهما روح من
أراد العبث بجسديهما..

- على.. على.. بتروح فين؟!، نادى منصور وسأل..

- موجود ..

لم أكمل جملتى حتى وثب إلى عطفى سؤال طرحه جانب جيد من خواطرى
اليقظة، يسأل عن بلاليو وأصدقاء المسرح..

استأذنت من منصور وأسرعت إلى السكرتارية طلبت إجراء مكالمة..
هاتف بلاليو ومن صوته أحسست بفاجعة، فحددت موعداً لزيارته،
عند إجازة الأسبوع، اليوم هو الأربعاء، فى الغد بعد انقضاء ساعات العمل
أركب القطار إلى الإسكندرية..

باردة فى نوفمبر لكنها مبتسمة، لا يمر بشوارعها سوى من يعشقها لا
مصيفين، لا ليالي صيفية، اقتراب للشتاء وإنذار بالصقيع، أشد ابتسامة من
أغسطس ويوليو، تعطى دفئاً خاصاً، لا تهتم ببرودة الأنامل فلا توليها ذلك
الدفء، إنما ترسله للقلب مباشرة..

طلبت من سائق الأجرة التوجه إلى مسرح الترويكو..

تعرف على رجل الأمن، فكان ودوداً، بغرفة مخصصة للفرق المسرحية
ذات باب مغلق على من فيها إلا من ضوضاء تعبر بابها، عزف كمان وأغنية

..... مساكن أهل الهوى=

وصوت يدي ملاحظات ونقر على طبله لم يُسمع في وجوده نقرى على الباب..

عاودت النقر حتى فُتح الباب، أول من رأيته مصطفى العربى فرحب بصوت عال وتعانقنا، سلمت على يوسف وسارة..

أما بلال فكان فائحاً أحضانه للقاء، أما راوية فانصرفت لتوها قبل قدومى بنصف ساعة، بعد الغد ستؤدى امتحاناً خاصاً بدراستها العليا..

أول من انصرف يوسف ثم مصطفى وتبعتهما سارة، ثم انصرفنا إلى بيت بلال..

بلالio مكتوم الصوت، روحه المرحه ضائعة، وذهنه شارد.. السمك المقلّى والسلطة الخضراء وطاولة حولها مقعدان وجدران غرفته المغطاة بصور لفنانين مسرح وسينما ونجوم الكرة وبينهم فلاسفة وكتاب.. رسمة بالرصاص لشكسبير فوقها مارادونا فى قميص منتخب الأرجنتين وأسفلها آل باتشينو ينظر لمورلان أندرلان وكأنه يشير بسبابته لشارلى شابلن، والحسناوات كثر؛ مادونا، مارلين مونرو، صوفيا لورين، أوليفيا دى هافلاندا..

غرفته كالمجلة لم تخلُ من الساسة والثوار؛ عبد القادر الحسينى، والشاب الوسيم فلاديمير مايكوفيسكى، شاعر الحب والثورة، توقفت عيني أمام صورة لإفريقى أسمر البشرة فى زى عسكرى وابتسامه يعتليها شارب قصير، أعطانى على كوب الشاي فقلت متسائلاً: توماس سنكارو؟! - أها.. الثائر البوركىنى..

..... مساكن أهل الهوى=

- ثائر يصبح رئيسًا.. تحسبها جمعًا للمتناقضات..

- كاسترو يا على..

- مازال التناقض قائمًا يا صديقي..

- الحيطان بتتكلم عنك يا بلال..

ابتسم ولكنى تابعت فالحائط الآخر ذو النافذة عليه صور لعلماء الفيزياء
والفلك ومشاهير العلوم..

قلبت في رسوماته المهملة، مبعثرة على المكتب وفي الركن وأسفل سريره:
أنت لسه بترسم؟

- برسم ويقطع الى برسمه أو أرميه زى ما أنت شايف..

مدد جسده على السرير ولم أجد بدءًا من التوقف عن أسألتى وسماعه، لم
يتحدث بذلك اللسان وتلك اللهجة من قبل يرفض الانهزامية ولا يرضى
بدور الضحية، لكن حملة أصبح ثقيلًا، وأحلامه تتبدد بسرعة الضوء ولا
يملك سوى النظر، لا يجد الفنان ما يسد احتياجه لوحاته لا تجلب المأكـل
ومسرحه لا يعرف عن تفاصيل المشرب والمسكن شيئًا لكنه لم يعد يملك
من حياته سوى الفن وسارة التى يخشى أن تضيع منه دون أن يسعفه الفن
وأهله..

- سارة بنت فنانة ماتنساش..

- أنت الى ناسى إنى مش هفرض حبى عليها، سارة لسه صغيرة زى ما
قولتلك ولازم هى الى تشوف وتقرر..

سكت قليلًا ثم قال: أول فلوس جمعتها من الرسم كان عندى 13 سنة، فى

..... مساكن أهل الهوى=

إعدادى، واحد صاحبي كان معاه مجلة إباحية، خدتها معايا البيت وقضيت الليل كله معاه، وقعدت أرسـم كل اللى بسـطـنى يومها وتانى يوم كنت بيع الصورة للى عاوز...

امتلاأت الغرفة بضحكاتنا المتبادلة وتابع وسط أصواتها المرتفعة: تخيل أول ما بعت حاجة رسمها، كانت صوراً إباحية.. تخيل فلوس وساندوتشات.. ارتفعت ضحكاته ولكنها امتزجت بخيط من الإحباط وقال: ومن ساعتها ومحدثش بقى يهتم باللى برسمه ولا اللى بمثله.. داعبته قائلاً: اللعنة يا صديقى!

صمت ملياً، متمعنًا فى ما تبقى من قدح الشاى وتمتم كمن يحدث نفسه، لعنة الفن..

تلك اللعنة التى تجبرك على التمسك بلاعنيك، فلا تلقى بالريشة والقلم ولا تترك خشبة المسرح حتى يسدل ستائره، تنحنى لجمهور لم يحضر فى الأساس ومقاعد خاوية، يسكنها الصمت والجفاء، فتشعر باللعنة لكننا نبسم ونستمر شاكرين من يلعن ومن يتركنا فى ميدان الفن تأكلنا الوحشة وتمزق قلوبنا الريبة..

إدارة المسرح لن تدفع ملياً آخر على عروض الفرقة، والمنتج أعلن انسحابه من تغطية أى أنشطة مسرحية تقدمها الفرقة، والاتهامات تغلق أمامهم كثيراً من الأبواب، ازدرأ أدیان وتكدير للأمن العام! بزغت فكرة فى رأسى ونالت إعجابى واثارت لها حماسى، شركة إنتاج مسرحى!

أصبحت صاحب أموال، لماذا لا يتثنى لى تأسيس شركة إنتاج، وتسير أموالى فى مناخ جيد أحبه، يديرها شخص عنى، يتولى الأمور القانونية وإبرام العقود وأولها مع فرقة روبابكيا..
- بلاليو.. أنا هنزل مصر بكرة..

نظر منهدشاً من قرارى المفاجئ، فاستدركت: فى شركة إنتاج ممكن خلال الأسبوع الجاى أقدر أقنعها إنها تمضى عقد مع فرقتنا..
لا أعلم لماذا لم أخبره الحقيقة كاملة، ربما يشعر بوخز فى كرامته وبصبيه التعفف فيفسد الأمر برمته، وربما هو شىء فى طبيعتى أحب الوقوف خلف الستار دائماً، على كل ذلك جيد وسيضمن الحقوق لى الجميع .. أصبحت أتكلم كرجال الأعمال تقريباً!
لم يكن مقتنعاً، أن أعود إلى القاهرة دون المرور براوية، لقاء قصير للغاية ساعة واحدة لكنه احتوى الكثير كعبور يدها بىدى ونظرة عينى لعينها ودوى ضحكاتها بأذنى..

تمنيت لها التوفيق فى امتحانها وأخذت رقم هاتف قريباً منها أستطيع الاتصال بها للاطمئنان، عندما أرجع إلى الإسكندرية بعد مهمتى فى القاهرة سيكون لنا لقاء آخر مطول، أخبرتها الحقيقة كاملة أيضاً، تلك أموال ميراثى لوالدتى عندها قالت وهى تضحك: أظنك بتكون مثير أكثر وأنت فقير..
أثارت دعابتي وضحكتي فأكدت لها إننى لا أصدق حتى الآن، أظن الأمر مزحة سأفقد منها خلال أيام، تمنيت لى التوفيق أوصلتها لمنطقة سكنها وأكملت بسيارة الأجرة حتى محطة القطار..

..... مساكن أهل الهوى=

سيارة أجرة أخرى نقلتني من محطة القطار أيضًا، لكنها من رمسيس إلى المعادى..

استأذنت من البواب الطيب ودخلت إلى فناء الفيلا ومنه إلى الردهة، فيلا شعراوى كلاسيكية جدًا تناسب أهلها وسكانها، خالى فى مكتبه هكذا أخبرتني زوجته بعد الترحيب..

طرقت الباب بلطف وجاء صوته من الداخل معبقًا برائحة الكتب التي يقرأ صفحاتها في خلوته بين جدران المكتب «ادخل»..

ما إن رأني حتى تهللت أساريره وقال: قابلت أبوك من يومين.. أصابتنى حيرة الرد وادعيت النسيان، فلم يخض فى عتابه واستفسر عن سبب الزيارة المفاجئة..

للتو جلست بالمقعد الملاصق لمكتبه وقلت: أنا قررت هستثمر الفلوس فى إيه..

ابتسم وظهرت على ملامحه علامات الاستفهام قائلاً: عظيم.. بس بسرعة كده..

- شركة إنتاج مسرحى.. أزلت عنه الاستفهام..

- مربحة؟!

- حاجة أنا بفهم فيها.. وأكيد مشروع مربح.. وكمان ليه أبعاده الفنية.

- أنت بتفهم فى الأدب والمسرح وممكن التمثيل وممكن فنيات المسرح، إخراج وخلافه، لكن الإنتاج..

كلامه منطقى لكنى ربما أجد حلاً فى مشاركته لى هذه الشركة..

قصصت له كل شيء عن روبايكيا وما تتعرض له، أبدى تعاطفه المشروط كما توقعت، سترك لى فرصة إدارة مشروعى الأول تحت إشراف مكتب محاميه الخاص ليتولى الشئون القانونية ومحاسبه لإدارات ماليات المشروع، أما فريق الإنتاج ومكتب الشركة سأتولى ذلك الأمر..
تساعدنى خبرتى فى المسرح ومعرفتى ببعض المنتجين ومن عملوا معهم لسنوات..

قبل الانصراف من مكتبه أوضح بصوت حاسم أن الأمر مازال محل دراسة للجدوى كما أضاف؛ هناك جزء ليس باليسير من أموالى تلك سيدخل فى تجارة القطن التى تشتهر بها العائلة والعائد لى، مشروع مضمون من وجهة نظره..

أعلم أن خالى الأصغر ذو عقل تجارى جبار، حول محالج القطن الصغيرة لخطوط تصدير وإنتاج وابتوى فى نهاية هذا العام إنشاء مصنع للملابس والمنتجات القطنية..

لا بأس من تلك المظلة، فالمستقبل غير مضمون كما يرددون!
المهم الآن جمع المعلومات عن الفريق الجيد الذى يساعد فى إدارة تلك الشركة، إذا وافق خالى بشكل نهائى سأصارع بلاليو لن تكون هنالك مشكلة وقتها وسيساعدنى بشكل جيد، ماذا أطلق عليها صحيح؟!
على عزيز للإنتاج المسرعى!!
سخيف لأقصى درجاته!

قضت المحكمة ببراءتنا من التخطيط لاغتيال ضابط شرطة والانضمام
لجماعة إرهابية، لكنها حكمت بالحبس ثلاث سنوات وبالغرامة المالية على
معظمنا للاشتراك في أعمال فوضوية وتخريب والمساس بأمن الوطن الداخلى!
ظهر مصطفى العربى كليث يحمى عرينه فيدافع عن حريتنا وكرامتنا
يقدم المستند والدليل، يمحو عنا التهم، عند النطق بالحكم غمرتنا سعادة لا
مثيل لها فلن نصنف إرهابيين، لكننا سنقضى ثلاث سنوات من أعمارنا خلف
القضبان دون حق أو سبب!

بعد رفع الجلسة أسرع إلينا عرابى قائلاً: ماتلقوش لسه استئناف
ونقض، الحكم لصالحنا..

أقبلت صفية وعلى إلى القفص لكنه لا يسمح سوى بمد يد تلتقطها يد
أخرى من الخارج وكل منا يخبر الآخر بكلمات ينقطع بعدها اللقاء بإشارة
من الشرطى ودفعة من يده...

سجن أبو زعبل أول ما خطته قدمانا بعد الحكم، أيامه قليلة لم تتعدى
الشهر بعدها تم نقلنا إلى سجن طرة..

وخلفنا المحامى العنيد مصطفى عرابى، فى الاستئناف تم إيقاف الحكم،
هللنا وانفرجت أساريرنا وشعرنا بنسيم صافٍ نثره ذاك المحامى على
أجسادنا..

للآخرين في تلك القضية، ستكون المرة الأخيرة التي يفصلهم عن ذويهم قضبان وسجان، وربما المرة الأخيرة التي يركبون فيها سيارة الترحيلات الضخمة..

وفي سجن طرة انتظرت إجراءات الإفراج يومًا ثم أسبوعًا تلاه شهر وشهر آخر ولا جديد سوى الحبس دون مبرر والانتقال من زنزانة لأخرى وعند التذمر يكون الرد ليلة أو اثنتين بالحبس الانفرادي، يتحاشى الضباط والعساكر الحديث معي، فلا إجابة لأي سؤال..
«أوامر عليا وعلينا التنفيذ لا غير»، أرد بأن هذا الوضع غير قانوني، فترفع الأكتاف وتظهر الابتسامات في لا مبالاة..

كنذير شؤم ورسول خراب ظهر سراج فكري في قميص خفيف يلائم صهد وحر يوليو، بالتحديد 3 يوليو 1977، بمكتب مدير السجن أخذني إليه الصول شلبي...

أشار لمدير السجن فخرج وخلفه العسكري طويل القامة وبقيت معه أنا في بدلة السجين وهو في هيئته السراجية وشعره المصفف..

سأل ساخرًا عن صحتي فلم أجب واكتفيت بهز رأسي، لم يعد مكان في قلبي لا توجد به ضغينة وكره ضد هذا الشخص، أحتاج لأركان أكثر ظلمة وأشد برودة لأضعه بها..

رفعت صوتي عن حد الغرفة قائلاً: وجودي هنا غير قانوني.. أنا بريء بحكم محكمة.. والمحامي مش هيسكت إلا أما أخرج..

- لو قصدك على إجراءات الإفراج فأنا عطلتها.. كفيك كلام عن

..... مساكن أهل الهوى=

القانون، مانفعكش أهو..

تمت ببعض الكلمات وذبنا في كآبة الصمت ومن قبلها كآبة اللقاء
برمته..

قال وهو ينقل بصره إلى قداحته وعلبة السجائر: أنا حكمت عليك
خلاص، هتقضى عمرك كله هنا..

عاودت التشبث برأى أنا برىء بحكم قاضٍ..

- القاضي هناك على المنصة، هنا في أحكام ثانية..

تابع بلهجة قاسية وهو ينظر إلى ساعته: صفية يا عزيز.. كانت حلمى..
حلمى اللي أنت قضيت عليه.. كنت تعرف إيه أنت عن صفية عشان تحبك
ولا تحبها، صفية دي ليا هتفضل ليا، ولو مش ليا يبقى مش لغيرى..

ثارت قوى وحاولت التعدى عليه، جذبه من ياقته ووضع السبابة في
عين والوسطى في العين الأخرى، لكنه برغم السن مازال قويا ورد فعله
سريعا، دفعنى بقوة، لوى ذراعى خلف ظهري أخرج مسدسه ولصق
فوهته برأسى، سب ولعن بصوت جهورى عالٍ انفتح له الباب ودخل
مدير السجن وشاويش واثنان من العساكر استقبلونى بلكمة في الصدر
وأخرى نالت بالمعدة ثم أحكموا قبضتهم على ذراعى أخذونى إلى الخارج
وفي الخلفية تردد صوت سراج ومدير السجن يشيعانى بشهر في الحبس
الانفرادى بزنزانة 630..

لن أنسى ذلك الرقم وتلك الزنزانة، رائحة البول وعفن البراز، جدران
في الصيف تشع حرارة والصوت لا يخرج عنها، لا تعرف ليلها من نهارها،

..... مساكن أهل الهوى=

إضاءة مصباح تتضاءل حتى تنتهى فنغوص فى السكون، الباب أكله الصداً
والبق والنمل هما الزائر الأوحده..

تجاورها زنازين تأتى إليها الأقدام ولا تعود!
فى يوم دبّت الحركة فى الخارج بشكل مفاجئ وهات الكلاب يتبع نباها
فى الطريقة الخارجية بين الزنازين..
صوت أجش لم أسمع لترده مثيلاً قال بلهجة أمرة: كل مسجون يقف
فى وسط الزنانه بعد العد لتلاتة..

عند النطق بثلاثه شرعت مجموعه من العساكر فى فتح مزلاج كل زنانه
وأمر من فيها بالخروج إلى حائط الطريق..

صاحب الصوت الأجش أمرنا بإدارة وجوهنا للحائط نفذنا وسط نباح
الكلاب وتحركات العساكر السريعه، دخلت الكلاب من زنانه لأخرى
تشمشم فى يمينها ويسراها وفى الأركان..

« شكرى الطوخى، صحفى » قال قاطن الزنانه المجاورة كاتماً صوته فى
الحائط الواقفين أمامه..

- عزيز سالم، مهندس ميكانيكا...

- سياسة؟

- تقريباً..

مديده إلى مصافحاً وقال بصوت لا ينتمى بأى شكل لحالنا الآن: تشرفنا
يا بشمهندس عزيز، أتمنى تنبسط من حسن ضيافتنا..

انطلق تأوه من حلقه كرد فعل طبيعى لسقوط هراوة على ظهره وركلة فى

مؤخرته ألصقته بالحائط تمامًا..

خرجنا من الحبس الانفرادى بعد ليلتين أو ثلاث من تلك الواقعة، وقابلت شكرى وأصبحنا أصدقاء مقربين، بل أكثر صديقين مقربين.. شكرى معتقل سياسى، مقالاته مناهضة للنظام كتب عن السادات مقالاً وصفه فيه بسارق القوت والنقود فكان تذكرة عبور مناسبة لدخول المعتقل..

زارنى طيف صفية كثيراً فى الليالى الحالكة الباردة منها والخائفة ، حتى وجدتها يوماً بين سجل الزيارات، وقتها كان شيئاً كبيراً أن يسمحوا لنا بالزيارة، حدثتنى عن كل شىء فعام بعيد عن البيت والأهل يحمل كل يوم فيه أحداثاً ومغامرات، أهم ما أخبرتنى إياه وداع رأفت لى، جاء إلى منزلنا فلم يجد أحداً فسأل عن عنوان المعادى ووصل إلى هناك، أخبر صفية بهجرته، هاجر خارج البلاد حاملاً يأسه وألمه، ماتت بهية وهو فى المعتقل فلم يرَ كيف أغفلت عيونها ولم يسمع بكاءها الأخير، ليس بالضعيف ولا الجبان، هو إنسان فى عالم لم يعد يعترف بذلك النوع من الكائنات الحية..

هذه كانت الزيارة الأخيرة لنا، مر شهر وأخذ معه شهوراً ليأتوا بسنة تحلفها سنون وسنون ومنتقل من سجن لآخر ننعزل عن الجميع، لم يؤثر موت رئيس ومجىء آخر فى حالتنا، انفصلت عن شكرى بعد ثلاث سنوات وعلمت أنه عاد للكتابة وكتب عنا، وعنى بالتحديد ومجموعة المعتقلين بأوامر سيادية، لكن لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم من يريد السلام على هذه البلد وهم أكثر، لم أكن أعلم أين أجد المدد صفية وماهر وعلى أم من؟!

ومضت سنواتى فى السجن ومعها أغلقت على الماضى بمزلاج الزنزانة
وتبقى صافية وعلى فى خاطرى..
والآن أتأهب لرفع قضيتى والوقوف بساحة المحكمة لرفع مظلوميتى
أمام الرأى العام، عله ينطق ولو مرة فى حياتى الأخيرة!
الساعة الآن ملائمة للمرور بفؤاد بمكتبه فى عابدين ثم الذهاب لتحرير
الدعوى ورفعها فى ساحات القضاء ومن قبلها أروقة النيابة..
لست متهمًا ولا مجرمًا بعد تحريات فؤاد وجد أنه لا قضية فى انتظارى
وكل ما فات فى الحبس لا يعلم عنه القانون شيئًا، لهذا أحبت التجوال وسط
الناس والظهور من جديد!
ربما أمر بشقة السيدة زينب وأجلس بسنترال حامد الصعيدى أراقب
المارة وأعانق من أعلمه منهم وجوارى على، ابنى صاحب الثروة الجديدة!

أواجه الحركة والطواف وبعدها يأتى التعب ثم الانهاك، أواجه ذلك المجتمع الشرس وأنا راقدة على سرير وفي الخارج تحاك ضدى الألاعيب وتنصب الشراك لكني لا أهتم، أتمنى أن تكون ضربتى أوصلت بنشأت لأسرع الطرق نحو الجحيم، لا أهتم ماذا يحدث بعد ذلك، مساومة الشرف بالحرية!

أى حرية تلك دون شرف، ليست حرية ربما نسميها شيئاً آخر لا نعلمه، لكنها ليست حرية، القضبان والمتاريس لا تنال من الشرف كالخنوع والذل، أرادنى عارية على سريريه بين ذراعيه أداعب ذكره وأضعه بين ساقى مبتسمة راضية، أترك له نهديّ يلحق منهما ما يشاء يمزقها بيديه ويعدننى بتمزيق الوصل وإخراجى من قضية السرقة!

نجلاء أفاقت بالأمس من حالتها العصبية، تحولت من ضعفها لقوة جعلتها فى حالة رضا عن فعلتها..

قالت بصوت خضبته عزيمة وإصرار: ده حق الي راح وفات كله وكان مفروض من بدرى أعمل حاجة زى دى.. أنا مرتاحة أوى ..

لم يختلف موقفنا فى تحقيق النيابة، مازلنا مصرتين على الدفاع عن شرفنا وكتب منصور عيسى عن ذلك ودارت الأقلام والأخبار فى تلك الدائرة وأصبحت القضية موضع الرأى والنظر..

لم ينقطع على والأستاذ مهني عن زيارتنا، لكن على لا يتكلم كثيراً ينظر إلينا ملياً وينطق بكلمات روتينية محفوظة حتى وقت قريب..
في المرة الأخيرة صاح وهو يدير نظره بين سريري وسرير سميرة «ليه تضيعي مستقبلك كده؟!»

ابتسمت ونمت على وجهي ضحكة ساخرة وقلت متعجبة: مستقبل! - جريمة قتل!

- لا.. دفاع عن الشرف يا أستاذ على..

أكملت بصوت واثق وهو ينصت ونجلاء لا تحرك ساكناً ولا تولينا الاهتمام، الشقة مؤجرة لى وهو من تعدى علينا فيها، هو من أتى لمسرح الجريمة، لا دية للصل إذا قتل بفناء القصر!
القانون لا يهمه سوى الظاهر، هذا إذن الظاهر، نعم أنا من نصبت له الفخ وما أردت سوى فضحه وإذلاله باستدراجه إلى هذه الشقة وإخراجه منها عارياً في سيارة شرطة، لكنه أبى إلا أن يخرج محمولاً إلى سيارة إسعاف ودماءه القذرة تسبقه..

عاود على السؤال: تفتكرى الأمر بالسهولة دى أمام القانون؟!
القانون ضعيف مثلك أيها الصحفي لن يرد شرفي أو يجلب لى ما قد يزهد سفاخاً، والالتفاف على القانون كما تدعى هنا واجب وشرع، بالقانون تحولت لسارقة وقضيت أياً ما بالحبس!

القانون وضعنى فى مربع الفريسة، لكنى استخدمته فى طعن من سولت له نفسه تذوق لحمى، هذا أيضاً يكفله القانون، الأستاذ عصام خليل لن يجد

صعوبة في ذلك، وإن وجد ماذا يضر؟! هاشم أيضًا لم يتردد في زيارتي وإن أصابه الهم واعتلت وجنتيه سحب من الكآبة وتحت نعليه نثر رفات قلبه المحطم ومعه أبى وأمى وميادة والصغير، أحاول طمأننتهم، ويحاولون بث عواطفهم اتجاهى.. في مساء ذلك اليوم وبعد انصرافهم، أقبل عصام خليل متوترًا وقلقًا وعلى عينيه غمامة من غضب مستعر وقال لنا: ولاد نشأت ومراته رافعين عليكوا تلت قضايا.. أهمها القتل وبيطالبوا بفتح قضية السرقة والتعدى القديمة.. ارتعدت نجلاء قليلًا وأسندت ظهرها على الحائط ولم تنطق بينما قلت: ده كان متوقعًا؟

- آه.. جدًا بس مكتب المحامى الى رافع القضايا، محام كبير ومعروف عنه إنه محام يقبل أى قضايا طالما الأتعاب كبيرة.. نخلى القانون يمشى بينا بقى!

- وضعنا مش صعب فى القضية الأساسية هحتاج شهود وغيره إن الشقة بتاعتك وإنك بتترددى عليها من زمان وإنها مش لأغراض الدعارة عشان نقفل السكة دى، لكن فى قضية السرقة هحتاج جرد وغيره ودى تستغرق وقتًا كبيرًا..

- جريمة السبع هتجيب الشهود من العمارة.. قالت نجلاء.. أكدت على كلامها بحركة من رأسى، لسنا قتلة حتى لو رأنا القانون كذلك..

عاود حديثه قائلاً: أنا قلت للأستاذ مهنى وكان معاه على، المحامى الى

ماسك القضية من المكتب ده اسمه رشدى عبد الرازق، الصدفة إنه صاحب على..

فى صباح اليوم التالى والمقرر إنه آخر يوم لنا فى المستشفى نمثل بعده أمام النيابة، زارتنى سميرة، وكانت المفاجأة، عرفتھا وإن لم تخلع نقابھا، جلست بكرسى بين السريرين، بكت كثيرًا ورفعت نقابھا فلا يوجد رجال بالغرفة ولا أحد غيرنا فى الأساس، وجهھا مملوء بسمنة الجلوس بالبيت، قريبة تلك المرأة من قلبى عندما سألتنى عما حدث أخبرتها الحقيقة كاملة، زاد خوفها وانقباضها لكنى شجعتها، لا خوف فى ذلك العالم، كل ما هو متاح، أن نتعامل بمبدأ الغابة الكبيرة نختار ما بين الفريسة أو الضواری..

سألتھا عن حسن فجاوبت أن الحال أصبح ميسورًا وأصبح صاحب محل عطارة ومازالت علاقته جيدة مع الشيخ رجب السروجى، الأمر أصبح «عال العال» هكذا وصفته..

سميرة حصلت على تذكرة مرورھا إلى مجتمع رجب السروجى بالنقاب وزوجھا باللحية من قبلھا، فتبدل الحال وأصبحت الحالة الاقتصادية جيدة، والمجتمع لن يعارض أن تدخله بحجاب أو نقاب أو تعبر إليه بتنورة قصيرة وقصة شعر على الموضة طالما ستشاركه سوءه وتدور وسط تروسه، لا تعترض على إنتاجه ولا تقف أمام عجلة سيره..

نجلاء من قبل دفعت ثمنًا لتذاكر كثيرة فى هذا المجتمع لكنها لم تكن كافية أو موجهة فى الجانب الأكثر ربحًا فانهى بها الحال إلى الاعتراض والثورة مثل تمامًا..

الإسكندرية مرة أخرى، سيد درويش للمرة الثانية بعد الألف أو المليون،
نسأت صيفية ونجمات وترية، وشباك في صباح باكر، يداعب فراش بكر لم
أخذش حياءه باصطحاب إحداهن كعادتي الذميمة..
أظنها حالة من السكينة أصابتني بعد الثراء المنتظر!
وربما هدوء الجمر في مراحل القطار قبل الانطلاق!
أو شعور بالمسئولية جعلني أتمسك بقلمى وروايتى، أنهى فصولها
الأخيرة متفوقاً في صومعة الأدب، لا أجد تفسيراً ولا يهم ذلك على كل..
على عزيز سالم، هذا الشخص الذى لا يبحث عن تفسيرات لحياته
يتنوى إنهاء عمل ذي قيمة ليسبق اسمه أخيراً لقب «أديب»..
الأديب على عزيز سالم!
ما هذا... أين الصفيق والعربيد المستهتر الأنانى الفوضوى منعدم
المسئولية، الطفل الكبير؟!
أهملت صوتاً منبعثاً من جرس الغرفة الداخلية كما أهملت تفريغ حقيبتى
من محتوياتها، لم أخرج منها سوى قلماً ومجموعة من الأوراق ودفتراً قديماً
شهد على عبث أفكارى..
لا ضير من تلبية نداء الجوع..
ألقيت التحية على موظف استقبال الفندق ببدلته الزرقاء وقبعته

..... مساكن أهل الهوى=

التقليدية، أخذت يسارى إلى آخر الشارع وصولاً لميدان الرصافة ومنه يميناً إلى طريق البحر.. مطعم «مرزوقة» رائحة المقليات والمقبلات وابتسامات صباحية..

لا يعلم بلاليو وفريقه عن وجودى بالإسكندرية فى هذا الوقت، حتى راوية لم أترك لها خبراً بقدومى..

مرة أخرى إلى قلمى ودفتى ومجموعة من السندوتشات أسارع لالتهامها وكوب من الشاي، برفقة مقعد خشبى وطاولة مستديرة على ناصية مقهى الرغبى..

أرحت رأسى إلى المقعد وسرحت قليلاً فى فصل روايتى، ها أنا أصل إلى محطتها الأخيرة بعدها ينطلق قطار القارئ مفحصاً ومراجعاً، وربما تجد طريقاً إلى المسرح فينطلق قطار المشاهد أيضاً مراقباً وشاهداً..

نقلنى المسرح إلي صديقى بلاليو، لن أقابله حتى أنهى الرواية وأسلم له نسخة كاملة عنها..

لمعت فى رأسى كلمة «الخيال» فجُلت بعينى يميناً ويساراً، أبحث عن محفزات لذلك الخيال، وعن وقود لمحركه..

قد نجد الخيال فى الطبيعة، أمنا العطوفة، وأستاذنا البليغ، لكنها خرساء لا تنطق لغة مسموعة وإنما لغة من نوع آخر، لغة الحيات..

لغة ألهمتنى إياها طاولة فى آخر المقهى اقتسمها شاب ومحبوبته، يسترق لمسات من يديها فتحمر وجنتيها، فيسرع بكلام معسول يذيب قلبها، هذا هو الحب، وما علاقة الحب بالخيال؟!

..... مساكن أهل الهوى=

قد يخلع الكاتب ملابسه ويسير ليلاً في أواخر ديسمبر لا يهيمه البرد ولا يضرب أوصاله الصقيع بحثاً عن فكرة يمنحها الحياة فتجرى أمامه لابساً أثواب الحياة، دافعة إياه لمضاجعة صفحات الكتب القديمة واشتهاء ملمس الأغلفة ذات العناوين الثقيلة..

مرت دقائق وساعات ولا أعرف كيف لي أن أخرج باكورة أفكارى على هذه الورقة، تركت القاهرة وبها والدى وقضيته وجئت إلى هنا في هدوء وصمت كمن يحمل سرّاً كبيراً يريد أن يبوح به لورقه منفرداً، ولا جدوى أيضاً من ذلك..

أين لي أن أجد الخيال!

راوية.. تردد صداها في عقلى وكأنه نداء داخلى لمطار القاهرة، علي الراغبين في حجز أول رحلة لجمهورية العقل والتمتع بمدن الخيال التوجه إلى راوية..

إذن.. ماذا سأجد عندها؟!

عيون واسعة ووجه رائق، حديث معسول وأنس في وجودها لعذب حديثها، ثقافة ووعى بحالنا ماضينا وحاضرنا..

آه.. لو أخبرها ماضى علي ومستقبله المنتظر وتلمس بيدها حاضره، فأجد عندها النصيح!!

سيارة أجرة نقلتني إلى منزل راوية، وهناك قابلت أخاها، الذى عانقني كثيراً ورحب بوجودى، سألته على راوية، فأخبرني بوجودها في معرض «جانيت أنطوان»..

فاليوم هو العرض الأول للوحات الفنانين العرب المشاركين في مهرجان
«ومن الفن حياة»، أخبرني يوسف..

سألته عن العنوان وتوجهت مسرعاً عبر سيارة أجرة أخرى..

الطابق الثاني - برج الموريتال - سان ستيفانو

لافتات للترحيب وقائمة بأسماء المشاركين في العرض..

خبرني بالرسم واللوحات الفنية كخبرتي بخطة البشاميل، أعرف
الشكل وأحب المذاق وفقط....

أعلم عن بيكاسو ودافنشي لكني أجهل أي نوع من السحر يلتصقون
فيخرجون تلك الخلطات..

طلب مني موظف الأمن قبل الدخول إبراز الدعوة، فلم يكن من
الأمر بد سوي الرجوع خائب الرجا وترك رسالة لراوية مع الموظف تخبرها
بانتظاري إياها بالمقهى أسفل المبنى..

ربما لا يوجد أسعد من أبي الآن، النيابة وقد استدعت غريمه للتحقيق
في دعوى المحامي العنيد - الأستاذ فؤاد - وقریباً ستشهد قاعة المحكمة
جمعهم، وهناك ترتفع صحاف الأحكام وتنطق شفاه القضاة ويزيد والذي
غبطة قد تمحو عنه ولو قليلاً من مرارة العشر سنوات..

تلاشي طيف والذي وسيرته ليظهر طيف راوية ويمثل بباب المقهى
زاهياً في خطوات مائلة، تميزت بفستان أزرق بسيط التطريز وأقبلت
لتشاركني سلاماً حاراً..

تحدثت كثيراً واستمعت أكثر، للمرة الأولى التي تخاطبني فيها شفتاها

..... مساكن أهل الهوى=

وعيناها الساحرتان بهذه النظرات الشغفة والهيام المشتعل في وجنتيها، ذابت ضحككتها في مصطلحات الثناء وفاض لسانها في الإعجاب..
عن جديد في قاموس أفكارى حول حياتها، عن دخيل رأيته في بريق حدقتها.. أخبرتنى!

بطاقة وهمة تزيد من جاذبيتها وبلسان لم يسمح لتلك الحالة السينمائية بالاستمرار قالت «مروان الزهدى»، عبث الاسم بأفكارى دون الوصول لهوية محددة، لكنها استرسلت في سردها فوصلنا إلى رسوماته ومن ثم جنسيته وسنه وعلاقته بها وعلاقتها به، ما يربطهما..

هذا الرسام الشاب الذى يحب المعارض مشرقها ومغربها، يرسلها أينما ولى ومتى أدبر، وتنتطره بلاشك بهذا الشغف..

واليوم يشارك برسوماته هنا في هذه المدينة التى ظننتها رؤماً عطوفاً، تريد أن تمنح قلبى فرصة أخرى للحياة لتمنحه قبلة البقاء فجمعتنى براوية...

فبئس الجمع كان، صدف منوط بها السخرية
ها هو العبث بدأ بقلبى من جديد وتلاعب الأقدار يعود إلى هوايته السابقة!

صاغر النفس مكسور الخاطر مشئت الزهن استمعت إليها وما أرهقت نفسى بفهم شئ وإن أردت فلن أستطيع، بطل هذه الفتاة لمع أخيراً أمامى وترك قلبى فى كواليس الظلام، أما هو فلمع فوق لوحة الرسم كخطوط لألوان صارخة جذبت إليها العيون..

نقطة.. على تلك السطور وبداية من جديد أنتظر فيها الفشل فى آخر

نفقها المظلم!

الآن أضيق بالإسكندرية ولا أشعر بحاجة للسير في شوارعها، كل ما أريده هو العودة إلى غرفتي في الفندق وعدم الخروج منها بتاتاً إلا بفصل النهاية، نهاية لمشقتي ونهاية لروايتي من قبلها.. ودعت راوية ولا أذكر ما قلته لها ولم أحدد معها موعداً للقاء آخر ولم يلفت ذلك انتباهها!

بغرفة الفندق كتبت استقالتى ومعها طي المهنتى كصحفى مطارح النسيان وغلق لهذا الباب دون عودة ولو مؤقتاً..

مرت أيام طوال فى الشأن والحدث قصيرة فى المدة على رأسى لا أعلم فيها عن النهار والليل سوى ضوء من الشباك يباغتنى صباحاً ويختفى مساءً وعقارب ساعة تسعى حثيثاً فى قلبها الدائري..

فى يومى الأخير حين وضعت نهاية لهذا العناء أخذت روايتى وتوجهت لمطبعة دلى عليها موظف استقبال الفندق، طبعت منها نسختين، الأولى أسلمها بلاليو والثانية لدار النشر!

لم أجد بلاليو فى منزله ولكنى تركت خبراً بانتظارى إياه ليوم آخر لا أكثر بالإسكندرية وأعطيتهم عنوان إقامتى.. حزمت حقيبتى ولم يأت بلاليو!

فكان وداع هذه المدينة شبه نهائى لفترة ليست بالقصيرة وربما العودة يحملها إلى مسرح بلاليو بعد فترة من إعادة التأهيل لنفسى المرهقة!!

«العدل أساس الملك» لوحة كبيرة يغلب عليها اللون البنّي وكتابتها بلون ذهبي كإطارها تمامًا معلقة في وسط القاعة فوقها امرأة معصوبة العينين تمسك ميزانًا متقارب الكفتين، ومنصة كبيرة تتسع لثلاثة مرتفعة عن القاعة خلفها ثلاثة مقاعد عالية وعلى يمينها منصة ضيقة تتسع لواحد فقط تأخذ انحرافًا بزاوية حادة فتجعلها مواجهة تمامًا للقفص الخالي..

هرج ومرج وجلبة بين الحضور، صحفيون ومصورون، محامون وساسة يجلبون مشاهد من ذاكرتهم أو تقف أعينهم موقف المشاهد والمراقب، والذى يقف مع الأستاذ فؤاد ومساعدته - محام شاب - وأنا معهم وعلى بعد خطوات وقف الجار القديم حامد الصعيدى ينظر إلينا باهتمام، كلامنا قليل على خلاف بقية الحاضرين، ماهر شعراوى يتجلى فى بدلة أنيقة على كرسيه المتحرك ومعه رئيسة شعراوى وسواقه الخاص، الأستاذ مهنى بالأمس كتب مقالاً عن تلك القضية قال عنها «محاكمة لمملكة الضباط ها هو الآن يحضر بجوار جمال ومنصور عيسى بمقاعد الصف الثانى وخلفه بلاليو وراوية وصديقها وعصام خليل..

فى الجانب الأيسر من قاعة المحكمة، شخص بنظارة طبية كبيرة فضية الإطار، ضخمة الجثة طولاً وعرضاً، ثقیل الشنب أصلع الرأس يشعل سيجاراً مستوردًا وفى يده خاتمًا ذهبيًا ومعه باقة من المحامين المشهورين، سراج فكرى أو بمعنى آخر الخصم !

الخريف خارج القاعة يترك أصابعه داخلها، جو خانق مشحون برطوبة الصيف ونهار الشتاء الباهت ربما توهجه بعض ومضات آلات التصوير في يد المصورين وخلفها أقلام الصحفيين تسأل هنا وهناك..

ومن خلال باب انفتح في زاوية القاعة خرج رجل ضئيل الجسد في ثوب رمادى وقال جاهراً صوته «محكمة» انتظم جميع الحضور بنظام المقاعد واقفين منتظرين دخول أعضاء المحكمة، أشار القاضي بيده فجلس الجميع ولا كلام، صمت يطبق ينتظر ما تحمله المحاكمة من خبايا..

ثمة ثلاثة على المنصة الكبيرة وواحد على المنصة الضيقة «وكيل النيابة» في مقبيل الأربعينيات شعره كثيف، حليق الذقن والشارب، أما المنصة الأخرى توسطها عجوز في أواخر الخمسينيات أو منتصفها، مقوس الظهر قليلاً بفعل السن، ذو وجه دائرى وشارب مهذب خفيف وبشرة بيضاء، جاوره إلى اليسار مستشار طويل القامة يرتدى ساعة فاخرة بينما المستشار الأخير على اليمين يعقد حاجبيه الكثيفين ويتأنق في بدلته السوداء..

ضرب القاضي بمطرقة مرتين أو ثلاثاً ليعلن بدء المحاكمة، للحظة شعرت بأنها مزاد علني حول الشرف أو سلعة أخرى ربما أو بالأحرى مبارزة شعرية من العصر الجاهلي في الجمل البراقة بين المحامين، أين صفية، تلك قضيتها وهى غائبة، ألا يبطل الحجة القانونية عدم تواجدها؟!

بدأ وكيل النيابة ادعائه بجملة ستكون في الغد أو في الجرائد المسائية عنواناً جيداً للكثير من مانشيتات الصحافة «إنها قضية، فارغ قصص اتهامها» المدعى والمدعى عليه كلاهما في القاعة دون أصفاد أو أقفاص حديدية، تابع والجميع

..... مساكن أهل الهوى=

ينصت وأقلام الصحفيين تكتب، والمحامون يدونون بعض الملاحظات، لكن من جلب تلك الأبواق الإعلامية وهذه الأقلام الكثيرة وبعد ساعات سيصبح هنالك العديد والعديد من الأخبار وكأن العامة على موعد مع مسلسل جديد مؤلفه القدر!

أنهى وكيل النائب قائلاً: فيهم الخصم ومنهم المختصم وإن نظرنا عن كتب سنجد لها قضية وطن ربما أو نزاعاً قديماً رمى بظلاله على حاضرنا ولن يسلم منه غدنا..

أضأت كلماته شيئاً في رأسي، غدنا!

لماذا يحمل الغد تقلبات ونزعات الماضي، ألن يأتي بقضايه ومشاكله أم سيصبح كالحاضر يدفع ثمن ما اقترفه الماضي دون اعتراض؟!

لكن المستقبل مختلف، أبوابه عالية وضخمة، عصر جديد في شكله ومضمونه، عصر التكييف والسيارات الفاخرة ذات السرعات الكبيرة والهواتف الحديثة اللاسلكية والثابتة، الرحلات الواسعة للفضاء والأقمار الصناعية، طفرات المعلومات والبيانات، عصر الأرقام، العقاقير الطبية فائقة التأثير، المعدات والآلات الضخمة ذاتية التشغيل والإنسان الآلي!

وقد يكون المستقبل باباً آخر يعبر منه تجار السلاح والأعضاء البشرية، بيع الأجنة وربما التهامها، حينها تصبح وثيقة الصحيفة الجنائية هي شهادة الميلاد والحفاظ عليها ناصعة ضمن نقاوة الضمير وإن تعددت الجرائم!

القرن العشرين قريباً يغلق أبوابه الضيقة وبقدميه يهيل التراب على ما ورثناه من حروب عالمية واشتعال لمناطق في الشرق والغرب، فمتى يكون

النظر للإنسان وحسب، دون دينه أو عرقه ولونه لا يجعله منصبه أو مهنته ذا حصانة أو تفرد، أهذا شيء يسير سيحمله المستقبل يوماً بين طياته أم هي قضية الإنسان من البداية للنهاية ولن يبت فيها بحكم أو قاضٍ فقط الحرب والنزاعات وما سواها؟!

لماذا لا يصفق أهل القاعة؟!، لربما اعتادوا على الخطب الرنانة والكلمات المبهمة موزونة القافية وكأنها أبيات شعر لمعلقات ذائعة الصيت، لكن الأستاذ فؤاد يتكلم بحرارة وصدق وعيناه تنطق بالحق، لسانه لا يبحث عن الكلام الثقيل والمعسول فقط بل يخبر ما حدث، لن تسقط قضيتنا بالتقادم، يؤكد ويكور بيده لكنه يحترم ساحة القضاء والقضاء فلا يضرب على المنصة أمامه، وبأزقة عقلى تحول كلماته «لن تسقط قضيتنا بالتقادم»، لا شيء يسقط بالتقادم عامة يا سيدى المحامى المحترم ومن أمامك السادة القضاة، ما فعلته بعلا وفعلته بى ماجى، ما فعله نشأت وفعلته به نجاة حتى راوية والإسكندرية وخليها الرسام، كل تلك القضايا لن ينظرها قاضٍ فوق منصة خشبية يتملح حيناً ويدون ملاحظاته حيناً ويضرب بمطرقة الصغيرة إذا ما عمت بعض الضوضاء وزاد الهمس واللمس، أما المستشار صاحب البدلة السمراء فيبدو عليه الاستمتاع وأبى تظهر عليه علامات الجدية مصحوبة بحزن طفيف ورغبة فى الثأر تلمع فى عينيه يتحاشى النظر إلى سراج فكرى بملاحه الثابتة وبسمته البلهاء المستهترة.. يسود القاعة جو من الوجوم وصوت الأستاذ فؤاد يعلو ويدها تلوح فى اليسار واليمين وصفية مازالت غائبة! الدفاع يتقدم، قال القاضى باقتضاب بعد انتهاء فؤاد من مرافعته..

..... مساكن أهل الهوى=

تحرك محام ممتلئ الجسد داكن البشرة تظهر عليه الحنكة والمهارة وقال بصوت واثق ولهجة حاسمة: موكل ليس بالمتهم يا سيادة القاضى حتى يمثل أمام المحكمة ويتم النظر إليه كمجرم يحشد محامين للدفاع عنه... انتفض وكيل النيابة ورفع يده، فأذن له القاضى ليقول غاضباً: الأستاذ المحامى لا يعلم تقريباً أن قضية موكله هى استغلال لنفوذه ومنصبه الأمنى، أرجو منه مواجهة التهم دون الالتفاف عليها بكلام دبلوماسى.. تجاهله المحامى وإن نظر إليه كثيراً وقال: الأمر ليس بهذه السهولة، إن ملف موكلى بوزارة الداخلية ناصع البياض يدل على شرفه وحسن تعامله بالوزارة وتضحيته بالعديد من أجل أمن تلك البلاد.. موكلى رجل نظام حضرات القضاة.. ولم يفعل سوى ما تلميه عليه تعليمات النظام ومصلحته العليا..

حاولت الاحتفاظ بهدوئى لكن بسمة طففت على وجهى وقلت فى نفسى، أظن أكبر تهمة هى تلك التى ترميها على موكلك «رجل النظام»... استمر فى نفى كل شىء والتأكيد على فناء الرجل لحياته فى السلك الأمنى والحفاظ على الوطن بل قال فى آخر مرافعته مؤكداً أن كل شىء تم تنفيذاً للقانون بأمر من النيابة!

وهنا اشتعل وكيل النيابة من الغيظ وابتسم سراج فكرى بينما تتم فؤاد ببعض الكلمات غير المفهومة لدى مع مساعده الرابض جواره.. عاود القاضى الضرب بمطرقة وطلب راحة نصف ساعة بعدها يتم استكمال الجلسة، مع وقوف القضاة نهض الحضور جميعهم وغاب القضاة

عبر الباب الصغير وبدأ الميدان يتسع للصحفيين والمصورين..
شقت الطريق صحفية شابة مسرعة نحو والدى وكنت جواره، أخرجت
مسجلها الصوتي «الوكمان» ومباشرة سألت أبى: كيف وصلت بقضيتك إلى
هنا، وهل تراها حقاً قضية رأى عام؟!

سؤالها كان يراود باقى الصحفيين فأنصتوا جميعاً عند الإجابة «فى البداية
تولى الأستاذ فؤاد المحامى رفع الدعوى على الخصم واتهامه باستغلال نفوذه
لأمور شخصية وتعطيل تنفيذ حكم قضائى وإنى قضيت ما يزيد عن عشر
سنين فى الحبس.. انحلت الدعوى للنيابة وبعدين للمحكمة هنا»..

أما عن كونها قضية رأى عام أردف أبى وهو يعدل ياقته ويفرك يديه:
الحقيقة معنديش علم وما كنتش أعرف إن ممكن يكون فى اهتمام صحفى كبير
بالقضية زي كده، بس أكيد عشان بتمس مؤسسات سيادية فى الدولة..

وجهت الصحفية سؤالها إلى الأستاذ فؤاد: حضرتك.. تظن إن الإجراء
السريع الى اتخذته النيابة بتحويل القضية إلى المحكمة يرجع إلى قضية «شركة
الأمن» المتورط بها السيد سراج فكرى..

- أكيد طبعاً.. فساد شركة الأمن المملوكة للضباط السابق كبير وقضيتنا
حركة القضية دى برضه أظن..

لم يتحرك خالى ماهر من مكانه ولم يشترك فى أى أحاديث جانبية أما بلاليلو
وجمال فوقفا جانبى وتكلما قليلاً عن عودة الحق لأصحابه وما إلى ذلك، عبر
بخاطرى طيف نجاة وقضيتها هى الأخرى!

مرة أخرى عادت الجلسة لنصابها وعاد إلى القاعة نظامها، وتوجهت

..... مساكن أهل الهوى=

الرءوس والأعين إلى السادة القضاة من جديد، قال القاضى: السيد عزيز سالم محمود جاوبه والدى رافعاً يده فأكمل القاضى: أريد سماع الادعاء منك وأقوالك كاملة وبعدها تتولى النيابة بعض الأسئلة كما ورد فى طلبها.. تحرك والدى إلى المنصة ثقيل الحركة أو رصينها لا أستطيع الحكم ولكنه مهموم، والآن جاء دوره للحديث عما حمله فوق أكتافه سنوات، تحدث بالفصحة كأشد الخطباء بلاغة..

«أيها السادة قضاة ومستشارون، المحامى والخصم والحضور، الآن أقف لأحدث عن قضية ولدت من بعيد من خمسينيات هذا القرن، تغذت على نضالات الشارع المصرى وازدادت شراسة مع نمو الآلة البوليسية ليصبح كل شىء بأمرها، لا قانون سوى البدلة النظامية ولا عزاء لنا سوى الحب، حب البلد وحب صافية وحب المستقبل وحب التمسك بالأمل.. لم أكن بطلاً ولا ثائراً، كنت عاشقاً لا غير..

زاد اللغظ فى القاعة وارتفع الصوت بين الحضور وسرعان ما عادوا لصمتهم عندما رفع أبى صوته قائلاً: نعم أنا قضيت من عمرى سنوات فى السجن من أجل العشق!

العشق الذى جعلنى أبصر ما فى الكتب وأرى ما فى الوطن أغار عليه كما أغار على محبوبتى وفى الحالتين وقف أمامى نفس الشخص ومن خلفه نفس الآلة، أراد خطف الوطن والحبيبة فى وقت واحد، يسلبنى المسكن والمأوى، يضع الحبيبة تميمة وسط نياشينه والوطن يزين به قبعته أو نجومه! أكثر من عشر سنوات قضيتها مقيداً لحكم أصدره ومكنه منه جبروته

وقوته، وخلل استغله بمنظومة القانون!
حكمه الأشد قسوة هو موت صافية دون أن أراها، وموت الوطن وربما
انتحاره، هجرته، أو ترحيله ببطاقة أعمال إلى الخليج!
شكرى الطوخى ورأفت إسكندر وأخى!
هم أيضًا شركائى فى القضية!
وحضرتك يا سيادة القاضى، طرف فى تلك القضية، ألا تمثل القانون
المغتصب وفى أفضل الحالات ملتف عليه؟!
وأنت أيها المحامى المحترم المدافع عن الخصم، هل ترى فى ما نقوله ثغرات
تقفز عليها وتمر إلى قانون آخر تفصله غرائزك ومطامعك ومجذك الشخصى
والأهم جيوب موكلك المنتفخة!
عشر سنوات قضيتها دفعة واحدة خلف الزنازين وبين جدران صامته
وعودة إلى الشارع كهارب من السجن، هارب دون قضية!
أيقود العشق للسجن، أم يذهب بنا إلى الثورة وهناك نهدم ما شيده
الطغاة، هكذا أخبرنا المثقفون والمفكرون، أتراهم يكذبون؟!
لن أتحدث عن مساوئ الزنازين فالجميع لديه بها علم، أنا أتمسك
بمطالبي ولا شىء غيرها يا سيادة القاضى وأعاود إلقاءها أمام حضرتكم
وحضرات الحضور..

اختصام المدعو سراج فكرى بصفته السيادية وشخصه ومدير سجن طرة
فى الفترة من 1977 وحتى 1980، ومدير سجن القلعة فى الفترة من 1981
وحتى 1986، ومدير سجن دمنهور العمومى فى الفترة من 1986 وحتى

..... مساكن أهل الهوى=

1989، ومعهم مدير مصلحة السجون الحالى والأسبق، واختصاص وزير الداخلية الحالى والأسبق أيضاً!

دبت الحركة فى المحكمة ومعها ارتفع الصوت واندھش وكيل النيابة وطلب القاضى من الحضور التزام الهدوء وإلا سيتم إخلاء القاعة تماماً، كالعادة عاد الجميع للصمت..

قطب القاضى حاجبيه وسأله هل يريد أن يقول شيئاً آخر..

فالتفت والدى إلى وقال: أريد ما يعوضنى عن ضياع عشر سنوات من عمر ولدى دون أن أراه أو يرانى لوقت كافٍ، تركته شاباً فخرجت وجدته رجلاً، يحمل من صفية الحب والحقيقة..

صفق خالى ماهر بيده دون صوت مسموع أما القاعة فقد انطلقت فى تصفيق مستمر ولحظات من الإجلال..

بينما سراج وقد ثبت نظره إلى أرضية المحكمة لم يرفع وجهه إلا بسؤال القاضى عما يريد أن يقوله، خاصة بعد تنحى النيابة عن طلبها سؤال المدعى واكتفائها بما قاله..

وقف شاخاً وقال بصوت جهورى «لم أنفذ سوى ما يحفظ النظام ويصون قانون ذلك البلد» رسمت ملامحه موقفه الحاسم والقاطع ثم جلس مستكفياً بدفاع محاميه..

« نعم.. أحببتها ومازلت أحبها..

أحببتها أكثر منه.. الآن أصارح الجميع وأصارح نفسى من قبلها، أحببتها وعشقتها صغيرة وانتظرها تكبر فتكون لى فسرقتها منى..

هو السارق الحقيقي هنا، اسألوا أخاها، صديقي القديم الذى سرقه أيضاً، أنا رجل الدولة والنظام، واجهت مجرمين ومخربين، إرهابيين وفوضويين، كيف لشخص مثله أن يسرق حلمي!
لم أستغل نفوذى، بل كل شىء عندى دائماً كان مباحاً، هناك قانون آخر تطبقه الدولة، قانون المصلحة العامة!

قانون الأمن الداخلى، وأنا من راعيته سنين وشهوراً من عمرى ومع ذلك سرقنى ذلك المتحذلق.. « لماذا لا تتسم بالجرأة يا حضرة الضابط فتقول تلك الجمل بشفافية كما أظهرتها عينك بنظراتها الحادة، فأنا أراها وأسمعها تتردد داخلك، تمسك أيها الرجل بغطرستك وغرورك لتظل بطل القصة للنهاية حتى وإن كنت جانبها المظلم لربما شاركت والدى اكتساب عاطفة وحماسة الحضور ووجدت صحفياً يلتمس لك العذر ويصورك بطلاً فهذه الدنيا تسير على صراط الأهواء ولا غير!

سيطر الوجوم على القاعة أكثر من قبل وبدأت أسئلة وكيل النيابة تنهال على سراج فكرى فيجيب بعضها ويغض الطرف عن الآخر..
الحكم بعد المداولة.. قال القاضى وترك الجميع يخمن ويختبر حدسه إلى أى شىء تنتهى تلك القضية..

مراسم دخول القضاة لم تتغير ورد فعل الحضور ثابت، أراح القاضى ظهره إلى مقعده الوثير وأسند نظارته على أنفه جيداً وقال: يتم تأجيل الحكم إلى جلسة الخامس والعشرين من يناير المقبل بعد الاطلاع على كافة الأدلة والأوراق وملفات مصلحة السجون ودفتر نزلاء السجون الآتى ذكرها:

طرة، القلعة، دمنهور..

مع استدعاء باقى الشهود ومديرى السجون السالف ذكرهم.. رفعت
الجلسة..

خرجت من المحكمة وتركت والدى بين المهنيين والمتسائلين وأقلام
الصحافة وعدسات التصوير، لم ألفت انتباه بلاليو أو راوية وجمال عند
الخروج..

دائماً ما أعبر من الأبواب الخلفية حتى وإن لم تكن موجودة، فيبقى
الانصراف فى صمت أحد سماتى التى أحبها..

صفية أيضاً أجادت الانصراف فى صمت، ماتت على فراشها دون صراخ
ودون مرض، ماتت وتركت لنا الحزن وعبون ممتلئة بالعبرات، تركت الصراع
وغادرت، ربما تراقبنا الآن من بعيد وشعرها الأسمر ينساب خلفها ونظراتها
الصفافية ترمقنا، ماتت فخورة بعزیز وراضية عن أحلامه وحياته، أما أنا يا
صفية..

أنا بطلك الحقيقى ابن عمرك، ابن تاريخك، ساكن رحمك وبطنك، من
ذاق نهديك وشعر بدفء أحضانك تركيه!

تركيني فتخلعنى عنى سند الظهر، لكنى أسامحك وأدعو الله أن يرفع
عنك وزرك..

تابعت المسير دون وجهة حقيقية أتابع الشوارع وأرى الكون وعالمه من
خلال قاطنيها والمارين بها..

العالم ممتلئ بمواد تصلح عناوين للصفح الأولى بالجرائد ولقطات

تقتنصها عدسات المصورين، أبى الآن بحكايته أصبح إحداها، غداً نجد صحفياً يتشدد بكلماته ليكون عنوانه مثلاً «محاكمة النظام» وربما «الحقيقة بين السيادة والحماية» وغيرها إلى آخر العناوين المبهرة، برق في رأسى وميض لصديقى المغامر كريم ثروت وصاحبه المصور فيكتور ملاك، إذا كانوا بمصر الآن فبلاشك لو جدتهم في أول الصفوف ينتظرون الصدام مع النظام وأركانه، لا أعلم عنهم الكثير من الأخبار فقد انقطع اتصال الجريدة بهم تقريباً وتلك فاجعة كبرى من توابع التاسع والعشرين من نوفمبر - اليوم المشؤم - يوم أذن مجلس الأمن بالتدخل العسكرى فى الكويت .

الأستاذ محمد مهنى هو الآخر يقود معركته لكنه لا يعلن السمع والطاعة يفتش وراء رجب السروجى وتجار العملات الأجنبية وأصحاب شركات توظيف الأموال دون كلل ويكشف عن لحاهم الكذب وبدورهم يقاومون بأفلام اجتذبوها يميناً، كعبد الرحيم وغيره من يتحدث عن فضل شيوخه وفضل جمعياتهم الخيرية ومساهمتهم لسد شروخ الفقر، والحقيقة تغيب عن الناس ولا يتبقى منها سوى محاكمة بين الحق والباطل والخطأ والصواب، فقط هذا ما يتبقى للجميع، محاكمة للضمائر داخل السرائر!

أما هذه فليست محاكمة وليسوا قضاة ولا متهمين فى القفص أو خارجه، إنها جلسة مصارحة على مسرح خشبى وجمهور لم يدفع ثمن التذكرة من الأساس لكن بدونه لن يكتمل العرض، ولن يصبح لعزیز وسراج صبغة أولون..

لا أتخيل نفسى سوى واحد من هؤلاء الجمهور، لا كاتب ولا بطل

..... مساكن أهل الهوى=

وبالطبع لست المخرج، إن الأبطال صداميون لأقصى درجة والمؤلف شديد النبل وأنا بعيد عن تلك الصفتين، قد أكون ابن البطل لكنى لم أرث عنه الكثير ربما ورثت من أمى الأكثر وأخر شىء آل إلى منها هو ماها!
ماها الذى أنفق منه أخيراً فى شىء أحبه وبمحض إرادتى كما أتخيل ذلك، قريباً سأفقد شغفى لتلك التجارة الجديدة وأجدها خاسرة وأقيم الفن بالمال لأول مرة، عندها يضيع ما تبقى من على!

ولكن ما هو الضياع؟!

علا عبد الهادى شحاتة مثلاً؟!

هذا لم يكن ضياعاً، فقد وجدت نفسها وأنا حملت الذنب كاملاً، يا ليتني واجهته واعترفت بفعلتى وكنت لها رجلاً يتحمل مسؤولية الحب!
ما فعلته نجاة بنشأت وبفسها ليس ضياعاً بالتأكيد هو شىء آخر... هى حقاً شجاعة أو متهورة وربما صدامية، وعلى النقيض صديقى رشدى محام للصوص والمغتصبين وأصحاب الذمم السيئة، فى المرة الأخيرة التى قابلته فيها أخبرته أن نشأت شخص قذر وحاول التعدى على نجاة فكان رده «نجاة مش أول واحدة ونشأت أفذر بكثير مما تعرف أو تتخيل، لكنه شغلى»..
يعترف ويقر ويستمر ويشعر بالفخر أيضاً دون موارد أو خجل مما يطلقه عليه جمال صديقنا الثورى، الباحث عن الحقيقة هو الآخر..

ولكن الحقيقة شىء نسبى دائماً والأوجه متغيرة، متناقضة أو متقاربة ذلك ينطوى داخلنا، ليست هناك حقيقة جامدة، ولا خير مطلق وشر على الدوام..
تلك المسميات فى عالم أفلاطون حيث الأفكار الكاملة والبشر صور

منقوصة من النموذج الكامل، لا يوجد في الواقع سوانا، أنفسنا البشرية
أهواؤنا ولفيف الذكريات، لا أحكام ولا ثوابت!
لا أنتمى لكل تلك العوالم، وتلك الأزمنة الجامدة، لست واحدًا من
هؤلاء المقاتلين لكننى مهتم بقتالهم وإن اكتفيت بمتابعة الأخبار، ربما هنالك
قيمة لما أكتب أو أقول وقد لا يكون هنالك متابع واحد من الأساس، وكل
شئ يظل حبرًا على ورق، الحب والولع وليالى الصبا، تلك الأيام التى ولت
أخذت من رحيقها الكثير وها أنا الآن فى وحشة، هل بلغت منتصف العمر
أو لا، وماذا يهم؟!

أسراب الطيور التى تعبر بسماء المدينة تعرف هويتها وتحدد مرادها
وتعرف عن وجهتها القادمة أكثر منى، دون بوصلة أو أجهزة ملاحية جوية..
أين السرب الذى أنتمى إليه؟!

القهوة، الشيشة، كاسات من البيرة، ليالٍ حمراء ببيت عايذة والإسكندرية
فى كل وقت وتحت أى ظرف، أم الشيخ بركات وحديث الأحلام والكتابة
دون قيد أو مسئولية، أظنهم الأقرب.. حقًا.. هم الأقرب.. مرحبًا بى إذن
ساكنًا أصيلاً فى الأبراج العاجية شاهقة الارتفاع شديدة الانحدار!
أنا حيث الهوى!

لماذا لا أرفع صوتى فى وسط الميدان وأمام المارة وأقول بحماسة دون خوف
«أنا من سكان أهل الهوى» هل من قاطنين جدد؟!
رفعت سماعة الهاتف وأدرت قرصه طالباً مكتب الأستاذ فؤاد، جاءنى
صوت سكرتيرته الحسنة من الجانب الآخر ..

..... مساكن أهل الهوى=

- مين يا فندم ؟

- إياد رامز الصحفى ..

حولت المكالمه لهاتف الأستاذ الداخلى ، سألته بهدوء وفى كلمات موجزة .. أهذا الملف للنشر ؟!

ضحك بصوت عالى وانتابه سعال قليل ورد بسؤال آخر ، وماذا عساه أن يفيد ؟!

أسرعت فى الإجابة : الحقيقة ..

وهنا عدت إلى على ونجاة وعزيز وسألت نفسى قبل الأستاذ ، أية حقيقة ؟!

تهت ..

هارس - 2017

للتواصل مع المؤلف:

Mohamedredaadawy93@gmail.com

<https://www.facebook.com/mohamed.redaadwy>